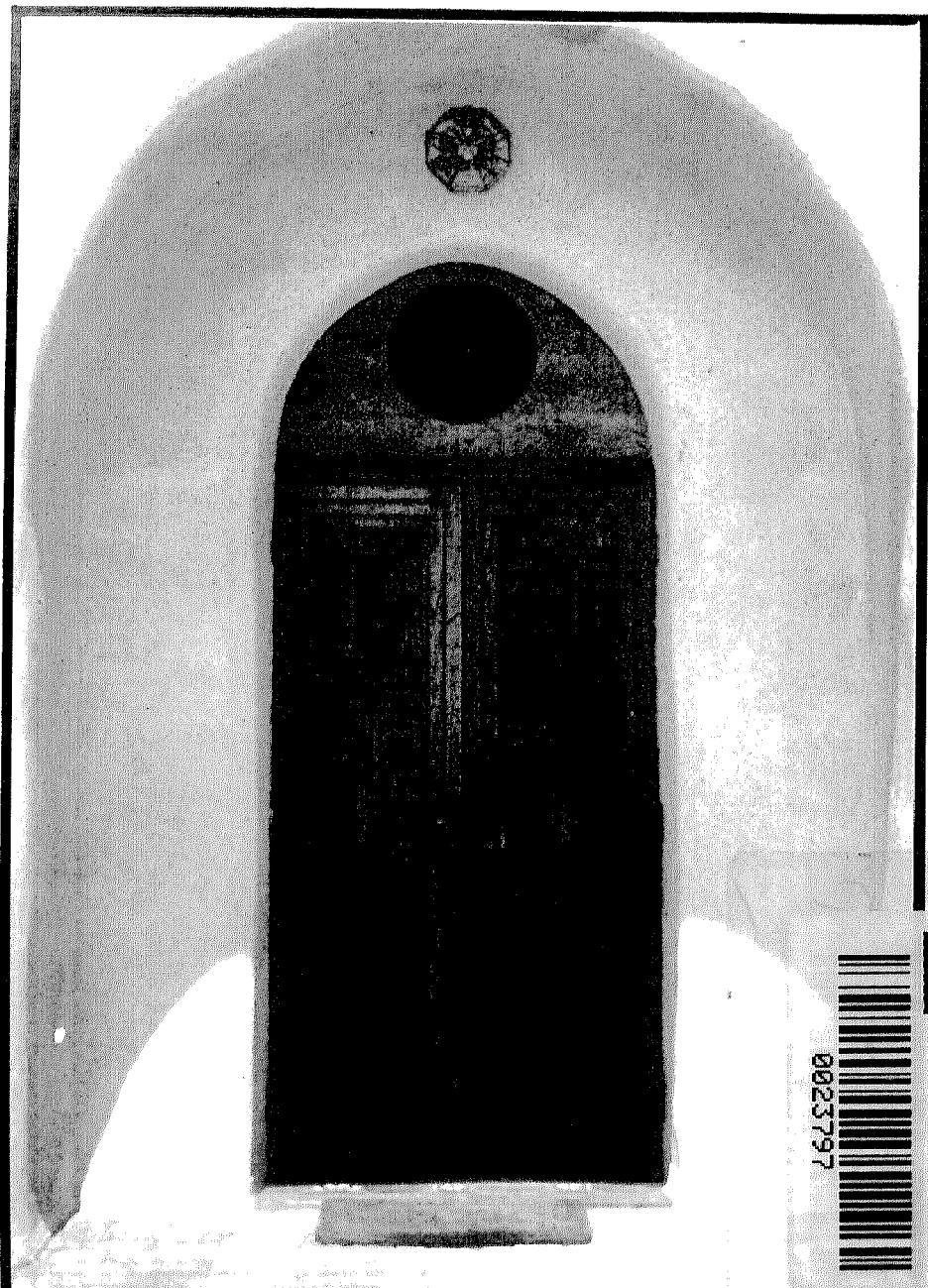


لإسات في تاريخ الحضارات القديمة
(٤)

العرب قبل الإسلام



Bibliotheca Alexandrina



دكتور حسين الشريخ

١٩٩٣

دار المعرفة الجامعية
ج. ش. بوتقة - المكتبة
جامعة الإسكندرية - مصر

أستاذ التاريخ القديم المساعد
جامعة الإسكندرية - مصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهرب قبل الاسلام

دراسات في تاريخ الحضارات القديمة

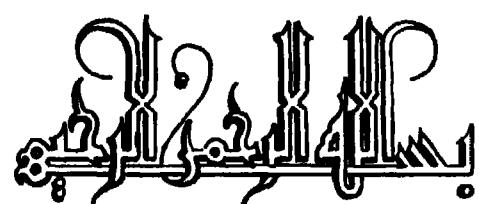
(٤)

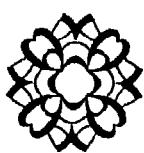
العرب قبل الإسلام

دكتور حسين الشبح

أستاذ تاريخ القديم المساعد
بجامعة السسكندرية وبروفسور بجامعة

دار المعرفة الجامعية
٢٠ شارع سعد زغلول - الدوادمي -
الإسكندرية





مقدمة عن التاريخ
وأحضاره والآثار

عن التاريخ

تستخدم لفظة «التاريخ» عادة للدلالة على ناتج مجموع النشاط الإنساني ، في زمن سابق . وبالتالي يصبح التاريخ عبارة عن سجل لكل أفعال الإنسان أو أفكاره أو أحاسيسه أو أمانيه ، وإنجماً يصبح سجلاً لكل ما حدث داخل نطاق إدراك هذا الإنسان^(١)

واستعمال لفظة التاريخ - بوجه عام - يجعل اصطلاحاً يبدو كما لو كان مألفاً لدينا يقفر مباشرة إلى الذهن لإرتباطه الوثيق بتلك اللفظة هو (ما قبل التاريخ) والذي استعمل بطريقة تكاد تكون ثابتة في الماضي للدلالة على الفترات السابقة تاريخياً على الكتابات التاريخية المدونة ، وطالما لم يكن التاريخ فرعاً من فروع الأدب المكتوب ، وطالما أن علم الآثار قد كشف لنا من خلال الحفائر والاكتشافات المستمرة عن تاريخ المجتمعات القديمة فيما قبل اختراع الكتابة بشكل يكاد يتساوى في الوضوح مع المعلومات التي نستقيها من خلال الكتابات التاريخية ، لذا يصبح تعبير (ما قبل التاريخ) في غير موضعه الصحيح ، إذ تصبح الفترة التي يرمز لها مثل هذا التعبير تاريخاً شأنها في ذلك شأن فترات أخرى ظهرت فيها الكتابة التاريخية ووصلتنا صورة واضحة عنها عبر هذه الكتابة ، وبالتالي فقد يكون

(١) سنعرض فيما بعد للتفسيرات المختلفة للتاريخ وطبيعة وأهداف دراسته وأدین في الجزء الأول من هذا التقديم للدراسة القيمة التي أجرأها بروفسور بارنز حول «تاريخ كتابة التاريخ».

Cf. H. E. Barnes, A History of Historical writing second revised Edition, Dover publications, New York, 1962.

تعبير (ما قبل الكتابة التاريخية) هو الأنساب والأدق استعمالاً للدلالة على الفترة المشار إليها والتي سبقت ظهور أول تدوين للتاريخ بالشكل المعروف لدينا^(١).

لذا يمكن القول بأن أول وثيقة تاريخية وصلتنا هي أول أداة حجرية صنعتها الإنسان في العصر الحجري القديم - أو حتى فيما قبل هذا العصر - واستخدمها في أي شأن من شؤونه كالدفاع عن النفس أو الصيد أو غيره من نواحي الحياة في مثل هذا المجتمع، ذلك إن جاز نطلق على تجمع بشري لم يزل في طور التكوين بعد لفظ المجتمع.

وإذا أضفنا إلى هذا أن الجزء الأكبر من عمر الإنسان على الأرض قد انقضى (فيما قبل العصور الحجرية ثم العصر الحجري القديم فالوسيط فالحديث) قبل ظهور الكتابة المدونة ومن ثم الكتابات التاريخية، لأدركنا مدى أهمية دراسة هذه الفترة التي هي في الواقع بداية تاريخ الإنسان في تحوله التدريجي من الهمجية إلى الحضارة.

ورغم أن البقايا الأثرية التي وصلتنا من الفترة السابقة على ظهور الكتابة تعطينا تصوراً شبه كامل عن طبيعة الإنسان الذي استعملها والظروف التي مر بها، إلا أن (فك) هذا الإنسان يظل غامضاً حتى يبدأ بحاول التعبير عن أحاسيسه وردود أفعاله تجاه ما يمر به من أحداث بشكل ثابت وهنا بدأت الحاجة إلى الكتابة تتضيّع.

وغالباً ما ترجع أصول الكتابة إلى أواخر العصر الحجري القديم حيث ظهرت أولى مراحلها على شكل صور على جدران كهوف هذه الفترة، وفي البداية كانت هذه الصور تدلل كل منها على شيء مادي محدد، ثم أضيفت صور تعبّر عن الأشياء المعنوية غير المادية، ثم ظهرت الحاجة إلى الربط بين هذه الصور وبين صوت الإنسان، فبدأت كل صورة تعبّر عن كلمة معينة ثم وبمرور الوقت أمكن تحليل الكلمات إلى أصوات متعددة وصور أو رموز

Barnes, op. cit., pp. 3 - 4.

(١)

مختلفة، ومن هنا بدأت فكرة الأبجدية في الظهور^(١).

وفيما قبل الميلاد ربما بأكثر من ثلاثة قرن عرف المصريون القدماء كيفية استخدام أربعة وعشرين رمزاً هيروغليفيا تدلل على الأصوات الساكنة، ثم ظهرت الأبجدية المسمارية (التي تكتب بحروف أو رموز تشبه المسامير) ثم الأبجدية الفينيقية التي ترجع لحوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم ظهر الأغريق وأدخلوا الحروف المتحركة إلى الأبجدية التي انتشرت بعد ذلك على يد الرومان حيث أعطوها الشكل الذي انتشرت به في أوروبا الغربية والشرقية.

وكما تطورت الكتابة تطورت أيضاً الأدوات المستخدمة فيها فلم تعد الأحجار والألواح وجلد الحيوان وغيرها مواد كافية للكتابة، وبالتالي ظهرت الحاجة إلى الورق الذي بدأ المصريون القدماء في استعماله حيث صنعوه من نبات البردي، وإلى الاحبار التي تستخدم في الكتابة والتي صنعت من الصمغ والأصباغ النباتية^(٢).

ويظهر الكتابة فمن الممكن أن تتوقع وصول بعض الكتابات التي يمكننا أن نطلق عليها - مجازاً - لفظ «كتابات تاريخية» إلا أن هذا النوع من الكتابة في الشرق كان قليلاً نسبياً (إذا أخذنا في الاعتبار أننا نبحث عن التاريخ بمفهومنا الحديث) إذ تقتصر المادة التاريخية في هذه المنطقة على النقوش وقوائم الملوك مع ملاحظة ما يحيط بهذه المادة من شك، حيث يمكن القول أننا لو اعتمدنا عليها كلية فإننا نكتب التاريخ من وجهة نظر واحدة هي وجهة نظر الملوك والمحاكم أصحاب هذه النقوش والقوائم.

غير أنه لا يجب أن نتجاهل هنا واحد من أشهر كتاب التاريخ المصري القديمي وهو «مانيدو» الذي جمع بتكليف من بطليموس فيلادلفوس عام ٢٧٥ ق. م. قوائم ملوك مصر والأحداث التي تمت في عصر كل منهم

Ibid, pp. 4 - 10.

(١)

Ibid, pp. 10 - 12.

(٢)

وترجمتها إلى اللغة اليونانية، والذي امتازت كتاباته بالموضوعية - إلى حد ما - في جمع المادة التاريخية وتفسيرها. رغم أنه من الواضح أن هذا الأنجاز قد تم في عهد البطالمة في مصر، أي أن هذا المؤرخ بلا شك قد تأثر بالروح والحضارة الجديدة التي عرفت فيما بعد بالحضارة الهلينستية^(١).

ويجرنا هذا إلى الحديث عن الكتابة التاريخية عند اليونان^(٢). حيث جرى العرف على اعتبار كتابات «هوميروس» أول كتابة تستحق الذكر كمصدر عن المجتمع اليوناني في هذه الفترة، إلا أن الكتابة التاريخية الحقة لم تبدأ إلا بعد اكتشاف الشر كوسيلة جديدة للتعبير عن فكر الإنسان، وهنا يجب أن نذكر «هيكاتايوس» من ملطية قبل «هيرودوت» الذي اصطلاح على تسميته أو وصفه بأول مؤرخ أغربي، حيث اقترب «هيكاتايوس» من النقد التاريخي كثيراً في كتابه عن «الأنساب» خاصة وأنه قد أخذ موقفاً نقدياً من الأساطير الأغريقية التقليدية.

ثم يظهر هيرودوت كأول مؤرخ يوناني يقوم بعمل تاريخي متكملاً، حيث كتب «التاريخ» والتي كان عمادها الأساسي الحروب الفارسية اليونانية إلا أنها اتسعت بحيث تحولت إلى عرض شامل للحضارات الشرقية والغربية، ورغم كل ما يوجه من نقد لكتابات هيرودوت إلا أنه يبقى له فضل الريادة في هذا المجال.

ويحدث التحول الحتمي في طريقة الكتابة التاريخية عند اليونان بظهور «ثوكيديديس» وتاريخه عن الحروب البلوبونيسية بين أثينا واسبرطة ومحاولاته لتفسير أحداث التاريخ في ظل أسباب عقلية منطقية تتعلق غالباً بطبعية تكوين المجتمعات ومنهاجه العلمي في الكتابة القائم على الدقة في جمع المادة التاريخية السليمة. ذلك رغم ما وجه إليه من نقد حول اغفاله لأهمية العوامل

Ibid, pp. 16 - 17.

(١)

(٢) عن هذا الموضوع بالتفصيل راجع دراسة تويني عن الفكر التاريخي عند الأغريق والتي عرض فيها لعدد كبير من المؤرخين اليونانيين مع نماذج من أعمالهم

A. toynbee, Greek historical thought, Macmillan 1924.

الاقتصادية في التاريخ وقصر اهتمامه على النواحي الحرية والسياسية.

ثم ظهر «بوليبيوس» خلال القرن الثاني قبل الميلاد بتاريخه عن روما حتى عام 146 ق. م. والذي عكس بوضوح اهتمام اليونانيون بهذه القوة الجديدة التي بدأت في فرض نفسها داخل وخارج حوض البحر المتوسط. ويحسب لبوليبيوس أنه حاول تطبيق القواعد المنهجية في الكتابة التاريخية، حتى أنه نقد بعض المؤرخين أمثال «تيماؤس».

ولا يجب أن ننسى «كستوفون» الذي ظهر في أواخر القرن الخامس وحتى منتصف الرابع قبل الميلاد تقريرًا بكتاباته التاريخية (الأدبية) وأفضل ما يحسب له كان ابرازه لتأثير العوامل الاقتصادية على التاريخ. كذلك يظهر مؤرخون مثل «ديودوروس الصقلي» و«ديونيسيوس من هاليكارناسوس» و«بلوتارخوس» بكتابيه عن السير المشابهة والأخلاق، و«اريان» و«ديون كاسيوس» و«اميانيوس مركلينوس» منمن لا يتسع المجال هنا للتعليق عليهم^(١).

أما فيما يخص المؤرخون الرومان فقد التزموا إلى حد كبير بطريقة الأغريق في كتابة التاريخ، رغم ظهور أسماء لامعة مثل «يوليوس قيصر» بكتاباته عن الحروب الغالية والحروب الاهلية ثم «سالوستيوس» بكتاباته عن تاريخ روما ومؤامرة كاتلينا، ثم «ليفيوس» وكتابه عن روما، ثم «ناكيتوس» بحولياته وتواريخته، ثم «سويتونيوس» وكتاباته عن حياة القياصرة^(٢).

هذا فيما يخص المؤرخون، أما فيما يخص التفكير التاريخي ذاته، فهو يحمل في داخله العديد من المميزات والعيوب المرتبطة به، فالماضي أو «التاريخ» عبارة عن العديد من الحوادث التي تحمل طابعًا مميزًا لها من حيث المكان والزمان، والسمة المشتركة بين كل هذه الحوادث هو أنه لم يعد لها وجود الآن، ومحاولة فهم هذا الماضي استناداً إلى المنهج الرياضي في

Barnes, op. cit., pp. 26 - 36

(١)

Ibid, pp. 36 - 40.

(٢)

التفكير من الممكن أن لا تتحقق الفائدة المرجوة، إذ أن هذا المنهج يدرس المادة مجردة من المكان والزمان، ونفس الشيء يمكن أن ينطبق على أسس التفكير في فلسفة الأديان، فهذا النوع من التفكير يدرس حقيقة واحدة أبدية، على حين أن حقائق التاريخ متعددة ومرهونة بزمن معين. كما أن أسس التفكير العلمي تكشف عن حقائق معينة. استناداً إلى الملاحظة والتجربة وما يرتبط بهما من أمثلة تتطابق مع المدركات الحسية والتجربة للإنسان، وعلى الجانب الآخر فمن المؤكد أن الماضي قد انتهى ولا سبيل للتأكد من صدق التفكير فيه، وبهذا يبدو طبقاً لهذه المناهج الثلاث - كما لو أن الحقيقة التاريخية هي أمر مستحيل وبالتالي لا يتبقى لنا سوى المنهج الفلسفى لدراسة التاريخ والذي قد يستخدم كل هذه المناهج مجتمعة في إطار خاص به^(١).

والحقيقة التاريخية هي علامات مميزة على طريق التطور - سواء صعوداً أو انحداراً - لأى مجتمع، والتي هي في النهاية محصلة الحوار بين هذا المجتمع والظروف المحيطة به. أما بقية الحقائق فلا تعود أن تكون تكراراً لهذه العلامات المميزة أو الحقائق التاريخية وبالتالي فقد تصلح لأى فرع من فروع المعرفة الإنسانية إلا أنها في الغالب لا تشكل حقيقة تاريخية.

ولتوسيع الأمر يمكن لنا إعادة استخدام المثال السابق ذكره حول ظهور اللغة ثم اختراع الكتابة وتطورها، إلى أن وصلت لتصبح أبجدية واضحة بعد أن بدأت بصورة ذات دلالة معينة. فأول استخدام لهذه الصور أو الرسوم يعتبر حقيقة تاريخية في مجال تطور الجنس البشري أما آلاف الصور المكتشفة بعد ذلك فلا تعود أن تكون تكراراً لهذه الحقيقة، وبهذا فهي قد تفيد مثلاً في التعرف على بعض نواحي الحياة اليومية لهذا الإنسان - وقد لا تفيد - لكنها تبقى حقيقة غير تاريخية، لكن عندما يتطور هذا الشكل من الكتابة ليصبح

(١) من المفترض (رغم بعض الاعتراضات التي يسوقها قلة من المشغلين بالتاريخ) أن هذا العلم قد تخطى مرحلة التاريخ عن طريق تتبع الحوادث بتواريχها والنصوص التي تؤكدها، إلى محاولة تفسير هذه الحوادث وفلسفتها، وفي هذا تختلط ذاتية المؤرخ - التي لا يمكن تجاهلها - بالمعلومة التاريخية والمنهج المستعمل في تفسيرها.

لدينا أبجدية بالمعنى المعروف نعود لنعتبر هذا حقيقة تاريخية أخرى، ولا يعني هذا بالضرورة أن كل الكتابات التي وصلتنا بعد ذلك يمكن أن تكون لها هذه الصفة - فبعضها مثلاً لا يستحق عناء قراءته - لكن مرحلة التحول هذه هي التي يمكن أن تعتبرها حقيقة تاريخية^(١).

و حول طبيعة التاريخ، فمن الواضح أن التاريخ هو الحوادث أو بعبارة أدق هو دراسة هذه الحوادث. والحوادث نوعان: الأول سريع مفاجئ، وقد يكون عنيفاً للغاية كالثورات والحروب والكوارث الطبيعية المفاجئة كالزلزال وثورات البراكين وغيرها، والثاني بطيء كعمليات التطور في البيئة الجغرافية

(١) ويبدو أن الحقيقة التاريخية الصادقة والمؤكدة تماماً شيء صعب المنال، وأورد هنا المثال الطريف - ولكنه واف بالغرض - الذي أورده بروفسور «شوتويل» في كتابه «مقدمة عن تاريخ التاريخ» حول الأصل التاريخي للتوراة اليهودية وترجمته إن النص الحالي لم يكتب بواسطة شخص واحد وإنما هو تجميع لعدة كتابات على مدى خمسة قرون بدءاً من القرن العاشر حتى الخامس قبل الميلاد. ثم يقارن هذا بافتراض أنه كان من الممكن أن يصلنا هذا التراث الأغريق الذي وصلنا، فهو يفترض أنه كان من الممكن أن يصلنا هذا التراث بشكل مختلف، كأن نتعرف على كتابات «هزيدوس» عن أنساب الآلهة وخلق العالم مخلطة بفقرات من الآليانة «لهميروس» مدعمة ببعض من كتابات «هيرودوت» ومحاورات «أفلاطون» مع بعض المقتطفات من التراجيديا اليونانية ثم جاءت تعليقات وإضافات المحللين والشراح لمدرسة الإسكندرية لتزيد الأمر تعقيداً.

وتدرجياً اعتنق الفلاسفة نظرية مؤداتها أن هذا التراث بشكله المهوش هذا قد كتبه المشرع الأول «سولون» بناء على وحي الآله «أبوللو» في دلفي ثم ثبتت هذه النصوص على هذا الشكل وأصبحت غير قابلة للتغيير وبالتالي اكتسبت صفة القداة، حتى أصبحت تراثاً لشعوب أخرى لا تعرف شيئاً عن التاريخ اليوناني أكثر من هذه النصوص، وبالتالي يصبح لدى هذه الشعوب كتاب مقدس جديد على غرار توراة اليهود. وهنا لا يصبح هذا التراث الذي قد يصلنا بهذا الشكل حقيقة تاريخية ثابتة مؤكدة شأنه في ذلك شأن مجلم التراث الأغريقي الحالي والذي أيضاً يداخل بعض المؤرخين الكثير من الشك حول مدى صحة الكثير من جوانبه وطريقة ترتيبه الرمزية.

Cf I. Shotwell, An Introduction of the History of History. pp 82 - 83

و حول الحقيقة التاريخية المؤكدة راجع أيضاً الدراسة الصادرة عن أصل التوراة: كامل الصلبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب ترجمة عفيف الرزاز الطبعة الثانية، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت ١٩٨٦ ، والتي شكلت في وقائع حول أصل التوراة كانت شبه ثابتة حتى يومنا هذا.

والأنسانية والتي لا يمكن ادراكتها والشعور بنتائجها إلا على المدى الطويل .
والحدث التاريخي - سواء كان بطبيعة أو سريعاً - ينفرد بسمة مميزة له ، وهي أن الحال أو الظروف السائدة قبل هذا الحدث تختلف عنها بعد نفس الحدث . وهكذا يعني الحدث التاريخي في جوهره «التغيير» . وبهذا يكون التاريخ هو تغير مستمر سواء إلى الأفضل أو إلى الأسوأ .

وعلى سبيل المثال نجد أن العالم قبل ظهور السيد المسيح أو الرسول محمد ﷺ يختلف بالتأكيد عنه بعد ظهورهما ، كما أن العالم قبل ظهور سocrates وأفلاطون وأرسطو أو نابليون أو هتلر كان ولا بد مختلطاً عنه بعد ظهورهم ، ونفس الشيء ينطبق على الثورة الصناعية في أوروبا ، أو الحرب العالمية الأولى أو الثانية مثلاً .

ولما كان الحدث التاريخي - شأنه في ذلك شأن أي شيء - لا يمكن أن يتولد من فراغ ، بمعنى أنه لا بد لأي حدث من مسببات دينية أو سياسية أو اقتصادية ، وهي ثلاثة أسباب أو أوجه لشيء واحد هو (المجتمع) ، لذا يصبح من غير الممكن فصل أي حدث تاريخي عن المجتمع الذي وقع فيه هذا الحدث بكل ظروفه الدينية والسياسية والاقتصادية (حتى ولو كان منفذ الحدث ينتمي إلى مجتمع آخر كما في حالة القائد العربي عمرو بن العاص وفتحه لمصر) .

ويبدو أن العامل الاقتصادي هو المحرك الأول لأغلب النشاطات الإنسانية من سياسة إلى دين حتى الأخلاق ، فلا نستطيع إنكار دور الظروف الاقتصادية التي أدت إلى اشتعال العديد من الحروب منذ حروب طروادة في ملاحم «هوميروس» ، وحتى الحرب العالمية الثانية ، بالإضافة إلى حركات الاستعمار قديماً كان أم حديثاً ، مما جعل الدين وبالتالي سواء كان بدائياً أم متزلاً كاليهودية والمسيحية والإسلام يعطي أهمية كبيرة لتقنين التعامل بين أفراد المجتمع الواحد في إطار أخلاقي ، وبالتالي يصبح العامل الاقتصادي هو ركيزة أي تحرك بشري في مجتمع معين .

أي يكون الحدث التاريخي الذي يؤدي وبالتالي إلى التغير مرتبطةً ارتباطاً مباشراً بالظروف الاقتصادية للمجتمع الذي وقع فيه هذا الحدث.

أما عن الهدف من دراسة التاريخ، ففي البداية كان التاريخ يتخذ كعظة وارشاد، أو كان عبارة عن حوليات تسجل الأحداث والشخصيات البارزة، إلا أن التجربة الإنسانية هي دائماً جزء من الإنسان الذي خاضها وبالتالي دائماً ما تكون محدودة الأثر، فما ينطبق على إنسان لا يصدق على الآخر، وبذلك لا يكون اتخاذ العزة من تجارب الآخرين بالهدف السليم.

لكن ظهر اتجاه في تفسير وظيفة التاريخ يعتقد بأن الحوادث الحاسمة ليست إلا هزات سطحية تخفي تحتها الأسباب الباطنة واتخذ هذا الاتجاه من الإنسان محوراً لدراسته للبحث في هذه الحوادث الحاسمة في محاولة لتفاديها أو توقعها على الأقل.

ونجىء هنا نقطة الاختلاف حول مدى فعالية الإنسان وتفاعله مع التاريخ، فيظهر الاتجاه الجديد كرد فعل للاتجاه القديم الذي اعتمد أساساً على الأبطال في التاريخ كمحركين له، والاتجاه الجديد يلغى دور الإنسان ويريد كل الأحداث التاريخية إلى الجماعة، إلا أنه من المؤكد أن تداخل المؤشرات التي تحرك التاريخ يجعل من الصعب الأخذ بالتفسير الأول أو الثاني، وإنما لا بد وأن يتفاعل الإنسان بالمستوى الفردي أو الجمعي مع تاريخه و يؤثر فيه ويتأثر به.

ومن المؤرخين القدامى نجد أن «شوكيديس» هو أول من حاول التحليل التاريخي ولم يحاول أحد بعد ذلك حتى ظهر «ابن خلدون» في القران الرابع عشر الميلادي كما يقول بذلك «ايف لاكوسن» في دراسته لمقدمة ابن خلدون الشهيرة.

«حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والأنسان والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما يتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب

والمعاش والعلوم والصناعات، وسائر ما يحدث في ذلك العمران وطبيعته من الأحوال^(١)

وهكذا لا يصبح التاريخ وسيلة لامدادنا بحلول مشاكلنا لأنّه لا يعيد نفسه كما كان الاعتقاد سابقاً، ولكن يعيتنا إعانة واضحة على فهم واقعنا، والفهم الصحيح شرط للتواصل الحل الناجح كذلك فالتاريخ ليس شحناً للذاكرة بمواد قليلة أو كثيرة وإنما هو في الواقع رفع للإعباء الزائدة بادراكها ومحاول التخلص منها وبالتالي توظيف الطاقة المبددة في هذه الأعباء وتوجيهها وجهة أخرى أنسنة.

ومن المؤكد أن تصورنا للأمس يؤثر في صورة الغد ومعنى ذلك أننا إذا تحكمنا في صورة الماضي فسوف يعيتنا ذلك على التحكم في المستقبل، ولكن هذا لا يعني إطلاقاً أنه من ضمن وظائف المؤرخ أن يتنبأ بالمستقبل.

ومن المؤرخين نجد أن البعض قد حاول فحص الماضي البشري لاستخلاص فلسفة أو قوانين تزيح الستار عن سر الغد، وسار هؤلاء المؤرخون على نمطين:

النطّم الأول:

ويسمى بالخط التصاعدي، وفيه يقول التاريخ خط صاعد نحو اكتمال مستمر لا ينتهي، وبذلك تكون القاعدة هنا هي إيمان متفاءل بالرقي المستمر، ومن الذين اعتقادوا في هذا النطّم هيجل وكانت وماركس.

النطّم الثاني:

ويسمى بالدائي، بمعنى أن التاريخ عبارة عن سلسلة حلقات متناهية زماناً ومكاناً منفصلة عن بعضها، تمثل كل حلقة منها حضارة من بدايتها فنمواها فجمودها ثم انهيارها وبهذا فهي تشبه الكائنات الحية التي تولد وتنمو ثم تموت، ومن الذين اعتقادوا في هذا النطّم اشبنجلر وتيجارت وسوروكين.

(١) ابن خلدون، المقدمة، بيروت ١٩٥٦، صفحة ٧.

ولا يمكن للتاريخ أن يؤدي وظيفته في المساهمة في حل مشاكلنا عن طريق التحليل على الوجه الأكمل إلا بشرط أن يطابق الواقع، ولسوء الحظ فهذا الشرط شبه مستحيل لأن كل كتابه للتاريخ مهما التزمت الدقة هي تزوير له بدرجة من الدرجات لأن التاريخ الذي نكتبه هو صورة ننتزعها من ذهننا مدعاة بالوثائق والاسانيد ثم نتصور صدقها التام.

وأبسط أنواع التزوير للتاريخ هو التزوير غير المعتمد والذي يعود إلى طبيعة المؤرخ نفسه ومدى التزامه بالدقة في البحث التاريخي واستعماله للمنهج العلمي من عدمه، وميوله الشخصية وأفكاره، ومعتقداته وهذا النوع يمكن اكتشافه على الفور بواسطة القارئ الواقع.

إلا أن هناك نوعاً من التزوير المبيت المعتمد لحوادث التاريخ يقصد به أن يصبح سلاحاً لمناهضة سياسة معينة ومناصرة سياسة أخرى كما حدث عندما كتب بعض المؤرخون الغربيون تاريخ العرب قبل وبعد ظهور الإسلام، أو تاريخ الحروب الصليبية على سبيل المثال. وهنا يأتي دور المؤرخ المنصف غير المتحيز ليقول كلمته ويعيد كتابة التاريخ بشكله الصحيح.

وتجربنا مقوله أن أي كتابه للتاريخ هي تزوير له بدرجة من الدرجات مهما التزمت الدقة، إلى التساؤل المنطقي التالي :

هل التاريخ علم أم فن؟

وقد فتح ابن خلدون باب هذه المناقشة حول التاريخ بكلمته المشهورة:

«التاريخ فن عزيز المذهب شريف الغاية».

ومن الواضح أن التاريخ يميل قليلاً نحو الفن، إذ أنه بالإضافة إلى الحقائق المجردة التي يعتمد عليها المؤرخ، فلا يمكن لنا تجاهل خيال هذا المؤرخ وذاته وهو الذي يكسو هذه الحقائق المجردة لحمماً ويحيطها متحركة ذات صبغة إنسانية، ولكن التاريخ لا يفقد في نفس الوقت صيغته كعلم تخضع نتائجه للبحث والتتحقق والاتفاق بين العلماء تماماً كنتائج العلوم

الطبيعية، بالرغم من أنه لا يخضع لقواعد مجردة أو أصول مقتنة كباقي العلوم.

وقد حاول بعض المؤرخون الاتجاه بالتاريخ نحو العلوم الطبيعية وهو ما عرف باتجاه تقنين التاريخ ومحاولة وضع قواعد وأصول ثابتة له، إلا أن هذه المحاولة تعرّضها العديد من الصعوبات أهمها:

١ - لا يمكن إنكار دور الصدفة في التاريخ، وهذه الصدفة التي لا تخضع لأي منطق من عوامل هدم أي قانون أو نظرية تعتمد على الأستمرار المتكرر المتشابه للأحداث التاريخية هذه الصدفة أو ما يمكن إطلاقه (لو... في التاريخ) عليه، يمكن أن نورد لها بعض الأمثلة: لو قتل الارشيدوق رودلف ولـي عهد النمسا في عام ١٩١٥ أو ١٩٢٠ بدلاً من ١٩١٤ ماذا كان سيحدث؟ وهل كانت الحرب العالمية الأولى ستقوم أم لا؟ لو انتصر نابليون في موقعة «ووترلو» أو لم ينتصر العرب على المغول في موقعة «عين جالوت» أو انتصر الألمان في ستالينجراد مثلاً ودخلوا موسكو ماذا كان سيصبح وجه العالم اليوم؟ ولو لم يحصل الحلفاء على القنبلة الذرية قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية ماذا كان سيحدث؟ لو لم يخترع اللاسلكي والترانزistor في بداية ومتتصف هذا القرن واحتـرـع قبل أو بعد هذا ماذا كان سيحدث؟.

هذا الصدف في التاريخ أو (لو... في التاريخ) لا يمكننا إغفالها ونحن ن تعرض لأي حدث تاريخي، إلا أنه وجه لهذه الفرضية بعض النقد، من أن هذه الصدف إن هي إلا حلقات متسلكة تخضع لتوجيه معين يدخلها في باب الحوادث المنتظمة لا الصدف العشوائية، وهذا يجرنا إلى تفسير القديس «أوغسطين» للتاريخ من أنه سلسلة متلاحقة من الحوادث والصدف مرتبة بيد عليا كي يكفر الإنسان عن خططيته الأولى، إلا أن هذا الرأي لا يبدو لنا الآن في ضوء الظروف العقلانية التي نعيشها جاداً بالدرجة الكافية لأنه ارتبط بظروف معينة في الدول المسيحية عاشها القديس أغسطين ولا مجال لشرحها هنا. لكنها كانت السبب المباشر في تصوره لمعنى التاريخ، وهذا

يجربنا إلى النقطة التالية في الاعتراض على امكانية وضع قوانين محددة للتاريخ

٢ - حين نرغب في وضع قانون محدد للتاريخ لا يمكننا أن ننفي ذاتيه صانعي التاريخ، أي الأشخاص المفترضين للحوادث التاريخية سواء كانوا أبطال هذه الحوادث أم صانعوها والفرق معروف بين صانع الحادثة التاريخية وبطلها أو الشخص الذي يجمع الصفتين معاً^(١) فذاتية الشخص واتجاهاته وعواطفه، وبمعنى آخر فريديته يكون لها أحياناً دور كبير في توجيهه للحوادث التاريخية، وبالتالي فلا يمكننا أن نضع قواعد مثلاً لعواطف أو أفكار أبطال تاريخيين في ظروف معينة، فمثلاً أمر الانسحاب الذي صدر للقوات المسلحة المصرية في يونيو ١٩٦٧ لا يمكننا بأي حال أن نضع له قانوناً تاريخياً يحكمه، وإنما كان مثل هذا الأمر رد فعل لشخصية قيادية معينة لها مواصفاتها الخاصة التي تفرد بها في ظروف معينة.

كذلك مثلاً استشهاد الثلاثمائة محارب أسيوط بقيادة ملكهم «ليونidas» حتى آخر جندي في مضيق «ثرموبيلاي» وفي موقف ميشوس منه عسكرياً، لا يمكن لنا أن ننسره إلا في ضوء شخصية القائد وجندوه، ولا يمكن لنا اصطناع قانون تاريخي يقيم سلوكهم ويقضي بانسحابهم مثلاً. وبذلك نخلص إلى أنه من الصعوبة بمكان وضع قانون أو نظريات تحكم التاريخ كما هو الحال في العلوم الطبيعية بسبب الصدفة التي من الممكن أن تتدخل في توجيه الحادثة التاريخية ولاعتبار آخر إنساني يتعلق بذاتية صانع أو بطل الحادثة التاريخية.

أما عن الاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ في العصر الحديث فقد ساد أوروبا خلال القرن التاسع عشر تياران رئيسيان في كتابة التاريخ.

(١) في حالة فتح العرب لمصر يعتبر الخليفة عمر بن الخطاب هو صانع الحدث التاريخي، بينما القائد العسكري عمرو بن العاص هو منفذ الحدث، وقد يحدث الجمع بين الصفتين كما في حالة الاسكندر المقدوني وبيوليوس قيسار اللذان خططا ونفذا فتوحاتهم العسكرية بنفسهما.

الأول: تيار الواقعية الموضوعية الذي يكتب أصحابه الحقائق التاريخية كما كانت في الماضي تماماً.

الثاني: وهو القائل بتوسيع أحداث التاريخ بعضها من بعض أي أن التاريخ عملية توالت مستمرة، ويؤمنون باضطراد التوالي من عصر إلى عصر.

وعندما نشر «فولتير» كتبه عن «شارل الثاني عشر» و«لويس الرابع عشر» كان هذا لوناً من التاريخ لم يعرف حتى هذا الوقت، لذلك يميل الكثيرون إلى اعتبار فولتير مؤسس علم التاريخ في الغرب، إلا أن فولتير كان قد كتب التاريخ كأدب أو فلسفة، ثم ظهر «جيوبون» وكتابه الرائع عن «اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية» وكان بذلك أول مؤرخ غربي يكتب في العصر الحديث دراسة تاريخية لدولة كبيرة يقص فيها تاريخاً كاملاً، وعاصر جيوبون «فولتير ومونتسكيو وروسو» ثم ظهر «آدم سميث» وكان أول من نبه إلى أهمية العامل الاقتصادي في سير التاريخ، وقد أفضى كارل ماركس في هذه الناحية فيما بعد، إلا أن الفضل يرجع إلى آدم سميث في اكتشافها ثم ظهرت المدرسة الألمانية في التاريخ بأعلامها «ليوبولد فون رانكة» و«هيردر» والتي انتهى بها الأمر إلى اعتبار التاريخ علم له أصوله وقواعد وكراسيه وأقسامه في الجامعات.

أما عن «هيجل» ومثاليته التاريخية، فيقول هيجل بأن «الفكر أساس كل ما هو موجود» ولا يعني هيجل هنا العقل أو الفكر الإنساني، وإنما هو العقل الأعلى الذي يوجه الكون، وينبع هذا الرأي من إيمان هيجل العميق بال المسيحية، ويعتمد في تدليله على ذلك بحواره المعروف باسم (ديالكتيك) والذي انتهى به إلى أن الفكر الإنساني يسعى دائماً نحو التقدم ليصل إلى العقل المطلق الذي يعتبره مثالاً يحتذى به^(١)

أما عن ماركس ونظريته عن المادة التاريخية فتلخص فكرته في أن

G. W. F. Hegel, The philosophy of History, Dover Publications, New York, 1956, pp 8 - (١)
77 Passim.

التاريخ لا يسير بعزماء الرجال، وإنما تصنعه عمليات تطور اجتماعي داخلي في كيان كل أمة، وصراع الطبقات للوصول إلى الحكم، وأن العامل الرئيسي الذي يقرر المصير في النهاية هو الانتاج، وبذلك نص ماركس على العامل الاقتصادي في تحريك التاريخ وصاغ منه نظريته، ويرى ماركس أن التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الإنساني، وهي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج وطريقة توزيع الثروة وإذا أدرك الإنسان هذه القوانين لاستطاع أن يقرر صورة مستقبل الجماعة الإنسانية وبذلك تكون الظروف المادية للمجتمعات (في نظر ماركس) هي التي تحرك التاريخ وليس الفكر المطلق كما اعتقد المثاليون، ولكن ماركس لا ينكر دور الفكر، لكنه يجعله ناتجاً عن الأوضاع المادية وليس عاملاً مستقلاً بذاته.

والحقيقة أن الفكر هو إنعكاس الواقع الاقتصادي والإجتماعي لأي مجتمع إلا أن الفكر يمكن له أن ينمو ذاتياً وبذلك تصبح له القوة المؤثرة في الواقع الإجتماعي والاقتصادي لأي مجتمع آخر، كما في حالة الفكر الاشتراكي على سبيل المثال.

ولما كانت الظروف المادية لأي مجتمع في مرحلة تاريخية معينة تفرض بالضرورة تحديات ما، لذا يكون من الحتمي ظهور الفكر الجديد استجابة لهذه التحديات والتي تفرض انتقال مثل هذا المجتمع إلى مرحلة تاريخية أخرى^(١).

(١) كارل ماركس، بؤس الفلسفة، ترجمة اندرية بازجي، بيروت ١٩٦٦ ، صفحات ١٨٢ وما بعدها، ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، راجع: Maurice Conrnforth. Historical Materialism, New York 1977. G. Plekhanove, The Materialist Conception of History, Moscow 1946. V. Podosethik, A Spirikin, A Glance At Historical Materialism. Moscow.

عن الحضارة

ثقافة أم حضارة:

الثقافة هي النماذج التي ينشئها المجتمع أو يستعيدها من مجتمع آخر ليستعين بها في حياته الاجتماعية، وهي تقوم بشكل أساسي على العقل والفكر لأنها تختلف عن الأفعال الغريزية التي يرثها الإنسان بشكل فطري، وتنتقل عن طريق الاتصال والاكتساب. ولما كانت الحيوانات الأخرى تعيش حياتها معتمدة على الغريزة والأفعال الموروثة بيولوجيًّا، لذا كان الإنسان هو الوحيد الذي يستطيع إبداع ثقافته والمحافظة عليها ونقلها وتنميتها. فالثقافة إذن ظاهرة إنسانية تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات الأخرى.

وتتألف ثقافة أي شعب من مجموع النظم الاجتماعية التي تسوده كالنظم العائلية والأقتصادية والدينية والسياسية واللغة السائدة ووسائل التفاهم والعادات والتقاليد التي يخضع لها المجتمع والفنون بأنواعها ودرجة التقدم على المستوى المادي في النشاط الاقتصادي من زراعة أو صناعة أو تجارة أو علوم، وما يلحقها من تطبيقات في الطبيعة والطب والكيمياء والفلك وغيرها أي اجمالاً هي كل النماذج المعيشية التي ترجع إلى الحياة الاجتماعية التي اكتسبها الأفراد من المجتمع ولم يولدوا مزودين بها بشكل فطري^(١).

وإذا أبدلنا لفظة (الثقافة) بلفظة أخرى هي الحضارة لكان هذا مدخلاً مناسباً لنا لمناقشة الأراء المختلفة حول طبيعة الاختلاف والاتفاق بين كل من

(١) حسن شحاته سعفان، علم الإنسان، ص ١١٠ - ١١١.

اللفظين، فهم علماء يذهبون إلى أن الثقافة تقتصر على النواحي اللامحسوسة أو الغير مادية، أي النواحي الروحية والقيم الأخلاقية والمعايير الجمالية التي تسود المجتمع على سبيل المثال، خلافاً للحضارة التي تقتصر على النواحي المادية والمستوى الذي وصل إليه المجتمع في كل ما تعبّر عنه العلوم المادية - إن جاز التعبير - كالطب والهندسة والطبيعة والكيمياء وغيرها، وثمة بعض آخر من العلماء يغالّي في هذا التفسير فيجعل الثقافة هي الكل بمعنى أنها تشمل كل المظاهر المتعلقة بمجتمع معين، ثم يجعل الحضارة تختص بجزء من الكل وهو الجزء الذي يتعامل مع المظاهر المادية فقط للمجتمع.

إلا أن هذه الاختلافات في التسميات كادت أن تنتهي إذ يسود الآن الاتجاه بعدم التفريق بين الثقافة والحضارة^(١) فمن الممكن استعمال أحد اللفظين للدلالة على نفس المعنى، وإن كنت أفضل استعمال لفظ الحضارة لا لاختلاف في المضمون، وإنما - ربما - لاسعاه من الناحية اللغوية وشموليته عوضاً عن لفظ الثقافة الذي ارتبط في الأذهان بتصورات مسبقة.

والحضارة - أي حضارة - أربعة مقومات أساسية لا بد من توافرها حتى تكتمل صورة هذه الحضارة، وغياب أحد هذه المقومات لا بد وأن يكون له بالضرورة تأثير مباشر على ازدهار هذه الحضارة، وهذه المقومات هي :

المقوم الاقتصادي، المقوم السياسي، المقوم الأخلاقي والمقوم الفكري .

المقوم الاقتصادي للحضارة:

بدأت مراحل التطور الاقتصادي للحضارة بالصيد بأنواعه وتليه مرحلة استئناس الحيوان، ثم اكتشاف الإنسان للزراعة والذي يعد بحق انقلاباً حضارياً بما صاحبه من تطور للأدوات المستخدمة فيها والحيوانات المسخرة

(١) حسن شحاته سعفان، المرجع السابق، ص ١١١ - ١١٣ واتفق تماماً مع المؤلف في أن الخلاف هو مجرد خلاف لفظي لا جدوى منه طالما كان المعنى المقصود واحداً.

لها. ويلي اكتشاف الزراعة في الأهمية - أو ربما يساويه - اكتشاف الإنسان القديم للنار وما صاحب ذلك من بدء ظهور الصناعة، فاستعملها في إعادة تشكيل المعادن وفق احتياجاته والآلات الزراعية، ثم عرف الإنسان صناعة النسيج وبالتالي ظهرت الملابس بأشكالها وأنواعها المتعددة، وكذلك تعرف الإنسان على كيفية استخدام ما يحيط به من مكونات للبيئة وأهمها الطين الذي استعمله في البداية نيشاً في بناء أكواخ بدائية له، ثم تطور استخدامه ليصبح طيناً محروقاً أو فخاراً يستخدم في صناعة الأواني بكافة أشكالها وأنواعها واستخداماتها.

هكذا من الإنسان البدائي بالمراحل الثلاث: الصيد ثم الزراعة ثم الصناعة، ولم يبق أمامه لاستكمال باقي مقومات حضارته البدائية إلا التجارة وما تتطلبه من اختراع لوسيلة ما للتبادل وكيفية هذا التبادل، والذي يعني به طرق ووسائل نقل السلع التجارية وهو الشيء الذي قاد الإنسان القديم بالضرورة إلى إبداع عدد من أعظم الاختراعات في العصور البدائية والتي امتد تأثيرها حتى يومنا هذا كالعجلة والزورق وما صاحبهما من شق للطرق البرية وتمهيد وتحسين للمجاري المائية وما ارتبط بهما من ظهور علم الفلك.

أما وسيلة التبادل في التجارة فلم تزد في البداية عن المقايسة أو تبادل الاحتياجات الأساسية، واستمرت هذه المرحلة لفترة طويلة حتى أخذت المعادن تحل تدريجياً محل البضائع التي يقايض بها الإنسان وأصبح لهذه المعادن أشكال أقرب ما تكون إلى الثبات وقيمة اقتصادية متعارف عليها، وهذه المرحلة كانت الخطوة قبل الأخيرة نحو اختراع النقود والتي بظهورها يمكن القول أن التكوين الأساسي للأقتصاد القديم قد اكتمل.

أما عن طبيعة التنظيم الاقتصادي في المجتمعات القديمة فيبدو أن هذه المجتمعات تشارك كلها في ظهور الشيوعية البدائية بها في بداية تكوينها، إلا أنه مع بداية الاستقرار وظهور الزراعة بدأت الملكية الفردية في الظهور ودعمها نظام التوريث^(١)، ثم ظهر نظام الرق كظاهرة ملزمة للمجتمعات

(١) عن الظروف الاقتصادية كمفهوم أساسي لظهور نظام العائلة في المجتمعات القديمة وعلاقتها =

المستقرة، إذ لم يعرف مثل هذا النظام في مجتمع يقوم على الصيد والترحال، وهكذا ظهرت الفوارق بين الطبقات وتضخمت مما مهد لظهور صراع الطبقات وهو ما يقودنا وبالتالي إلى ظهور الدولة كظاهرة سياسية في المجتمع.

المقوم السياسي للحضارة:

لم تعرف المجتمعات القديمة ظاهرة اتحاد عدد كبير من البشر في جماعة واحدة إلا في ظروف خاصة مثل الصيد أو الحرب أو بعض الاختلافات الدينية، وتحت ضغط الظروف الاقتصادية المتغيرة بدأت فكرة القبيلة كنظام إجتماعي جديد في الظهور، وهي عبارة عن مجموعة من الأسر تربطها صلة القرابة اتحدت في بناء واحد تحت رئاسة شخص واحد، وتتطور هذا الشكل من التكوين السياسي - وإن كان ببطء - لظهور فكرة العشيرة - أي مجموعة القبائل المتحدة معاً - والتي شكلت نقلة كبيرة في النظم الإجتماعية تجاه النقطة الأساسية التي تهمنا وهي تكوين الدولة.

وأول المظاهر السياسية للدولة بشكلها المستقر كان ظهور «الملكية»، فقد تحول رئيس القبيلة ومن ثم العشيرة إلى ملك لها خاصة وأنه قد تتمتع بقدر كبير من السلطان زمن الحروب، أما في السلم فقد كانت السلطة لكافهن أو ساحر القبيلة، ولذلك نجد أن فكرة الملكية منذ بداية ظهورها قد أعتمدت بشكل أساسى على السحر والكهانة أو بمعنى آخر الدين البدائى، ثم على القوة العسكرية كوسيلة للدفاع عن كيان القبيلة أو العشيرة.

وواكب بده ظهور الدولة بشكلها المتكامل كنظام سياسي بدأية اتضاح ملامح (القانون) والذي بدأ أولاً كنوع من العادات والتقاليد والنظام للمجتمعات القديمة وبالتالي الاستقرار المطلوب وساعد مرور الوقت على اكتساب هذه العادات والتقاليد قدرأً كبيراً من القوة وخلع عليها صفة الإلزام.

= ذلك بمسألة التوريث، راجع نظرية انجلز فيه:

Frederick Engles, *The Origin of the Family*, pp. 72 - 81.

وقد ساهم الدين بشكل واضح في تثبيت هذه العادات والتقاليد وبالتالي أصبحت لها قوة القانون.

وكان طبيعياً أن تصبح الدولة تدريجياً هي المسئولة عن تطبيق هذه العادات والتقاليد بشكل منظم يهدف أساساً إلى كفالة التوازن بين ما للفرد من حقوق وما عليه من واجبات بحيث لا يسود أو يطغى أحدهما على الآخر في إطار النظام الاجتماعي المتعارف عليه.

المقوم الأخلاقي للحضارة:

استمرار في الحديث عن التقاليد وأهميتها يمكن القول بأنها تمثل العمود الفقري للتشريعات الأخلاقية لأي جماعة من الجماعات، وأول وظائف هذه التشريعات هي تنقين أو تنظيم العلاقة بين الذكر والأنثى، مما نتج عنه ظهور الزواج وبالطبع من هذا النظام الجديد بمراحل متعددة من التطور حتى وصل إلى شكله الكامل المعروف بدءاً من الدعاارة الدينية التي كانت تمارس في بابل قبل السماح للمرأة بالزواج ومروراً بعادات قد تبدو غريبة الآن على الأخلاق بل ومنافيه لها كإعارة الزوج لزوجته كدليل على الكرم، وحق الليلة الأولى لكبير القبيلة وهي العادة التي ظلت منتشرة حتى أوائل عصر الاقطاع في أوروبا، وغير ذلك من أشكال التطور.

والزواج في أساسه الاقتصادي دليل واضح على أن الجماعات الإنسانية قد أقامت تشريعاتها الأخلاقية على دعامة فحوها المنفعة الاقتصادية المتبادلة، وحتى لا يحدث التضارب المتوقع بين المصالح الشخصية للفرد ومصالح المجتمع ككل، كان لا بد من إيجاد دافع يحدث بعض التوازن بين الكفتين، وتمثل هذا الدافع في الدين^(١).

(١) راجع رأي ستراوبون حول هذا الموضوع:

Strabo, Geo graphy, 1, 2, 8.

وحتى في الديانات السماوية كانت العلاقة أو الأفعال التي لها خلفيات اقتصادية مجل اعتبار كبير، مع ملاحظة ما للسرقة والقتل والزنا من آثار اقتصادية خاصة في المجتمعات القديمة، =

والعقائد الدينية لها جذور عميقة وقديمة قدم الإنسان على الأرض، وأهم هذه الجذور أو العوامل التي ساعدت على خلق مثل هذه العقائد كانت الخوف الغريزي عند الإنسان من كل ما هو مجهول مثل الموت، الذي لم يتعامل معه الإنسان البدائي كظاهرة طبيعية وإنما كحدث من فعل قوي لا يدرى عنها شيئاً، ثم باقي الظواهر الطبيعية الأخرى مثل النار والبرق والرعد والاجرام السماوية والمطر ونمو النبات وغيرها، ثم الظواهر الفسيولوجية كالحمل والولادة والأحلام وما ارتبط بها من أفكار حول الأرواح وكيفية عودتها بعد الموت، وكل هذه الظواهر المحيطة بالإنسان بالإضافة إلى حاجته الطبيعية لشيء يؤمن به أو يعتمد عليه أحياناً في حياته المليئة بالخطر أقنعته بوجود قوة ما تفوقه في الأمكانيات والقدرة على تسخير الأمور، ومن هنا ولد الدين البدائي .

والدين يدعم المقوم الأخلاقي لأي حضارة ويخدمه بطريقتين : أولاهما هي الأساطير التي تجعل الإنسان يؤمن بما وراء الظواهر الطبيعية، وثانيةهما هي أن هذا الإيمان يضمن أن يمارس الإنسان السلوكيات التي يوافق عليها المجتمع ويبعد عن تلك التي يرفضها هذا المجتمع نتيجة الضغط الذي يمارسه المتحكمون في الأمور الدينية وما يلوحون به لهذا الإنسان من ثواب أو عقاب .

المقوم الفكري للحضارة:

يعتبر اختراع الكلمة أو اللغة هو أهم الاختراعات التي أثرت في الحضارة الإنسانية بوجه عام ، فاللغة هي التي يقوم عليها أساساً المقوم الفكري لأي حضارة فهي الوسيلة الوحيدة لنقل المعارف والفنون والأداب من جيل إلى آخر، وبالتالي فعن طريقها تم الربط الفكري بين الأجيال المتعاقبة .

المرحلة التالية كانت لا تقل أهمية عن الأولى وهي اختراع الكتابة

= راجع الوصايا الثلاثة الأولى من الوصايا العشر. ثم راجع حكم الدين الإسلامي حول السارق والقاتل والزاني .

والتي عن طريقها أمكن تدوين كل التراث بدلاً من الاعتماد على الحفظ والتلقين مما ضمن بقاءه إلى حد كبير وبدون العديد من التحرifات التي لا يمكن تجاهلها إذا اعتمد الإنسان فقط على الذاكرة.

إلى جانب التطور الذي شهدته الآداب والعلوم نتيجة اختراع اللغة والكتابة بدأ الفن أيضاً في الظهور، والفن في حد ذاته هو الجمال أو التناغم في كل ما يحيط بالإنسان، غالباً ما بدأ الإنسان بتقليد الحيوان الذي يزهو بنفسه في أيام التزاوج، فحاول تجميل جسمه وتزيينه، ثم وبالتالي حاول أن يجعل باقي الأشياء المحيطة به، فالتصوير قد بدأ حين حاول صانع الفخار أن يجعل الآنية الفخارية التي يصنعها. وفن العمارة بدأ حينما حاول الإنسان أن يجعل كونه البدائي الذي يعيش فيه، وتطور العمود التذكاري الذي أقيم عند القبر إلى تمثال، بينما تطور القبر نفسه إلى معبد.

وكما أن الجمال يتولد من التناغم فقد ولد الإيقاع الصوتي الذي ربما بدأ الإنسان كمحاولة منه لتقليد أصوات الحيوانات والطيور والظواهر الطبيعية المحيطة به والذي بدوره تحول إلى غناء ورقص وموسيقى ثم إلى مسرح.

عن الآثار

يعتبر علم الآثار واحداً من أهم أفرع التاريخ - إن لم يكن أهمها على الإطلاق - فهو الذي يمد المؤرخ بالمصادر الأساسية التي يعتمد عليها في كتابته التاريخية، وللذان يتوجهما في النهاية - أي الآثار والتاريخ - نحو استكمال الصورة الحضارية للمجتمع موضوع الدراسة. وكم من فترات تاريخية أعيدت كتابتها نتيجة لاكتشافات جديدة قام بها علماء الآثار أدت إلى العثور على لقى أثرية ألقن ضوءاً على جوانب قد تكون قد أهملت أو أمكن في ضوء مثل هذه الاكتشافات الجديدة إعادة تفسير بعض الحوادث التاريخية تفسيراً يقترب كثيراً من الصحة^(١).

وينقسم علم الآثار إلى قسمين أساسين: التنقيب والدراسة الأثرية، أما الآثار نفسها (اللقم) فهي تنقسم أيضاً إلى قسمين هما: الفنون الكبرى وتشمل العمارة والنحت، والفنون الصغرى وتشمل العملة والرسم والفخار وأدوات الزينة وغيرها، وبالإضافة للقيمة المادية والفنية للمكتشفات الأثرية فإن هذه المكتشفات تعيد تجسيد صورة الإنسان القديم بكل نشاطاته المختلفة، فهي المنبع الذي يمكن عن طريقه استشاف أفكار هذا الإنسان ومعتقداته وإمكانياته المادية وقدرته على استغلال هذه الإمكانيات، وتحدد

(١) عن العلاقة بين التاريخ والأثار راجع الدراسة القيمة لدافيد ديموند:

D. P. Dymond, Archaeology and History, A Plea for Reconciliation, Thames & Hudson, London, 1974.

قيمه وفنونه المختلفة، وتلقى الصورة على علاقته بالبيئة المحيطة به، وكيفية تطويقه لهذه البيئة ومدى نجاحه أو فشله في هذا المجال^(١).

ومن الواضح أن علم الآثار يفيد كثيراً في إعادة تشكيل صورة ما للمجتمعات القديمة التي لم تعرف الكتابة عن طريق المكتشفات الأثرية التي توضح جوانب النشاط الحضاري لمثل هذه المجتمعات، وحتى في المجتمعات التي عرفت الكتابة فقد تصحح الآثار معلومات المؤرخ في ظروف معينة، فقد تكون الوثائق التي يعتمد عليها غير دقيقة، أو تحمل قدراً من التحيز أو المحاباة أو غير ذلك من الصعوبات الشائعة التي كثيراً ما تواجه المؤرخ^(٢).

وعودة إلى الحضارة فيبدو أن علماء الآثار يعرفونها بأنها تجمع لعدة سمات مرتبطة فيما بينها يتكرر حدوثها، وفي الغالب تأخذ هذه السمات الشكل المادي، ويركز عالم الآثار على ما يتغير منها عن عمد أي بفعل الإنسان.

(١) هنا تجب الاشارة إلى طبيعة عمل المشغل بالأثار أو الدارس لها، فهو بالضرورة لا يقف عند حد التأكيد على القيمة المادية أو الفنية للمكتشفات الأثرية، فهو بالضرورة يتجاوزها إلى إضفاء بعد التاريخي ومن ثم الجضاري على هذه المكتشفات، وإلا تحول هذا الدارس أو المشغل بالأثار إلى مؤرخ لتطور الفن.

(٢) فوزي الفخراني، الرائد في فن التنقيب عن الآثار، منشورات جامعة قاريونس، ١٩٧٨ ، صفحات ١٩ - ٢٢.

وهي دراسة قيمة حول كيفية التنقيب عن الآثار ثم كيفية التعامل مع اللقي الأثري بشكل علمي مدعم بالجداول والرسوم التوضيحية بالإضافة إلى قائمة مراجع كبيرة تزيد عن الثلاثمائة مرجع حول الآثار بشكل عام والتنقيب بشكل خاص رغم أنه يؤخذ عليها عدم التركيز على التعامل مع الآثر من الناحية التاريخية والحضارية وكيفية تفسيره، فقد تجاوزها المؤلف بسرعة فيما يقل عن عشر صفحات من أصل ما يزيد عن أربعينات وخمسين صفحة هي عدد صفحات هذه الدراسة. عن هذا الموضوع راجع أيضاً توفيق سليمان، الفن الحديث في التنقيب عن الآثار، مطبوعات الجامعة الليبية، كما توجد أيضاً الدراسة القيمة - رغم قدمها - للسير ليونارد وولي .

Leonard Wooley, Digging up the Past, London, 1930.

وهذه السمات المادية التي يهتم بها علماء الآثار ما هي إلا دلالات تيسر لهم التمييز بين الحضارات، فكلما - على سبيل المثال - لوحظت عدة تجمعات وثيقة الارتباط بدرجة واضحة تؤكد أن نوعاً معيناً من الأواني الفخارية يظهر دائماً في مجتمع أو حضارة معينة لتأكدنا كلما صادفناه بعد ذلك في مقبرة أو في منزل أو معبد أو غيره من الأماكن التي تتوارد بها مثل هذه الأواني، أن الأشخاص الذين يتبعون إلى أي من هذه الأماكن يتبعون وبالتالي إلى نفس المجتمع بشكل ما^(١).

وكل قبر، أو منزل أو معبد هي مصادر تمدنا بالعديد من الدلائل على نواحي نشاط المجتمع الذي تنتهي إليه هذه المصادر إذ أنه من الصعب بمكان أن توجد كل سمات تجمع أثري معين مع بعضها البعض، أو تكشف عنها حفرية واحدة، فالصورة الأثرية لحضارة ما تكون من العديد من الدلائل الصغيرة التي أتت من مختلف الأمكنة وفي مختلف المناسبات، ولكن يربط دائماً بينها سمة رمزية تميز ذلك التجمع، هذه الصورة الكلية ربما كانت أكثر ثراءً وشمولاً من النماذج الأثرية التي غالباً ما تظهر في الدراسات التكتيكية لعلم الآثار ك مجرد نماذج، بينما هي في الواقع تكون أساساً من سمات تعكس العادات، بل وفي الغالب تكون مشروطة بالتقاليد التي سادت في المجتمع موضوع الدراسة^(٢).

ومما لا شك فيه أن العلم التطبيقي للمجتمعات القديمة المنتشرة - أي النسق المادي من حضارة هذه المجتمعات - قد ترك أثراً واضحاً على علم الآثار فأدوات ومنازل ومعابد وطرق هذه المجتمعات تعيش - بشكل من الأشكال - لتوضح لنا المعرفة العلمية التي كان يمتلكها من صنعواها أو بنوها. وبالتالي فهي تمثل تطبيقات للمكتشفات والمخترعات المقبولة اجتماعياً،

(١) جوردون تشابلد، التطور الاجتماعي، صفحات ٤٧ وما بعدها، راجع أيضاً الفصل الأول من كتابه «ماذا حدث في التاريخ» عن «التاريخ وعلم الآثار».

Gordon Child, What Happened in History, Penguin 1942.

(٢) جوردون تشابلد، التطور الاجتماعي، صفحة ٤٨ .

وهي في نفس الوقت دليل على الحاجات المقبولة إجتماعياً، فعلى سبيل المثال نجد أن الأدلة المادية على وجود أو عدم وجود نظام رئاسي في المجتمعات القديمة فيما قبل اكتشاف الكتابة قد ضاعت في الأغلب الأعم، ومع ذلك فإن الآثار الجنائزية والمنازل ومحفوبياتها تسمح لنا شرعاً باستنتاج وجود أو عدم وجود رؤوساء. وإذا كانت أغلب المعتقدات الدينية القديمة قد اندرت فإن التعبير المادي عنها في شكل معابد ومذابح وتماثيل للآلهة قد يبقى، بل قد يمدنا هذا التعبير المادي بمعلومات يمكن عن طريقها الاستنتاج إلى أي مدى كانت مثل هذه المعتقدات منظمة تحت اشراف كهنة محترفين.

وأجمالاً فإن السجل الأثري لا يقتصر على أدوات الانتاج وأسلحة الحرب، فمن الممكن استنتاج الشيء الكثير لا عن أساليب الانتاج بل ووسائله أيضاً، ويمكننا وبالتالي تقدير دور الصناعة الأولية ودور التجارة من الواقع الملاحظة، كما يمكن استنتاج خطة تقسيم العمل وتوزيع الانتاج، ويمكن اجراء عدة تخمينات قد تكون مقبولة حول العبيد ووضع المرأة ونظم التوريث بل يكاد يكون البناء الأيدلوجي الفوقي موضع فروض قد تصيب في أغلب الأحوال.

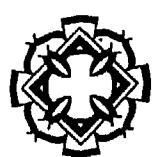
أخيراً يمكن القول أن علم الآثار يمكن أن يساهم بشكل واضح في تكوين صورة دقيقة عن الشق المادي من حضارة أي مجتمع ولو أنه يسهم أيضاً - عن طريق الاكتشافات - في إعادة تصور الشق غير المادي من الحضارة والذي يترك - غالباً لعلماء البردي والأديان والفلسفة القديمة والنقوش وغيرها من الدراسات المساعدة وبالتالي يكاد هذا التصور للمجتمعات التي وصلت إلى درجة متقدمة من الرقي الحضاري - خاصة بعد اختراع الكتابة - أن يكون أمراً لا جدال فيه، إلا أن المسألة تصبح شائكة تماماً إذا تعرض علم الآثار للمجتمعات التي لم تعرف الكتابة، ومن الممكن في مثل هذه الحالة إعادة تصور الشق المادي من الحضارة أما المؤسسات الإجتماعية على سبيل المثال فتكون أصعب في الوصول إليها، فالحكومة والعدالة والأسرة والملكية والجرب والسلام والدين تتفاعل مع بعضها في

المجتمعات البدائية وبالتالي يكون من الصعب الفصل بينها وتمييزها، والأسوأ من هذا في مثل هذه الحالات أن الأدلة الأثرية الأيجابية قد تكون مبهمة، بينما تكون الأدلة السلبية غير ذات قيمة في الغالب، فالقبور الفخمة أو القصور قد تكون دليلاً على وجود رؤساء للحكومات - إذا وجدت مثل هذه الحكومات - إلا أن غياب هذه القصور أو القبور لا يعد دليلاً حاسماً يثبت عدم وجود مثل هؤلاء الرؤساء^(١).

(١) عن هذا الموضوع بالتفصيل راجع الدراسة القيمة لجوردون تشايبلد عن التفسير الاجتماعي للمعلومات الأثرية في : جوردون تشايبلد، المرجع السابق، صفحات ٧٥ - ٩٢.



القسم الأول
أخلفية تاريخية



الفصل الأول
المصادر

المَصَادِرُ الْأَثْرِيَةُ

تعتبر الآثار في مقدمة المصادر الأصلية التي نستقي منها معلوماتنا عن أي مجتمع يراد دراسته فهي التعبير المادي الملمس الذي يتركه لنا مثل هذا المجتمع موضحاً ممارساته في أغلب جوانب الحياة. والآثار بشكل عام تنقسم إلى فنون كبرى تشمل العمارة والنحت، وفنون صغرى تشمل الفخار والنقش والعملة.

وحتى القرن التاسع عشر كانت المعلومات المتوفرة عن تاريخ العرب قبل الإسلام تجيء من التوراة وكتابات الإغريق والرومان وبعض ما كتبه العرب أنفسهم رغم ما قد يؤخذ عليهم أحياناً من الميل إلى التضخيم أو التقليل من شأن هذه الفترة والتعتيم عليها - حسب اتجاه كل مؤرخ - هذا بالإضافة إلى المعلومات التي قد يمكن استخلاصها من الشعر الجاهلي.

إلا أن الآلاف من النقوش أصبحت الآن في متناول أيدي علماء الآثار والتاريخ وهي تحوي العديد من المعلومات عن ممالك شبه الجزيرة العربية، هذا بالإضافة إلى عشرات الآلاف من المخربشات على الصخور في شمال بلاد العرب ما بين ثمودية ولحيانية وسبئية، إلى جانب ذلك وجدت الكثير من النقوش خارج شبه الجزيرة العربية كالي التي أطلق عليها اسم النقوش الصفوية لأنها وجدت في جبال الصفا بالقرب من دمشق وهي تتشابه إلى حد كبير مع النقوش ثمودية^(١).

(١) محمد بيومي مهران. تاريخ العرب القديم، ص ٢٥ أحمد فخري. دراسات في تاريخ الشرق القديم. ص ١٢٥.

يضاف إلى ذلك بعض النقوش الآشورية والبابلية التي أمدتنا بمعلومات لا يستهان بها عن علاقة العرب القدامى بالامبراطورية الآشورية والامبراطورية البابلية، وعدد من النقوش المعينية اكتشفت في مصر والحبشة وغيرها من النقوش النبطية التي ظهرت في اليونان^(١).

ورغم ما للنقوش بصفة خاصة من أهمية لا تنكر في التعرف على الكثير من جوانب تاريخ وحضارة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام إلا أنه يؤخذ عليها العديد من نقاط الضعف فغالب النقوش متشابهة في لغتها ومضمونها حيث أنها ترتبط غالباً بأمور شخصية كإنشاء مبنى معين أو تدشين معبد لإله ما وبالتالي فأهمية ترتيبها باللغة أكثر منها بالتاريخ كما أن الكثير من هذه النقوش قد عثر عليه في المعابد والقبور وبالتالي فالصيغة الدينية تكون ملتصقة بها بلا شك، وأيضاً يؤخذ على بعض النصوص أنها ليست بأكثر من مخربات صغيرة أي أنها أجزاء من نقوش وليس نقوشاً كاملة، وفي الغالب فقد وجدت أغلب الأحجار التي دونت عليها هذه النقوش في غير أماكنها الطبيعية وبالتالي شكل هذا صعوبة كبيرة في الانتفاع منها تاريخياً، يضاف إلى كل هذا أن أغلب هذه النقوش لم تكن مؤرخة، ورغم كل هذا فقد أفادت هذه النقوش الدارسين المتخصصين في الكتابات القديمة وتاريخ وحضارة شبه الجزيرة العربية، فقد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك لولاهما لما عرفنا عنهم شيئاً، وقدمت معلومات عن العلاقة بين القبائل وبعضها البعض، كما أمكن حصر أسماء العديد من الآلهة التي عبدت في هذه المنطقة^(٢).

أما فيما يخص الفنون الكبرى (أي العمارة والنحت)، فإذا بدأنا بالعمارة لوجدنا أنه من المنشآت المعمارية البارزة معبد اكتشفت بقاياه بالقرب من صرواح في اليمن وعرف باسم «معبد العوام»، ويبدو من بقاياه أنه بني بقدر كبير من الفخامة والضخامة، وعثر في المعبد على بقايا أثرية من النقوش

^(١) Lucken Vill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, chicago 1927.

انظر أيضاً: ستيثيو موسكاني. الحضارات السامية القديمة صفحة ٣٥٥.

^(٢) جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام. الجزء الأول صفحات ٤٤ - ٤٦.

وي بعض المنحوتات أمكن عن طريقها إرجاع المعبد إلى الإله «المقه» وهو إله القمر الذي عبد في هذه المنطقة، كما أمكن عن طريق تتبع الأساليب المعمارية المتعددة التي ظهرت في طريقة بناء المعبد ارجاع تاريخه إلى الفترة من القرن الثامن إلى القرن الخامس قبل الميلاد^(١).

وهنا وعن طريق دراسة مثل هذا الدليل المعماري الأثري يمكن لدارس التاريخ استخلاص العديد من المعلومات الهامة مثل أن منطقة سبا التي اكتشفت بها هذا المعبد كانت كمثيلاتها من مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية تعبد القمر، كذلك يدلل الاهتمام ببناء المعبد على مدى الاهتمام بالحياة الدينية والذي يعتبر في حد ذاته انعكاس للاستقرار والثراء الذي نعم به هذا المجتمع.

كذلك من أمثلة العمارة الأثرية التي س يستخدمها الباحث في سد الفجوات التي تقابله أثناء عملية التأريخ لهذه الفترة من تاريخ شبه الجزيرة العربية عمارة الأسوار التي تحيط بالمدن والسدود التي أقيمت لحجز مياه الأمطار والتحكم فيها في مجتمع شحيح في موارده المائية كسد مأرب في اليمن، وسد السملقاني في ضواحي مدينة الطائف، كذلك النحت في التكوينات الصخرية كما هو حادث في مدينة البتراء عاصمة دولة الأنباط (جنوب الأردن) وفيما يخص الجزيرة العربية فقد تم هذا النوع من العمارة في شمال غرب الجزيرة العربية فيما يعرف باسم معاور شعيب.

ويبرز هذا النوع من العمارة تأثير منفذوه بالأنباط مما يرجع اتساع رقعة دولة الأنباط في ذلك الوقت وإمتداد تأثيرهم خارج حدود دولتهم، كما يظهر أيضاً تأثير منفذوا هذا النوع من العمارة بالطرز اليونانية الرومانية خاصة في الواجهات والأفارييز والأعمدة^(٢).

أما النحت (والذي ينقسم بدوره إلى قسمين: النحت الدائري،

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى. العرب في العصور القديمة. صفحات ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق. صفحات ١٣٢ - ١٣٥.

والنحت البارز) ففيما يخص النحت الدائري فقد عثر بقرب الشاطئ الغربي للخليج على تمثال حجري يكاد يتطابق مع التماثيل السومرية التي ظهرت في جنوب العراق ويعود تاريخها إلى حوالي ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، مما يدلل على حدوث اتصال بين هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية وبين حضارة وادي الراافدين في هذه الفترة. كما عثر في مدينة العلا (قرب مدائن صالح شمال غرب شبه الجزيرة) على تمثال يشبه كثيراً التماثيل المصرية القديمة ويشير بشكل يكاد يكون مؤكداً إلى التأثير الفني المصري الذي انتشر في هذه المنطقة وينطبق نفس الشيء على تمثال عثر عليه في مدينة تمنع في قربان جنوب شبه الجزيرة العربية يمثل طفلاً يمتلك أسدآ ويعود إلى حوالي القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي، فهذا التمثال يظهر أيضاً تأثيراً واضحاً بالفن اليوناني، وهو ليس بالأمر الغريب إذا عرفنا أن اليونان كانوا قد بدأوا في مزاولة الملاحة في البحر الأحمر منذ القرن الثالث قبل الميلاد واستمر نشاطهم البحري حتى في العصر الروماني فيما بعد.

أما النحت البارز فيمثله شاهد قبر من تيماء شمال غرب شبه الجزيرة ويرجع إلى أواسط الألف الأولى قبل الميلاد ويمثل شخص المتوفى يقدم القرابين إلى إله القمر الشمودي، ويمكن من هذا استنتاج أن الشموديين قد سكنوا هذه المنطقة واستقروا بها وعبدوا القمر والذي كان معبوداً متشاراً آنذاك^(٢).

ويندرج تحت مسمى «الفنون الصغرى» الفخار والعملة واللذان ربما كانا من أكثر الأدوات استخداماً في الحياة اليومية في المجتمعات القديمة ومنها كان مجتمع شبه الجزيرة العربية القديم، ومن هنا تأتي أهمية العثور على كميات من الفخار أو العملة في موقع أثري معين مما يدلل على نشاط بشري واضح سواء كان استقرار زراعي أو نشاط تجاري، فقد استخدم الفخار في صنع أغلب الأواني والأوعية المستخدمة في الحياة اليومية، وحتى في

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق. صفحات ١٣٢ - ١٣٥.

(٢) لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق. صفحات ١٣٦ - ١٣٨.

الحياة الدينية في المعابد أو أماكن الاجتماعات الدينية.

أما العمالة فمن الطبيعي أن تواجدها يعني نشاطاً تجارياً سواء داخلياً أو مع المناطق المجاورة لشبه الجزيرة العربية وفي هذه الفترة الزمنية كان ظهور قطع من العمالة يعني بالضرورة أن النشاط التجاري قد بلغ حدّاً من الكثافة اضطر معه المتعاملون إلى التخلّي عن الطريقة القديمة والتقليدية في التعامل التجاري وهي المقايضة والإستعاضة عنها باستعمال الطريق الأسهل والأوثق وهو العمالة ولهذا فإن ظهور بعض قطع العمالة الأثنينية الطراز والصادرة في سبأ حوالي القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد يعني أن التجارة بين اليمن وبين الأثنينين كانت مزدهرة في ذلك الوقت.

المصادر الكتابية

أولاً: كتابات غير عربية:

١ - كتابات يهودية:

وأهم هذه الكتابات التوراة والتلمود، والتوراة وهي كتاب اليهود المقدس الذي ينسب إلى موسى - عليه السلام - تحدث في العديد من أسفارها عن العرب وعلاقتهم بالإسرائيليين (في أسفار التكوانين والخروج والقضاة والملوك ونحوما وغيرها من الأسفار)^(١) إلا أن تعرض التوراة للعرب كان دائمًا ما يأتي من خلال علاقتهم باليهود سواء كانت هذه العلاقة سياسية أو اقتصادية وغالبًا ما كانت الإشارات تأتي مبتورة أو عابرة وبذا يكون على الباحث استكمال الصورة باستعمال المصادر الأخرى المتاحة، وكلمة عرب في التوراة والتلمود أيضًا كانت تعني «البدو» أو «عرب الصحراء» أما سكان الحضر من العرب فكان يشار إليهم دائمًا بموطنهم كأهل سبأ مثلاً ويتضح هذا في قصة سليمان وملكة سبأ^(٢).

أما التلمود فيعتبر تكميلة للتوراة ويشمل الأحكام والشروح ومجموعة الروايات المتصلة بها. ورغم أن التوراة والتلمود يفترض فيهما أنهما من

(١) راجع الدراسة المفصلة عن التوراة في: محمد يومي مهران. إسرائيل. صفحات ١٩ - ١٠٩.
وعن أصل التوراة والآراء المتعددة حوله راجع: كامل الصليبي. التوراة جاءت من جزيرة العرب. ترجمة عفيف الرزاقي مؤسسة الابحاث العربية. بيروت ١٩٨٦.

(٢) عبد الرحمن الطيب الانصاري. لمحات عن القبائل البدية في الجزيرة العربية. مطبوعات جمعية التاريخ والآثار بكلية الآداب جامعة الرياض. ١٩٦٩ صفحة ٨٦.

المصادر الأصلية في تاريخ العرب قبل الإسلام حيث تعاصرا مع نفس الفترة التاريخية، إلا أن فترة الرواية الشفهية التي مرت بها أسفار التوراة وأحكام التلمود تجعلنا نتعامل معهما بحذر، وذلك من منطلق أن الرواية الشفهية تجعل من السهل التغيير والتبديل والتحوير لصالح فكرة معينة أو ضدتها وسواء تم هذا التحوير بقصد أو دون قصد فإنه ينزل بالمصدر التاريخي مباشرة إلى المرتبة الثانية وربما الثالثة^(١).

٢ - كتابات كلاسيكية:

يعنى أول ذكر مطول للعرب في الكتابات الكلاسيكية عند هيرودوت حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد والذي أرخ للصراع بين اليونان والأمبراطورية الفارسية في ٤٩٠ و ٤٨٠ قبل الميلاد والذي انتهى لصالح اليونان، وربما تكون بداية الاهتمام بالعرب وأحوالهم ناتجة عن ظهور وحدات عسكرية عربية ضمن الجيش الفارسي الذي تصارع مع الجيش اليوناني . ورغم مبالغات هيرودوت التي تصل إلى حد الخيال أحياناً - وهو الأمر الطبيعي بسبب اعتماده على الرواية في الكثير من الأحيان - فقد اورد في تاريخه الكثير من المعلومات عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم وعلاقتهم الخارجية وظروفهم الاقتصادية كما تحدث عن موقع شبه الجزيرة العربية ومنتجاتها من الطيب والتوابل^(٢).

يأتي بعد ذلك أريستوبولوس وهو جغرافي من رفقاء الاسكندر المقدوني وصلتنا كتاباته عن شبه الجزيرة العربية عن طريق كاتب كلاسيكي لاحق هو اريانوس ، وقد تحدث اريستوبولوس عن مساحة شبه الجزيرة العربية وسواحلها الشرقية وسكانها وعاداتهم وعن الطيب والتوابل التي رأى أنها من أهم موارد العرب^(٣).

(١) نجيب ميخائيل ابراهيم . مصر والشرق الاذني القديم (سورية) صفحه ٣١٢ . جواد علي .
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الاول . صفحه ٦٣٦ .

(٢) Herodotus, Historiae, II. 11; 5, 7. 9; III, 107, 133; II, 12; II, 141; III, 8. 108; VII, 69.

راجع كذلك: لطفي عبد الوهاب يحيى . المرجع السابق صفحات ١٩٦ - ٢٠٠ .

(٣) Arrianus, Anabasis, VII, 6 - 20; VII, 20, 8 - 10.

أما سترابون الذي كتب في القرن الأول قبل الميلاد فقد اتيحت له فرصة المعايشة عن قرب من خلال صحبته لصديقه الوالي الروماني اليوس جاللوس الذي قاد حملة على بلاد العرب في عام ٢٤ قبل الميلاد ضم لها سترابون الذي وصف مشاهداته في شبه الجزيرة العربية في الكتاب السادس عشر من مؤلفه الشهير «الجغرافيا»^(٢).

ومع نهاية القرن الثالث وبدايات الثاني قبل الميلاد تظهر كتابات ايراتوستينيس (الملقب باراتسطين عند العرب) وقد كان أحد أمناء مكتبة الاسكندرية الشهيرة، كتب في الجغرافيا وقدم معلومات لها أهميتها الاقتصادية عن شبه الجزيرة العربية، فقد قسم المنطقة إلى قسمين رئيسيين هما: بلاد العرب الصحراوية وبلاط العرب السعيدة، كما تحدث عن الدول الأربع التي قامت في جنوب شبه الجزيرة وهي المعينيون والسبئيون والقتبانيون والحضارمة مستعرضاً ملامح من حضاراتهم بحديثه عن عواصمهم وحياتهم السياسية ومواردهم الاقتصادية^(٣).

هذا غير كتابات اجاثارخيديس الجغرافي الذي كتب مؤلفاً معروفاً بعنوان «الطواف حول البحر الاريثري» - أي البحر الأحمر - وصف فيه سواحل شبه الجزيرة المطلة على البحر الأحمر ثم كتابات ارتيميدوروس الذي نقل كثيراً عن اجاثارخيديس وإن كانت له بعض الإضافات.

ومع منتصف القرن الأول الميلادي يظهر المؤرخ الروماني الشهير «بليني الأكبر» بكتاباته الموسوعية ودراساته الشهيرة «التاريخ الطبيعي» التي تناول فيها الكثير من شؤون شبه الجزيرة العربية الجغرافية والأقتصادية والسياسية، كما تناول بشيء كثير من التفصيل التوابل والطيوبي الموجودة في المنطقة كاللبان والمر والمستكة والصمعي اللادن والأخشاب العطرية وغيرها^(١).

(١) H. L. Jones, *The Geography of Strabo*, London 1949.

CF. De Lacy O'Leary, *Arabia before Muhammed*, P. 75.

Strabo, XVI, 4. 2 - 4.

Pliny, H. N., VI, 147 - 162.

كذلك لا يمكننا تجاهل كتابات بطليموس الجغرافي الذي وضع ادق خريطة للعالم في العصر القديم وظللت معمولاً بها حتى فيما بعد عصر النهضة. وقد اختلف بطليموس عن ايراتوسيثينس الذي قسم شبه الجزيرة العربية إلى قسمين هي العربية الصحراوية والعربيّة السعيدة كما سبق القول، فقد قسمها بطليموس إلى ثلاثة أقسام: العربية الصحراوية، العربية الصخرية، والعربيّة السعيدة، وقد حدد موقع كل قسم بخطوط الطول والعرض الجغرافية^(١).

أما كتابات المؤرخ اليهودي الروماني «جوزيفوس» أو «يوسف بن متى» كما عرفه العرب فقد ظهرت في الربع الأخير من القرن الأول الميلادي عن «أثار اليهود» و«الحروب اليهودية» وتنظر تحيزاً كبيراً لليهود والكثير من عدم الدقة التاريخية وخلط الأحداث والتسرع في الأحكام واستخلاص التائج، إلا أن حديثه عن الفترة التي عاصرها يتسم بشيء من العقلانية والموضوعية وفيه يورد معلومات قيمة عن العرب والأنباط لا توجد في كتب أخرى وإن كان لا يهتم بهم إلا في معرض حديثه عن علاقتهم باليهود^(٢).

و ضمن الكتاب الرومان يظهر ثلاثة منهم ممن تعاملوا أو أشاروا إلى شبه الجزيرة العربية إلا أنهم يعودوا إلى العصر الامبراطوري المتأخر، أولهم «ايوسيبيوس» الذي اشتهر اوائل القرن الرابع الميلادي بكتابه «تاريخ الكنيسة» والذي أورد فيه عدة اشارات عن العرب من منطلق حديثه عن المسيحية وانتشارها، وثاني هؤلاء الكتاب «اميانوس مار كلليونوس» الذي عاش في القرن الرابع الميلادي ووصلنا حزء لا يستهان به من كتابه «التاريخ» وثالثة قيمة كتاباته من وصفه الحي لحملات روما ضد الامبراطورية الفارسية والتي اشترك في بعضها مما اتاح له الفرصة للتعرف على بعض القبائل العربية التي ساندت فارس في حرويها ضد روما، أما ثالث هؤلاء الكتاب فهو

Ptolomy, Geography, V. 14, 5, 18 - 19.

(١)

(٢) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٣١ - ٣٢ كذلك: جواد على، المرجع السابق. الجزء الثالث ص ٥٥.

«بروكوبيوس» الذي ظهر في منتصف القرن السادس الميلادي وكتب مؤلفاً بعنوان «عن الحرب» تحدث في جزء منه عن الحروب بين بيزنطية وفارس ومن خلال هذا يتعرض بالحديث للغساسنة واللخميين وهما الاماراتان اللتان شاركتا في هذا الصراع^(١).

٣ - وثائق بردية :

وقد تم اكتشاف مجموعة من الوثائق البردية تعود بتاريخها إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين أي فيما قبل وأثناء وبعدبعثة النبي مبشرة، وقد تم هذا الاكتشاف في منطقة «نيسانا» أو «نصطانا» شمال شرق شبه الجزيرة العربية وهو المكان الذي كان يمثل نقطة حدودية بين بلاد الروم والعرب، وأغلب المجموعة كتب باللغة اليونانية مع قليل منها كتب باللغة اللاتينية وتتحدث غالباً عن الجمارك على البضائع والحركة التجارية في المنطقة، وتكتسب هذه الوثائق أهميتها من كونها معاصرة لبدايات التاريخ الإسلامي وبالتالي فهي تسهم في إلقاء الضوء على فترة التحول هذه من تاريخ العرب القديم إلى التاريخ الإسلامي^(٢).

ثانياً : كتابات عربية :

١ - القرآن الكريم :

هو كتاب الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حميد مجيد»، نزل على رسول الله ﷺ في ثلاثة وعشرين سنة (الفترة من ٦٣٢ قبل الهجرة إلى ١١ هجرية أو ما يقابلها بالميلادي أي ٦١٠ إلى ٦٣٢ ميلادية)^(٣) دون حال نزوله بإملاء الرسول الكريم وتلي فيما بعد أمامة وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته^(٤)، وبذا يصدق فيه قول الله تعالى : «أنا نحن ننزلنا

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى . المرجع السابق . صفحات ٢١٨ - ٢٢٨ .

(٢) مصطفى العبادي . تاريخ العرب قبل الإسلام . غير منشور . صفحات ٥٢ - ٥١ .

(٣) محمد عبد الله دراز . مدخل إلى القرآن الكريم . الكويت ١٩٧٤ صفحة ٣٣ .

(٤) محمد عبد الله دراز . المرجع السابق . صفحة ٤٩ .

الذكر وأنا له لحافظون»^(١) ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه كما هو حادث مع الكتب الأخرى. وتعود أهمية القرآن الكريم كمصدر تاريخي - رغم أنه ليس بكتاب تاريخ - إلى محاولته تصحيف أوضاع وممارسات خاطئة كانت تحدث في المجتمع الجاهلي وبالتالي يعطينا فكرة واضحة عن هذه الأوضاع والممارسات وعن ظروف هذا المجتمع التي أدت إلى ظهور مثل هذه الأوضاع والممارسات وتمسكه بها وبالتالي يحصل الباحث هنا على صورة واضحة - رغم أنها ليست مؤرخة بالسنين - للصراع الذي شهدته هذا المجتمع بين اسلوبين للحياة أحدهما كان قائماً فعلاً في نهاية العصر الجاهلي أو بمعنى آخر عصر ما قبل الإسلام والثاني هو ما كان الإسلام في طريقه إلى تقديمها حتى يتبنّاه هذا المجتمع^(٢).

وقد نضمن القرآن الكثير من الإشارات إلى الأقوام الذين سكنا شبه الجزيرة فيما قبل ظهور الإسلام أمثل قوم عاد وثمود وهود ولوط وقصص بعض قصص الأنبياء التي ارتبطت بشبه الجزيرة العربية مثل قصة النبي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقصة سليمان وملكة سبأ، كما أشار إلى بعض التواحي الاقتصادية كقصة سد مأرب وما أصابه من سيل عرم أثر بالسلب على الرخاء الذي شهدته اليمن، وكذلك رحلة الشتاء والصيف وكانت مصدراً اقتصادياً هاماً للعرب، كذلك تضمن القرآن الكريم بعض الأحداث التاريخية كقصة أصحاب الأخدود وقصة أصحاب الفيل، كما أشار إلى أسماء العديد من الآلهة الوثنية التي عرفها العرب قبل الإسلام مثل اللات والعزى ومناة وسوان ويعوق ونسرا^(٣).

٢ - الحديث الشريف:

وهو المصدر السيني الإسلامي الذي يلي القرآن في أهميته، وهو

(١) سورة الحج. آية ٩.

(٢) قارن: لطفي عبد الوهاب يحيى. المرجع السابق صفحة ١٦١.

(٣) سورة النجم. آية ١٨.

قارن أيضاً: مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحة ٢٣.

الأقوال المروية عن الرسول ﷺ، وأهمية الحديث تبع من أنه رغم اهتمامه بالأحكام الدينية وقضايا المجتمع الإسلامي بالدرجة الأولى إلا أنه تضمن قدرًا من أخبار العرب قبل الإسلام. وقد جمع الحديث ودون على عهد عمر ابن عبد العزيز في أواخر القرن الثاني الهجري، وخلال هذه الفترة الزمنية الطويلة. كان من الطبيعي أن يدخل على الأحاديث الصحيحة أحاديث منسوبة أو منحولة تكفل بها ثقة علماء المسلمين الذين جمعوا ودرسوها هذا الأحاديث مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذى ومسند أحمد ابن حنبل.

٣- الشعر الجاهلي

الشعر يعتبر كأي لون أدبي آخر مصدرًا تاريخياً - وإن كان غير مباشر - فالأدب بشكل عام مصدر تاريخي صحيح غالباً - يعبر عن وجدان الشعب وأفكاره ومعتقداته وعقيدته، أجمالاً عن كل ظروفه الحياتية، وهو هنا يختلف عن الوثائق التاريخية المباشرة كالسجلات الحكومية التي تعبر دائمًا عن الطبقة الحاكمة ولما كان الشعر هو اللون الأدبي الغالب على حياة العرب قبل الإسلام وإلى حد ما بعد ظهور الإسلام أيضاً، لذا كان من الصعب تجاهله رغم ما يثيره الاعتماد على الشعر كمصدر تاريخي من حساسية لدى بعض المؤرخين.

ورغم هذا فمن الصعب التغاضي عن بعض عيوب الشعر الجاهلي كمصدر تاريخي ومنها على سبيل المثال أنه لا يعطي أكثر من عصر الجاهلية أي حوالي قرنين قبل ظهور الإسلام، بينما الفترة التاريخية التي يتعامل معها دارس تاريخ العرب القديم تمتد من حوالي ١٥٠٠ ق. م إلى ٦١٠ م.

وكذلك فعادة ما يتعامل الشعر مع التاريخ الديني والإجتماعي متجرأً بذلك التاريخ السياسي، يضاف إلى ذلك أن الشعر الجاهلي تم تداوله شفاهة لأكثر من قرنين قبل تدوينه مما يحيطه بالشك، هذا ولا ننسى أن أغلب الشعر الجاهلي الذي وصلنا كان من ابداع بدو شبه الجزيرة العربية وبهذا فهو لا

يعبر عن الحضر مثل تعبيره عن البدو. وفي النهاية فمهما كانت المعارك الأدبية حول الشعر الجاهلي واصالته من عدمه فإنه وجد بلا شك حتى بعد استبعاد الكثير مما وصلنا منه مما يفيد الباحث الاجتماعي والتاريخيفائدة كبرى^(١).

٤ - كتاب التاريخ الإسلامي :

مع حلول القرن الثاني الهجري اهتم المؤرخون المسلمين بكتابة تاريخهم وكان من الطبيعي أن تحتل سيرة محمد ﷺ المقام الأول في كتاباتهم ومن خلال هذا تعرضوا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام أي القبائل العربية التي سبقت العثة النبوية أو التي اتصلت أخبارهم بسيرة الرسول الكريم، هذا بالإضافة إلى أن القرآن ذكر الكثير من أحوال العرب القدماء وأخبارهم مما دفع المؤرخين إلى محاولة تفسير ذلك وتقديم مادة تاريخية مناسبة.

لكن مما يعيّب هذه الكتابات عدم معاصرة أصحابها للفترة الزمنية التي كتبوا عنها مما يضعفها ويقلل الثقة بها، وحتى اعتمادهم على مصادر موثوق بها لم يكن كاملاً واكتفوا ببعض المصادر الفارسية أو البيزنطية، ومن هنا جاء اعتمادهم بشكل واضح على الرواية أو الأخباريين مع ما يشوب هذا من خطأ.

وأقدم هؤلاء الأخباريون أو المؤرخون المسلمين أن جاز إطلاق هذا الوصف عليهم كان عبيد بن شريعة اليمني الذي ربما ظهر في عصر الخليفة معاوية وقد وضع كتاباً بعنوان «أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها»، ونظرًا لسبقه

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق - صفحات ٤٦ - ٥٢.

وعن قضية الشعر الجاهلي التي أثارها مرجليوث بادعاته إن هذا الشعر في غالبه منحول وكتب في العصر الإسلامي وأيده في رأيه هذا طه حسين راجع: لطفي عبد الوهاب يحيى المرجع السابق. صفحات ٢٤٥ - ٢٨٠.

بين كتاب التاريخ فقد اكتسب مكانة متميزة وأخذ عنه فيما بعد كتاب كثيرون منهم الهمذاني^(١).

وثاني الإخباريين كان وهب بن منبه الذي وضع مؤلفاً شهيراً في تاريخ اليمن القديم تحت اسم «كتاب التيجان في ملوك حمير» ويستعرض فيه التاريخ منذ بداية الخلق وحتى استيلاء الحشة على اليمن ثم طردهم منها بمساعدة الفرس.

أما هشام بن السائب المعروف بابن الكلبي فقد وصلنا من أعماله المتعددة كتاب «الأصنام» الذي خصصه لدراسة الآلهة العربية القديمة وأسمائها والمعابد التي عبدت فيها وهو بلا شك ذوفائدة كبيرة خاصة لعلماء الآثار.

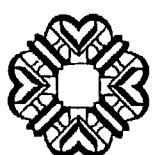
يبرز بعد ذلك المؤرخ والجغرافي المعروف الهمذاني الذي اشتهر بكتابه «الاكليل» في ثمانية أجزاء وصلنا منها أربعة فقط، ويعتبر موسوعة كبيرة في تاريخ اليمن القديم، وله كتاب آخر بعنوان «صفة جزيرة العرب» ويعتبر من أشمل الكتب في وصفه لشبه الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية والتاريخية.

ويعتبر كتاب الطبرى «تاريخ الأمم والملوك» المعروف باسم «تاريخ الطبرى» محاولة لدراسة تاريخ العالم عامه والتاريخ الإسلامي خاصة، إلا أنه تعرض لتاريخ العرب قبل الإسلام في علاقتهم بالدولة الساسانية الفارسية خاصة وأنه كان فارسي الأصل^(٢).

(١) سعد زغلول عبد الحميد. تاريخ العرب قبل الإسلام. صفحات ٣١ - ٣٣ السيد عبد العزيز

سالم. دراسات في تاريخ العرب (عصر ما قبل الإسلام) صفحات ٣٢ - ٣١.

(٢) مصطفى العبادى. المرجع السابق. صفحات ٢٨ - ٣٨.



الفصل الثاني
الارض والسكان

أولاً: الأرض

بلاد العرب عبارة عن شبه جزيرة تقع في جنوب غرب آسيا أشبه ما تكون بمستطيل غير متوازي الأضلاع تحيط بها البحار من ثلاثة جهات، البحر الأحمر من الغرب، والخليج العربي من الشرق، والمحيط الهندي من الجنوب، وإلى الشمال توجد بادية الشام، وقد علل البعض تسميتهم للمنطقة بجزيرة العرب بأن مياه دجلة والفرات تحدانها من الشمال بالإضافة إلى المياه التي تحيط بها من الجهات الثلاث الأخرى^(١).

وتبلغ مساحة شبه الجزيرة العربية أكثر من مليون ميل مربع وبالتالي تعد أكبر شبه جزيرة في العالم، يبلغ طول ساحلها الغربي من رأس خليج العقبة حتى خليج عدن ١٤٠٠ ميل، أما الساحل الشرقي من الخليج العربي شمالاً حتى الجنوب في أقصى اتساع لخليج عمان ١٥٠٠ ميل، كما تمتد شبه الجزيرة من بحر العرب جنوباً حتى أقصى حدود المملكة العربية السعودية ١٦٠٠ ميل، أما اتساعها في أوسع نقطة بين خليج عمان والبحر الأحمر فيبلغ ١٢٠٠ ميل، وفي أضيق نقطة بين البحر الأحمر والخليج العربي فيبلغ ٧٥٠ ميلاً^(٢).

(١) الهمذاني. صفة جزيرة العرب. صفحات ٤٥ - ٤٨.

أحمد الشامي. في تاريخ العرب والاسلام. صفحات ٧ - ٨.

(٢) محمود طه أبو العلاء جغرافية شبه الجزيرة العربية ص ٥ - ٧.

ويرى بعض علماء الجيولوجيا إن شبه الجزيرة ما هو إلا امتداد طبيعي للصحراري الإفريقيية التي يفصلها عنها الآن منخفض البحر الأحمر، وإنه في جزء من العصر الجليدي كانت هذه الصحراري مناطق خضراء آهلة بالسكان، ولما كانت طبقات الجليد التي غطت أجزاء كبيرة من آسيا في هذه الفترة السحيقة لم تتجاوز جبال آسيا الصغرى جنوباً فإن شبه الجزيرة لم تضار وظلت دائماً آهلة بالسكان^(١)، هذا رغم عدم وجود أنهار دائمة الجريان بها ولكن أودية يجري بها الماء حيناً ويجف حيناً آخر وهي غير صالحة للملاحة^(٢).

ويغلب على تكوين شبه الجزيرة الصحراوي والدارات، والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال توجد تحت سطحها مياه منها بادية الشام وبراري العراق، ويعرف القسم الجنوبي من العراق ببادية العراق أو السماوة، أما الأرض الصحراوية فهي على ثلاثة أنواع: «النفود» وهي النوع الأول، عبارة عن قفار متعددة ذات رمال بيضاء وحمراء تجعل منها الرياح كثباناً أو تللاً وتغطي جزءاً كبيراً من شمال شبه الجزيرة العربية وأحياناً ما يطلق عليها «الدهماء». النوع الثاني يعرف أيضاً «بالدهماء» أو «الربع الخالي» وإلى الغرب منها تقع «الأحقاف» وهي عبارة عن كثبان رملية مستطيلة. أما النوع الثالث فهو «الحرفة» وهي عبارة عن أرض من الحجارة الرملية تعلوها حمم البراكين القديمة وتكثر في غرب ووسط شبه الجزيرة العربية^(٣).

وقد اختلف الجغرافيون على تقسيمات شبه الجزيرة العربية فالقدماء منهم قسموها إلى منطقتين هما: العربية الصحراوية، والعربية السعيدة، ثم أضاف الجغرافيون الأحدث قسماً ثالثاً هو العربية الصخرية. إلا أن أغلب الأراء قد اتفقت على أن أفضل التقسيمات هو ما اتفق عليه المؤرخون

(١) فيليب حتى. تاريخ العرب. الجزء الأول صفحة ١٥.

(٢) أحمد أمين. فجر الاسلام. صفحة ١.

أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحة ٩.

(٣) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ١٦ - ١٩.

والجغرافيون العرب وتبعهم المحدثون في ذلك من حيث تقسيم المنطقة إلى خمس مناطق هي^(١):

- ١ - تهامة: وهي سهولة ساحلية في الطرف الغربي لشبه الجزيرة العربية تمتد من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال وتختلف اسماؤها حسب موقعها مثل تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن، كما يختلف اتساعها من منطقة لأخرى، ففي الجنوب في تهامة اليمن تبلغ أقصى اتساع لها، وفي الشمال عند خليج العقبة أقل اتساع لها، وفي بعض اجزاءها تتصل المرتفعات مباشرة بسواحل البحر الأحمر حيث لا توجد سهول، كما يطلق على هذه المناطق أحياناً اسم الغور لأنها منخفض بين ساحل البحر الأحمر والمرتفعات.
- ٢ - الحجاز: وسميت كذلك لوجود سلسلة من الجبال بها تحجز بين تهامة ونجد وتقع إلى شرق تهامة ويعتبر الحجاز من أهم مناطق شبه الجزيرة العربية لوقوع مكة والمدينة به ولأن الطريق التجاري الذي يربط بين الشام واليمن يمر من هذ الأقلية.
- ٣ - نجد: ويطلق هذا الاسم على الأرض المرتفعة التي تفصل تهامة واليمن جنوباً وبين العراق والشام شمالاً، وهي هضبة صحراوية تمتد من الحجاز غرباً إلى البحرين شرقاً ومن بادية الشام شمالاً إلى شمال اليمن جنوباً، وتشغل نجد جزءاً كبيراً من وسط شبه الجزيرة العربية وتتكون من عدة أقسام هي بادية السماوة أو النفوذ الكبير وجبل شمر والدهناء والحرات والربع الخالي أو وادي الأحقاف والحرات (حرة).
- ٤ - العروض: وسميت كذلك لاعتراضها بين نجد واليمن ويقع في الجنوب الشرقي بين نجد واليمن ويقيم هذا الإقليم اليمامة والبحرين والأحساء وعمان.

(١) الهمذاني. صفة جزيرة العرب. صفحة ٤٨، ياقوت الحموي. معجم البلدان. الجزء الثالث.
صفحة ٢١٩. قارن: أحمد الشامي المرجع السابق. صفحات ٨ وما بعدها.

٥ - اليمن: وسميت العربية السعيدة وتقع في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وتحكم في مدخل البحر الأحمر الجنوبي وأهم مدنها صنعاء ومأرب ونجران وظفار وحضرموت والشحر. وعكس أغلب شبه الجزيرة العربية فاليمن خصبة التربة ذات ماء وفير وبالتالي ازدهرت فيها الزراعة وبالتالي عرفت اليمن التبادل التجاري مع المدن والدول المجاورة داخل أو خارج شبه الجزيرة العربية مثل الهند والصين^(١).

أما مناخ شبه الجزيرة فهو جاف حار على الرغم من وقوعها بين بحرين من الشرق والغرب إلا أن مساحتها أضيق من أن تكفي لكسر حدة الجفاف في هذه المنطقة العديمة المطر.

وفيما يخص المحاصلات الزراعية فيكثر النخيل في الحجاز ويزرع القمح في اليمن والصمع العربي في عسير والبن في اليمن وقد دخلها حوالي القرن الرابع عشر. ويعتبر النخيل أشهر نبات في شبه الجزيرة العربية وينتج التمر الذي هو قوام البدو، ورغم أن النخل أشهر الأشجار العربية إلا أنه غير عربي الأصل فقد انتقل من بابل من الشمال إلى شبه الجزيرة.

أما الحيوانات في شبه الجزيرة فقد انتشر النمر والفهد والضبع والذئب والثعلب، أما الأسد فيبدو أنه انقرض الآن، ومن الطيور الكواسر العقاب والباز والصقر، ومن الحيوانات الداجنة الغنم والماعز والجمل والحمار.

ورغم اشتهر شبه الجزيرة العربية بالخيول العربية الأصلية إلا أنها أيضاً لم تكن عربية الأصل فقد انتقل الحصان إلى غرب آسيا بواسطة الحيثيون حوالي ٢٠٠٠ ق. م. ثم دخل الجزيرة العربية عن طريق سوريا فيما قبل العصر المسيحي، ثم نقله الهكسوس من سوريا إلى مصر، ونقله الليديون من آسيا الصغرى إلى اليونان.

أما الجمل فهو أشهر وأنفع حيوان للعربي في شبه الجزيرة فهو اداة للغذاء والانتقال ووسيلة لتبادل السلع ودليل على الثراء، ولعب الجمل دوراً

(١) أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحات ١٠ - ٢١.

هاماً في حياة العرب الاقتصادية بالإضافة إلى أنه كان من العوامل التي سهلت الفتوح الإسلامية الأولى، وقد دخل الجمل إلى فلسطين وسوريا من شمال شبه الجزيرة العربية في القرن الحادى عشر قبل الميلاد^(١).

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ١٩ - ٢٧.

ثانيًا : السكان واللغة

يتشبه الجزء الجنوبي الغربي من آسيا والذي يشمل شبه الجزيرة العربية، وفلسطين وسوريا والعراق في بيته الطبيعية وتاريخه الجنسي، فشبه الجزيرة العربية عبارة عن هضبة قاحلة ترتفع من البحر الأحمر والمحيط الهندي لتنحدر تدريجياً نحو الشمال الشرقي في اتجاه الخليج العربي وال العراق والجزء الشرقي من سوريا. ومعظم هذه المساحة عبارة عن مناطق صحراوية إلا في شريط ضيق على الحدود الغربية والجنوبية وبعض الواحات، وسكن هذه المناطق منذ أقدم العصور شعوب رحل، باشتغال الشواطئ الجنوبيّة والغربيّة ومناطق دجلة والفرات حيث قامت الزراعة والتجارة، وحياة المدن.

أما المعلومات المتاحة لنا عن الملامح الأساسية للأجناس التي سكنت المنطقة فهي تدل على أنه بينما في شبه جزيرة سيناء يسود طول الرأس عند البدو، بالمقابل نجد أن في الحجاز تساوى نسبة طول الرأس مع عرضه، ويلاحظ أن طوال الرأس في الحجاز لهم انوف عريضة ربما كانت ميراثاً من العبيد الزنوج، أما في أقصى الجنوب فيظهر عراض الرأس (جنس اللى)، ومصدر عراض الرأس غير واضح في شبه الجزيرة لكن ربما وفد من إيران عبر الخليج العربي إلى عمان ومنها انتشر على طوال السواحل الجنوبيّة حوالي ألف الثانية قبل الميلاد. ويلاحظ أيضاً وجود أثر زنجي واضح في سكان السواحل لشبه الجزيرة العربية، ومن غير المؤكد تاريخ هذا الأثر وهل

يرجع إلى العبيد الأفارقة الذين جلبوا حديثاً إلى المنطقة أو إلى العبيد الذين جلبوا في عصر مملكتي سباً ومعين.

ومن حيث القامة يلاحظ أن السكان الحاليين لشبه الجزيرة العربية تدرج قامتهم من القصر في الجنوب إلى الطول في الشمال. ومن حيث البشرة ولونها نجد أن السمرة وأحياناً كثيرة السمرة الشديدة هي الغالبة في شعوب المنطقة^(١).

ويعتبر العرب من أكثر الشعوب اقتراباً وتمثيلاً للجنس السامي ، ولغتهم رغم أنها أحدث اللغات السامية آداباً فقد احتفظت بخصائص اللسان السامي الأصلي أكثر من العربية وغيرها من اللغات، ولذا تعتبر دراسة اللغة العربية أحسن مدخل لدراسة اللغات السامية، أما دلالة لفظة «سامي» في أوروبا وأمريكا واقترانها باليهود فلعل مرجع الخطأ هنا يعود إلى انتشار اليهود في هذه المناطق، وحتى الملامح التي اصطلح الأوروبيون على تسميتها بالسامية كبروز الأنف فلا تمت للسامية بصلة بل هي من مميزات اليهود الذين ربما اكتسبوها قديماً من اختلاطهم بالحيثيين^(٢).

وت تكون مجموعة اللغات السامية من «الأكادية» وهي أقدمها وقد استعملها البابليون والأشوريون في العراق القديم وظهر بعدها الكنعانيون في سوريا وفلسطين ويشملون الفينيقيون واليهود، يظهر بعد ذلك الآراميون في شمال سوريا وشاعت لهجتهم وانتشرت في كل الأجزاء الجنوبية. ثم تنتشر اللغة السريانية والتي أصبحت اللغة السائدة حتى تحل محلها اللغة العربية. واللغة العربية ترجع في أصولها القديمة إلى اليمن وسائر شبه الجزيرة العربية ، ومرت بمراحل من التطور حتى تبلورت في لغة ولهجة أهل الحجاز وبخاصة قبيلة قريش وعندما نزل بها القرآن أصبحت هي الشكل المثالي النهائي الذي انتهت به سلسلة من مراحل التطور والتغير.

(١) إبراهيم أحمد رزقانة. العائلة البشرية. صفحات ١٧٠ - ١٧٧.

J. H. Breasted, Ancient Times, pp. 218 - 219.

(٢)

قارن أيضاً: فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٨.

ويضاف إلى مجموعة اللغات السامية أيضاً اللغة الجبشية في شرق أفريقيا والتي ظهرت نتيجة هجرة عناصر من جنوب شبه الجزيرة عبر باب المندب واحتلوا بالسكان الأصليين^(١).

ومن المرجح أن الجنس السامي لم يظهر إلا حوالي ألف الرابع قبل الميلاد، وصفات هذا الجنس هي الشعر الأسود والوجه البيضاوي والأنف المستقيم أو المحدب، وأحياناً ما يقسم الساميون إلى شقين:

الشق الأول: وهو البدو، والشق الثاني: وهو الحميريون. وقد انتشر الساميون في جنوب غرب آسيا وشمال وشرق أفريقيا ويدخل اليهود الأصليون تحت الشق البدوي من الساميين وقد حدث بينهم وبين العموريين والحيثيين والفلسطينيين اختلاط منذ أقدم العصور، كما سبق القول، وقد ظهرت الأنف اليهودية الشهيرة - غالباً - نتيجة اختلاطهم بالحيثيين^(٢).

والجنس السامي يعتبر جنساً وسطاً بين الجنس الحامي من جهة وجنس البحر الأبيض من جهة أخرى، خرجوا من شبه الجزيرة العربية حوالي ألف الرابع قبل الميلاد وانتشروا في شبه جزيرة سيناء والعراق.

ويتسب� الكنعانيون إلى الشق الأول (الشمالي) من الساميين، أما عائلة إبراهيم فهي قبيلة سامية من العراق ربما كانت عائلة «عبرى» التي أسمهاه المصريون «خابيرو» وهم ساميون رعاة يشبهون البدو، دخلوا «أرض جوشن» «وادي الطميلات» خلال حكم الهكسوس وتركوها حينما طرد اليهود من مصر (حوالي ١٥٨٠ ق. م) وأثناء عودتهم إلى فلسطين قابلوا العموريين والحيثيين واحتلوا بهم. والعموريون كانوا ساميين لا يختلف شكلهم عن الخابير، أما الحيثيون الذين يمثلهم في الوقت الحالي شعب الأرمن فقد اختلفوا إلى حد ما عن الجماعات السابقة على الأقل من ناحية الشكل^(٣).

(١) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٢٧ - ١٨.

(٢) إبراهيم أحمد رزقانة. العائلة البشرية. صفحة ١٧٨.

(٣) إبراهيم أحمد رزقانة. المرجع السابق. صفحات ١٧٨ - ١٨٠.

ثالثاً: القبائل العربية

ينقسم سكان شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام هي : العرب البائدة، العرب العاربة في الجنوب ، والعرب المستعربة في الشمال.

١ - العرب البائدة: وسموا كذلك لأنهم بادوا ولم يصلنا من آثارهم شيء ، إلا ما ذكر في القرآن الكريم وأخبار العرب ، وظهروا قبل زمن إبراهيم (أي فيما قبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد)^(١) وأشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعمالق^(٢). وبما أنهم قد بادوا تماماً ولا يستطيع أي عربي أن يرجع بنسبة إليهم لذا نجد أن معظم النسبين يرجعون أصل العرب إلى عرب عاربة (القططانيون) وعرب مستعربة (العدنانيون)^(٣).

٢ - العرب العاربة: وهم عرب الجنوب ، ويعرفون بالقططانيين نسبة إلى قحطان بن عاثر . سكن القططانيون اليمن وحضرموت وكانوا على جانب من الاستقرار والتحضر فقد عرفوا القليل من الزراعة والتجارة والصناعات اليدوية البسيطة ، وقامت وبالتالي دولتي معين وسبأ ، وبعد حادثة سد مأرب الذي قضي عليه السيل العرم قامت دولة حمير على أثر زوال دولة سبا

(١) ولد في أور بالعراق غالباً حوالي ٢٠٠٠ - ١٩٥٠ ق. م.

Charles Pfeiffer, The Biblical World, pp. 13 - 16. James Sanders, Near Eastern Archaeology in Twentieth Century, pp. XX - XXI.

(٢) ابن كثير. الجزء الأول: صفحات ١٢٠ - ١٢٣ ، الجزء الثاني صفحة ١٥٦ .

(٣) ابن كثير. الجزء الأول. صفحة ١٢١ .

حوالي ١٥٠ ق. م تقربياً ودام نفوذها إلى بداية عصر البعثة المحمدية وقد تكلم القحطانيون اللغة السبئية أو الحميرية التي تكتب بالخط المسند. ومن أهم قبائلهم جرهم ويعرب، ومن يعرب ظهرت شعوبان هما كهلان وحمير. وأشهر قبائل كهلان كانت الأوس والخزرج والغساسنة وأشهر قبائل حمير كانت قضاعة وقد استوطنوا شمال الحجاز ومن فروعها جهينة على الساحل الغربي لشبه الجزيرة، وقبيلة عذرة بالحجاز والذين اشتهروا ببرقة العاطفة وطهارة العشق^(١).

٣ - العرب المستعربة: وهم عرب الشمال وعرفوا بالعدنانيين سكان الحجاز، وهم بدرو حل حتى أنهم عرفوا باسم «أهل الوير»^(٢)، لا يستقرون في مكان بحثاً عن المراعي والماء لا يبنون بيوتاً أو مدنآ خلافاً لأهل الجنوب من العرب العاربة الذين عرفوا الاستقرار والزراعة والتجارة وبعض الصناعة، ويتسرب العرب المستعربة أو العدنانيون إلى إسماعيل بن إبراهيم، وسكنوا تهامة ونجد والجاز باستثناء قبيلة قريش التي سكنت مكة وتحولت إلى حياة الحضر.

ويتفق هذا التقسيم مع اصطلاح عليه العرب من تقسيم أنفسهم إلى قبائل شماليّة وقبائل جنوبية، إلا أنه ومع مراعاة التغيرات في البيئة والظروف الاقتصادية وحركة التقلبات المستمرة في العالم القديم بين الأجناس والشعوب المختلفة يصبح مثل هذا التقسيم غير دقيق وغير ملزم لأي مؤرخ أو متتبع لانساب وقبائل العرب، ومن الأدلة على ذلك هجرة الجنوبيون إلى الشمال بسبب بعض الظروف الاقتصادية مثل هجرةبني حارثة إلى مكة بعد تصدع سد مأرب، وقدتمكنبني حارثة الذين عرفوا بالخزاعيين من اجلاء قبيلة جرهم عن مكة واستقروا هم بها حوالي قرنين (من القرن الثالث إلى الخامس الميلادي)، كما هاجرت قبائل الشمال إلى حوض نهر الفرات قبل

(١) أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحات ٢٥ - ٢٨.

(٢) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٢٩١.

ظهور الإسلام ومنهم ظهرت قبيلة قريش التي كانت متفرقة حتى ظهر قصي بن كلاب واستطاع توحيدهم، وهزمت قريش قبيلة خزاعة واجلتهم عن مكة وأصبح لها السيطرة على الكعبة^(١).

ومن أهم قبائل العدنانيون أو عرب الشمال المستعربة كانت قبيلة «معد» التي أنقسمت إلى جزئين هما: نزار وقنص، وأنقسمت نزار إلى عدة أفرع أهمها ربيعة ومضر وقضاعة وأياد. وتشعبت قبلة مضر إلى شعبتين هما قبيلة قيس بن مضر وأياس بن مضر، وإلى قيس بن مضر تنسب قبيلتي عبس وذبيان اللتان اشتهرتا بحرب داحس والغبراء. وقبيلة تميم ومن أقسامها قبيلة حنظلة بن مالك ومنها تنحدر ذرية الوهابيين اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الرياض ومنهم أيضاً تنحدر أسرة آل ثان أمراء قطر الحاليين.

كذلك من القبائل العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية قبيلة بني خالد، وقبيلة ثقيف وقبيلة حرب. ولا شك أن بأسماء هذا القبائل وأنسابها الكثير أو القليل من التحوير والتعديل والخلط أحياناً بحيث لا تصبح هذه الأنساب صادقة مائة بالمائة، إلا أن استقرارها على هذا النحو وأخذ العرب بها جعل من الصعب تغييرها وبالتالي يأخذها المؤرخون كما هي^(٢).

(١) عن قريش واصل تسميتها ونسبها: ابن كثير. الجزء الثاني. صفحة ٢٠٢ ، ابن منظور. لسان العرب (قريش)

قارن: أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحات ٣٠ - ٢٩ .

(٢) أحمد الشامي. المرجع السابق. صفحات ٣٠ - ٣٣ .



الفصل الثالث
دول شبه الجزيرة العربية

أولاً: دولة معين

قامت دولة معين في منطقة الجوف بين نجران وحضرموت شمال اليمن وهي من أوائل الدول التي تظهر في التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية، وقد ساعدت الظروف الجغرافية والبيئية على أن تكون هذه المنطقة مركزاً حضارياً هاماً في شمال اليمن، فالمنطقة تشتهر بنخيلها ومراعيها، تتتوفر فيها مياه الأمطار، كما تحيط بها الجبال من ثلاث جهات مما يوفر لها حماية طبيعية.

ومصادر دراسة دولة معين تتركز في الكتابات التي تركها المعينيون، وكتابات المصادر الكلاسيكية أمثال ديودوروس الصقلي وسترابون وبليني^(١) فقد ذكر ديودور وسترابون عاصمتهم قرناو ووضعوهم إلى الشمال من سبا وقتيان وغرب حضرموت، لكن بليني يضعهم على حدود حضرموت. أما المصادر العربية فلا تذكر عن معين أكثر من أنها موضع في الجوف^(٢).

وحول الحدود الزمنية لتاريخ دولة معين وهل كانت أقدم من دولة سبا أو معاصرة لها تعدد آراء المؤرخين، فمنهم من يبالغ في قدم دولة معين فأرجعها إلى الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، ومنهم من أخذ تاريخاً وسطاً يجعل قيامها حوالي ١٥٠٠ - ١٢٠٠ قبل الميلاد واستمرت حتى ٧٠٠ ق. م وهناك من حاول أن يكون أكثر تحديداً يجعل تاريخها

Diod. Sicul., III. 24; Strabo XVI. 768; Pliny, H. N. VII 28 - 32, XII. 30.

(١)

CF. J. Philby, The Background of Islam, P. 141.

(٢) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، صفحة ٢١٤.

١١٢٠ ق. م وينهي وجودها في ٦٣٠ ق. م وأخر هذه الاراء تأخر بقيام دولة معين إلى الفترة من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قبل الميلاد، وأنها انتهت حوالي منتصف القرن الأول الميلادي^(١).

ويبدو أن بليني في كتابه «التاريخ الطبيعي»^(٢) كان من أهم الأسباب التي حدت ببعض المؤرخين أن يرجعوا دولة معين إلى ١٥٠٠ - ٧٠٠ ق. م؛ فقد ربط بليني بين المعينيين وبين المينوين من أهل كريت وجعلهم من أصل واحد^(٣) ويبدو أن الخلط هنا جاء من تشابه كتابه الاسمين بالحروف اليونانية أو اللاتينية، وبالتالي فقد تغلب الاتجاه الذي يقول بأقدمية دولة معين على دولة سبا واستمر سائداً حتى بداية القرن العشرين.

ألا إنه مع تقدم دراسة تاريخ الكتابات القديمة وتطورها ثبت أن الكتابة المعينية هي هجائية متطرفة عن الهجائية الفينيقية وبالتالي فلا بد أن تكون لاحقة عليها لا سابقة لها، وبما أنه ثابت أيضاً من دراسة تاريخ الكتابات الفينيقية أنها بلغت مرحلة النضج في القرن العاشر قبل الميلاد، وبذلك فلا يمكن أن تكون الكتابات بالخط المسند في اليمن سابقة على القرن العاشر. وبهذا ثبت الآن أن معين وسبا كانتا دولتين معاصرتين تقريرياً بالإضافة إلى معظم دوليات اليمن الأخرى حتى تمكنت سبا من احتواهما تدريجياً^(٤).

ويبدو أن دولة معين قد اشتهرت بدورها التجاري مع شمال شبه الجزيرة العربية حتى أن بليني يذكر ذلك في كتابه بل ويربط المعينيين بالبعور الذي كان من أبرز صادراتهم^(٥) وفي هذا المجال يوجد نقش شهير معروف باسم ناشره (جلابر رقم ١١١٥) يظهر مدى انتشار تجارة المعينيين وازدهارها

(١) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٧٧ - ٧٩.

(٢) Pliny, H.N., VI. 32.

(٣) الحضارة الكريتية أو المينوية نسبة إلى أشهر ملوكها مينوس. ازدهرت في الفترة ما بين ١٦٠٠ - ١٤٠٠ ق. م في جزيرة كريت وكانت أشهر مراكزها مديتها كوسوس وفاسيتوس.

(٤) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٦١ - ٦٢.

(٥) Pliny, H. N., XII. 30.

ويتحدث النقش عن عودة قافلة كبرى إلى قرناو عاصمة معين بعد تعرضها لمحاولة سلب، ويشير النقش إلى أن تلك القافلة كانت تمارس التجارة مع مصر ويظهر بجلاء تأثر تجارة معين بالأحداث السياسية المحيطة بها خاصة في منطقة شرق البحر المتوسط.

وقد عثر على نقش على أحد جدران المعابد بمدينة منف العاصمة المصرية القديمة، ويشير هذا النقش إلى اسم رجل معين يدعى «زيد ايل بن زيد» كان يقوم بإمداد المعابد المصرية بالمر واللبان والبخور ويستورد من مصر الأقمشة الكتانية، أي أنه كان يقوم بمهمة الوكيل التجاري لدولة معين. هذا وقد ظهر نقش آخر في جزيرة ديلوس يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م يرد فيه اسم الله «ود» إله معين مما يؤكّد فكرة تجاوز خطوط التجارة المعينة لحدود شبه الجزيرة إلى مصر وعبر البحر المتوسط إلى ديلوس^(١).

ولما كانت وسيلة التجارة في شبه الجزيرة العربية بين جنوبها وشمالها هي القوافل، لذا كان لا بد من إيجاد نظام لتأمين طرق هذه القوافل من الغارات التي كانت تستهدفها، ومن أجل تحقيق هذا الهدف أقام المعينيون مراكز تجارية على طرق القوافل المتوجهة شمالاً، حتى أنه ظهر فيما بعد ما عرف باسم «المعينيون الشماليون» وكانت هذه المراكز التجارية أو المستوطنات وثيقة الصلة بالدولة الأم، ويدير شؤونها نائب لملك معين كما يظهر من النقوش التي عثر عليها، ومن أهم وأشهر هذه المستوطنات كانت واحة ديدان أو ما تسمى حالياً «العلا».

وقد اختلف العلماء في تحديد عدد حكام دولة معين وفترة حكم كل منهم ويرجع ذلك إلى عدم اتفاقهم أصلاً على بداية دولة معين و نهايتها، وإلى أن الكتابة المعينة نفسها غير مؤرخة طبقاً لأي تقويم من التقاويم، هذا بالإضافة إلى أنها كتابات شخصية أكثر منها كتابات سياسية.

(١) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٦٣ - ٦٥.

وقد أدى هذا النشاط التجاري إلى احتكاك ملوك معين بحكام سوريا وأشور على طريق التجارة الرئيسي، وبالتالي فلم يهتم حكام سوريا وأشور بالمستوطنات التجارية الصغيرة التي تقع على هذا الطريق وإنما كان اهتمامهم منصبًا على الحاكم الفعلي المقيم في قرناو، وبالتالي فقد كان أحياناً يحدث خلط بين هذا الحاكم وبين نوابه المقيمين في الشمال، وهذا يفسر بعض الإشارات في الوثائق السريانية والعبرية التي تتحدث عن المعينيين والسبئيين المقيمين جنوب شرق البحر الميت، وطبعاً أن المقصود هنا هم ساكنو هذه المستوطنات المعينة في الشمال وليس أهل الجنوب.

أما أهم المدن المعينة فكانت قرناو العاصمة وتقع على بعد حوالي السبعة كيلومترات إلى الشرق من قرية «الحزم» في الجوف، وأهم آثارها معبد «رصف» الذي يقع خارج حدود المدينة، وكذلك بعض بقايا سكنية في أجزاء متفرقة من المدينة التي ظلت غالباً مأهولة بالسكان حتى القرن الثاني عشر الميلادي ثم تحولت تدريجياً وبسبب تغير الظروف إلى خراب.

كذلك من المدن المعينة الهامة كانت مدينة «يائل» أو «براوش» والتي ظلت موجودة حتى وصف الهمذاني في أواخر القرن العاشر الميلادي خرائبها، وهي نفسها مدينة «اثلولا» وهي آخر مكان وصله الوالي الروماني ايليوس جالوس أثناء حملته على اليمن في ٢٤ ق. م وربما حرف الاسم بسبب صعوبة نطقه وهناك أيضاً مدينة «نشق» ويرى البعض أنها هي مدينة «ميسكا» التي ذكرها الكتاب الكلاسيكيون ومنهم سترابون الذي أسمها «أسكا» وقد استولى عليها الوالي الروماني ايليوس جالوس أثناء حملته السابق ذكرها على اليمن.

كذلك هناك مدينة «نشآن» أو «شن» (الخربة السوداء حالياً) وربما كانت مركزاً صناعياً هاماً في وقت من الأوقات^(١).

(١) جواد أحمد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني صفحات ١١٨ - ١١٩.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢١٩ - ٢٣٣.

ثانياً: دولة حضرموت

وهو الاسم المستعمل حتى الآن وبالتالي يكون من أقدم الأسماء العربية التي استمر استخدامها حتى العصر الحديث، وتقع حضرموت إلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب تحيط بها من الشمال الأحقاف ومن الشرق عمان ومن الغرب قتبان ويقول ياقوت الحموي إن بها قبر هود عليه السلام^(١). وقد تردد اسم حضرموت عند عدد من الكتاب الكلاسيكين ولكن بشكل محرف قليلاً إلا أنه يقترب من الشكل العربي للإسم مثل «كاترو مويتاي» و«هادر اميتاي» و«اتراميتاي»^(٢). ويقترح صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأحمر» السابق ذكره أن كلمة حضرموت أتت من أن سواحل هذه المنطقة كانت موبوءة يتجنّبها الناس ولهذا السبب فإن من كانوا يعملون في جمع التوابيل واللبان كانوا من المجرمين أو العبيد الذين لا يخشى عليهم من حضرموت أو كما هو مقترن في التفسير «دار الموت»^(٣).

ويقدم ياقوت الحموي تفسيراً آخر لاسم حضرموت فيقترح أنه جاء من اسم رجل هو «عامر بن قحطان» الذي اشتهر باسم حضرموت لأنّه كان كثير التقتيل في الحروب، أو أن المكان سمي باسم حضرموت بن قحطان الذي

(١) ياقوت الحموي، الجزء الثاني، صفحة ٢٧٠.

Strabo, XVI. 42; Pliny, VI. 28, 32; Ptol., VI. 7, 10.

(٢) قارن: جواد علي. الجزء الثاني. صفحة ١٢٩.

Periplus Peri Maris Erythraei, 21.

(٣)

نزل بالمكان فأخذ المكان اسمه وإن اسم قبيلته^(١).

ويقترح البعض الآخر تفسيراً اسطورياً للاسم من أن المدينة أخذت اسمها من الإله «موت» إله العالم السفلي في الأساطير السامية القديمة، وفي أساطير أوجاريت القديمة فالإله موت هو إله الموت والعالم السفلي والعقم وهو عدو الإله بعل إله الخصب والنماء.

وكما تعددت التفسيرات حول منشأ اسم حضر موت فقد تعددت أيضاً الآراء حول تاريخ بداية ونهاية هذه الدولة فالبعض يرجع بداية تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد وتنتهي في القرن الثالث الميلادي، لكن الرأي الأكثر اعتدالاً يقول بتاريخ قريب إذ يرجعها إلى الفترة من القرن الخامس ق. م. إلى القرن الثاني الميلادي، وما لا شك فيه أن دولة حضر موت قد عاصرت في فترة من تاريخها دول معين وق bian وسيا، وبالتالي فمهما اختلف المؤرخون حول تاريخ حضر موت فتوجد على الأقل فترة معروفة ومؤكدة وهي التي عاصرت فيها حضر موت باقي دول جنوب شرقى الجزيرة^(٢).

وقد وصلنا نتيجة لجهود البعثات الاثرية التي عملت في المنطقة ولا زال بعضها يعمل حتى الآن عدد كبير من النقوش (تجاوز الألف نقش) أهمها نقوش منطقة «العقلة» التي تضمنت قائمة بأسماء حكام حضر موت وسيا.

وتعطينا هذه النقوش صورة شبه واضحة عن ظروف الحياة في المنطقة وعلاقات حضر موت بغير أنها من الدوليات المجاورة ومن أهمها نقش تركه أحد كبار موظفي حكومة حضر موت والذي يذكر فيه أن الحاكم «ليهر رعش ابن ابشع» قد كلفه بناء تحصينات لحصن «قلت» الذي يحمي الطريق الواسع بين مدينة «حجر» ومدينة «قانا» وكذلك الالسراط على تحصين مدينة «حجر» لحمايتها من الغزو الأجنبي وخاصة من غزوات الحميريين الذين كانوا

(١) ياقوت الحموي. الجزء الثاني. صفحة ٢٧٠.

ST. John Philby, The Background of Islam, pp. 141 - 144. S. Moscati, op. cit., p. 179. (٢)

يهددون حضر موت - فيما يبدو - بشكل مستمر^(١) ويدو أن هذا النعش الذي دونه أحد كبار موظفي حكومة حضر موت ويدعى (شكيم سلحان بن رضوان) هو من أقدم الكتابات الحضرمية التي وصلتنا ويعود إلى أواخر القرن الخامس أو أوائل الرابع ق. م.

وفيما يخص الظروف السياسية التي مرت بها حضر موت فيبدو أنه قد تابع على حكمها نوعين من الحكام، في الفترة الأولى من تاريخها حكمها من سموا بالمكربين (مكرب) وهم من رجال الدين والكهنة والذين تنتهي فترة حكمهم حوالي منتصف القرن الخامس ق. م، حين يتحول الحكام إلى استخدام لقب (ملك) ويدو أن تغير لقب الحاكم من «مكرب» إلى «ملك» يوضح انتفاء الصفة الدينية عن الحاكم وتحوله إلى شخص مدني تماماً وبالتالي فهو يعني انتقال الحكم من أيدي الكهنة ورجال الدين إلى كبار تجار المنطقة على اعتبار أن التجارة هنا كانت هي المورد الاقتصادي الأول.

وفي الغالب فإن مرحلة انتقال السلطة السياسية من الحاكم الكاهن أو رجل الدين إلى الحاكم المدني قد تمت في أغلب المجتمعات القديمة بهذه الطريقة مع اختلافات بسيطة في التفاصيل، ففي المجتمع اليونياني القديم على سبيل المثال انتقلت السلطة من الحاكم رجل الدين إلى الارستقراطية الزراعية، وذلك على اعتبار أن الزراعة كانت هي المورد الاقتصادي الأول، وفيما بعد حينما تظهر التجارة وتحتل مكانة لا بأس بها، أخذت طبقة التجار في الضغط على الزراع في محاولة منهم للاشتراك في الحكم^(٢).

ولعل الملك (يدع ايل) هو أول من حدث في عهده هذه النقلة السياسية (الانتقال من لقب مكرب إلى ملك) حوالي منتصف القرن الخامس ق. م، ويليه بعد ذلك الملك (صادق ايل) الذي كان ملكاً على حضر موت ومعين معاً حوالي نهاية القرن الخامس ق. م^(٣).

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) حسين الشيخ. اليونان. صفحات ٢٩ - ٣٢ .

(٣) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٣٥ - ١٣٦ .

ومن بعض النقوش التي وصلتنا يمكننا أن نستنتج أن العلاقة بين حضر موت وسباً اتسمت بطابع الود فقد أرسل ملك سباً مبعوثين للمشاركة في الاحتفال بتتويج ملك حضر موت هذا بالإضافة إلى أن الملك «العزيزط» ملك حضر موت قد استقبل وفوداً من الهند ومن تدمر والأراميين، كما ذكر في أحد النقوش مراقبة عشر نساء قرشيات للملك «العزيزط» في رحلته إلى حصن أنود (الذي احتل موقع عقله الحالية، وأشرف على واد يتصل بتلال شبوة وقد أقام فيه الجيش لحماية مزارع الوادي)، وإذا كان المقصود هو قبيلة قريش الشهيرة في مكة يكون ذكرها في هذا النقش هو أقدم ذكر لها وصلنا حتى الآن^(١) وقد كانت الاتصالات من حضر موت ومثل هذه الأماكن تتم عن طريق ميناء «قانا» الذي كانت السفن تأتي وتخرج منه إلى إفريقيا والهند وعمان وفارس.

أهم مدن حضر موت

وأهم مدن حضر موت كانت «شبوة» العاصمة، وعنها وصلنا نقش يؤرخ بحوالي ١٠٠ ميلادية ورد فيه اسم الملك «يدع ايل بين» الذي قام ببناء سور لمدينة شبوة، مما يدلل على عدم استقرار الأمسور في ذلك الوقت واحتمال تعرض المدن والوديان للغارات المعادية، يؤكّد هذا نقش آخر يعود إلى أواخر القرن الثاني أو بداية الثالث الميلادي ورد فيه اسم الملك «يدع ايل بين بن رب الشمس» الذي عمر مدينة شبوة بعد أن كانت قد خربت وبنى معبداً بها وأنه قد أمر بتقديم القرابين احتفالاً بهذه المناسبة^(٢) كما كانت هناك مدينة «ميقعة» العاصمة القديمة لحضر موت والتي خربت في القرن الرابع الميلادي وحل مكانها موضع عرف باسم غيران.

وهناك مدين «قانا» الميناء الرئيس لحضر موت إلى الشرق من عدن. كما وجدت مدينة «مذب» أو «مذاب» واستحرت بمعبدتها المكرس لعبادة الإله

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٤٢ - ١٤٤.

قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحة ٧٥.

«سين» إله القمر بقاياه توجد الآن بموضع يعرف باسم «الحريةة»^(١).

وفي مطلع القرن الرابع الميلادي نجد أن ملك سباً «شمر يرعش» قد أضاف حضر موت إلى ممتلكات سباً ولقب نفسه بملك سباً وذي ريدان وحضر موت ومعنى ذلك زوال مملكة حضر موت المستقلة واندماجها في مملكة سباً.

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٤٣ - ٢٤٥.

ثالثاً: دولة قُبَّان

وقد جاء ذكرها عند ستراپيون - نسلاً عن أيراتو ستينيس - ويليني وثيوفراستوس، وحددواً موقعها بالجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وأهم مدنها كانت «تمن» على ساحل المحيط الهندي^(١).

كما جاء ذكرها عرضاً في بعض المصادر العربية على أنها موضع من نواحي عدن، وأنها بطن من «حمير»^(٢).

واختلفت الآراء حول بداية دولة قُبَّان ونهايتها، فرغم أنها قد عاصرت دولة معين ودولة سباء، ورغم ارتباط تاريخ هذه الدول بعضها بالبعض، إلا أن بعض الباحثين يرجعون تاريخ قُبَّان إلى ما قبل ١٠٠٠ ق. م وحتى ٢٠٠ ق. م، والبعض يرى إنها ظهرت في الفترة من ٦٠٠ إلى ٣٠٠ ق. م، والبعض الآخر يرى أنها كانت في الفترة من ٤٠٠ إلى ٥٠ ق. م، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الآراء لم تقدم جديداً في هذا الصدد^(٣).

ورغم هذا الخلاف فقد أجمع عدد لا بأس به من الباحثين على أن

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٧١ - ١٧٢.

قارن: حسن ظاظا. الساميون ولغاتهم. صفحات ١٢٩ وما بعدها.

CF. Theoph., II. 235; Strabo, 16. 4. 2; Pliny, 6. 32.

(٢) ياقوت الحموي. الجزء الرابع. صفحة ٣١٠. تاج العروس. الجزء الأول. صفحة ٤٣١.

(٣) عن هذه الآراء المختلفة راجع: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٤٨ - ٢٥٠.

دولة قتبان قد احتلت المساحة الزمنية من القرن العاشر وحتى الأول قبل الميلاد، وينقسم تاريخها إلى ثلاث فترات:

- الفترة الأولى واستمرت منذ ظهور قتبان وحتى حوالي ٣٥٠ ق. م، وأشهر ملوك هذه الفترة كان «يدع أب ذبيان بن شهر» الذي حكم حوالي نهاية القرن الخامس ق. م وكان أول من حمل لقب «ملك» بالإضافة إلى حمله لقب «مكرب» وفي هذا إشارة واضحة إلى تحول حكام قتبان من حمل لقب «مكرب» وهو اللقب الديني الذي يعني «كاهن» والذي رمز إلى فترة حكم رجال الدين، ليحملوا لقب «ملك» والذي عنى تحول الملكية من نظام حكم ديني إلى نظام حكم سياسي مدني وإن ظل يحتفظ ببعض من أصوله الدينية القديمة.

وطبقاً لنقش «جلازر ١٦٠٠» فقد كان «يدع أب ذبيان» هو الذي شيد المدخل الجنوبي لمدينة «تمعن» وهو: مكرب قتبان وجميع أبناء الإله عم، كما هو مكرب أو سان وكحد ودهس وتمعن» هذا بالإضافة إلى إشارة في النقش إلى أن هذا الملك هو الذي أعاد بناء معبد الإله «ود وعشتر».

ويبدو أن «يدع أب ذبيان» قد شن عدة حروب كانت نتيجتها في صالحه مما جعل في إمكانه أن يمد حدود قتبان حتى مملكة سبا، ويفسر هذا اهتمامه بإنشاء عدة طرق جبلية تربط بين أجزاء مملكته.

ويبدو أن قتبان قد عرفت نوعاً من المجالس القبلية - سمي المزود - وتكون غالباً من رؤساء المدن والقبائل، وكان هذا المجلس هو الذي يقترح القوانين ويعرضها على الملك لإقرارها ثم الأمر بتنفيذها. وربما وجد مجلس استشاري تكون من الملك والأشراف أصحاب الأملاك^(١).

الفترة الثانية واستمرت حوالي القرن من الزمان (٣٥٠ - ٢٥٠ ق. م)،

(١) نيكولوس رودكناكيس. الحياة العامة للدول العربية الجنوبية (التاريخ العربي القديم). صفحات ١٣٢ - ١٣٦. قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٩٢ - ١٩٣.

وكان أول ملوكها «أب شيم» ثم خلفه ابنه «شهر غيلان»، وفي أحد النقوش التي تعود إلى هذه الفترة (جلازر ١٦٠١) جاء ذكر الضرائب التي تؤدي إلى خزينة الدولة في نهاية كل عام وتقدر بالعشر من كل ربع صافي ، بالإضافة إلى الضرائب التي تؤدي للمعباد وسميت في هذا الفتش باسم «عصم».

ويبدو أن إدارة المعابد قد تركت في العاصمة «تمنعت»، كما يبدو أن الإدارة الحكومية قد منحت هذه المعابد إمتيازات عده أهمها الحصول على جزء من دخل أراضي الدولة ، بالإضافة إلى أن القبائل كانت مطالبة بأن تدفع للمعباد عشر الدخل والميراث أو أي معاملات تجارية أخرى^(١).

ومن أحد نقوش هذه الفترة (ريكانز ٢١٦) نعرف أن «شهر غيلان» ثاني الملوك قد انتصر على حضر موت ، وتخليداً لذكرى هذا النصر فقد أقام معبد للإلهة «عشت» في (ذبحان) وهي «بيجان الحالية عند جبل ديدان».

ومن أشهر ملوك هذه الفترة أيضاً كان «شهر يجيل» وقد ورد إسمه في نقش «جلازر ١٦٠٢»، ويبدو أنه قد حكم حوالي عام ٣٠٠ ق. م وأنه قد تغلب على دولة معين وأخضعها لسلطانه ، ثم خلفه أخوه الذي عرف باسم «شهر هلال يهنعم» ، والذي ترجع إلى فترة حكمه المسلة التي عثر عليها في العاصمة «تمنعت». وكان آخر ملوك هذه الفترة «بدع أب غيلان».

- الفترة الثالثة واستمرت حوالي قرنين من الزمان (٢٥٠ - ٢٥٠ ق. م)، وأول ملوك هذه الفترة كان «هوف عم يهنعم»، وجاء بعده «شهر يجل يهربج» الذي أعاد بناء المدخل الجنوبي لمدينة تمدنع ، ويبدو أن قتبان في عهده قد مارست نوعاً من السيطرة على جارتها دولة «معين» أو على الأقل كان هناك نوع من التحالف بين الدولتين كانت فيه قتبان صاحبة اليد العليا^(٢). أما ابنه «وروإل غيلان يهنعم» فقد كان أول من سك نقوداً ذهبية عشر عليها في مدينة «حربيب».

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ١٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحة ٢٠٧ .

وعثر في «تمن» العاصمة على نقش باسم الملك «شهر هلال بن ذر أكرب» وهو عبارة عن قانون أصدره الملك لشعب قتبان وذي عيش ومعين وأصحاب أرض شدو، وينظم هذا القانون استغلال هذه الشعوب الأربع للأراضي الزراعية، وأنذر الذين يخالفون هذا القانون بالعقاب، ويستفاد من هذا النقش أن هذه الشعوب السابق ذكرها كانت خاضعة لدولة قتبان.

ومن المرجح أن فترة ازدهار قتبان تركزت في المرحلتين الثانية والثالثة من تاريخها واللتان استمرتا من ٣٥٠ حتى ٢٥ ق. م كما سبق القول، ويميل بعض الباحثين إلى أن دولة سبا هي التي قضت على دولة قتبان، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن دولة حضرموت أيضاً قد ساهمت في النهاية التي وصلت إليها قتبان، ويبدو أن حوالي ٢٥ ق. م وحتى بداية القرن الأول الميلادي سقطت العاصمة «تمن» في أيدي السبيئين، بينما اكتفت حضرموت بالاستيلاء على جزء من شرق قتبان، وفي نفس الوقت استطاع بعض ملوك قتبان الإحتفاظ بالجزء الغربي منها واتخذوا من «حريب» قصراً لهم.

وتعتبر مدينة «تمن» أهم مدن قتبان وقد ورد ذكرها في كتابات المؤرخين اليونان والروماني باسم Thumna, Thomna, Tamna، وربما كانت هي نفس المدينة التي ورد ذكرها عند بطليموس الجغرافي بإسم Thouma،^(١) وقد وصفها «بليني» المؤرخ الروماني بأنها من أكبر المدن في العربية الجنوبية^(٢) وتقع «تمن» في وادي بيحان في منطقة ذات أرض زراعية خصبة وفيه المياه، (حالياً تقع مكانها خرائب كحلان) وربما خربت المدينة بسبب حريق هائل أتى عليها، وربما كان السبيئون هم الذين احرقوا «تمن».

ومن المدن الهامة في قتبان أيضاً كانت «حريب» التي ذكرها «الهمذاني»^(٣)، واشتهرت بالنقود التي سكت فيها وبأنها عاصمة لدولة قتبان قرب نهاية هذه الدولة.

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٢٢٢ - ٢٢٣.

De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad, p. 97. قارن
Pliny, 6, 32.

(٢)

(٣) الهمذاني. المرجع السابق. صفحات ٨٠، ٩٥، ١٠٣، ١٣٤.

رابعاً: دولة سبا

حظيت دولة سبا بأهمية خاصة بين الدول التي ظهرت في جنوب الجزيرة العربية، ويرجع ذلك إلى الصلة التي ربطت بين مملكة سبا والنبي سليمان - عليه السلام - وورود أخبار هذه العلاقة في القرآن الكريم والتوراة. وتشير الأدلة الأثرية التي كشف عنها في العراق القديم ورود إسم سبا في النقوش الآشورية التي ترجع إلى عهد الملك سرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥ ق. م) وذلك في معرض الدول التي تؤدي إليه الجزيرة، ويتجه بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن هذا النص يشير إلى قيام السبئيين بدفع الجزية عن تجارتهم في شمال جزيرة العرب، حتى يسمح لهم بالمرور إلى سواطيف البحر المتوسط، وذلك نظراً لأن سرجون الثاني لم يصل بفتحاته الخارجية حتى اليمن. ويشير بعض العلماء إلى أن كلمة SA - Ba - A - A = Sabu الواردة في أحد النصوص السومرية التي عشر عليها في لجشن حوالي ٢٥٠ ق. م تعني سبا، وإذا كان ذلك صحيحاً، لأصبحت هذه النصوص السومرية أقدم نصوص تاريخية تصل إلينا - حتى الآن - وفيها ذكر سبا، ويكون السبئيون بذلك أول شعب عربي جنوبي يصل ذكره إلينا^(١).

وقد أثار هذا النقش جدلاً كبيراً بين العلماء، فاتجه البعض إلى الاعتقاد بأن السبئيين المذكورين في النصوص السومرية كانوا يقيمون في بادية شمال بلاد العرب ومنها انتقلوا إلى اليمن، و اختللت الآراء كذلك بشأن زمن

(١) أحمد أمين سليم. معالم تاريخ العرب قبل الإسلام. صفحات ٨٣ وما بعدها.

هذا الانتقال قاتجه البعض إلى تحديده بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأرجعه البعض الآخر إلى القرن الحادي عشر، بينما أرجعه فريق ثالث إلى القرن الثامن قبل الميلاد^(١).

ولقد اشارت بعض كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان إلى دولة سبا، وكان المؤرخ اليوناني «ثيوفراستس» هو أول من اشار إليهم، وقد اعتمد في معلوماته التي ذكرها عن دولة سبا على ما سمعه من تجار الاسكندرية ومن البحارة الذين كانوا يجوبون البحر الاحمر ويصلون إلى العربية الجنوبيه وسواحل افريقيه والهند، ونظرآ للاطماع السياسيه للسيطرة على بلاد العرب، فقد حاول الرومان الحصول بكافة الطرق على المعلومات المتصلة ببلاد العرب عن طبيعة أرضها ومواردها وحالة سكانها ومواطن الضعف لديهم، واعتبروا هذه المعلومات من اسرار الدولة التي لا يجوز افشاؤها، ولقد تم جمعها وخزنـت في الاسكندرية، ولم يسمح إلا لبعض الخاصة من العلماء بالاستفادة منها، ولقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى زيادة المعلومات عن بلاد العرب، ومحاـولة تنقيتها من الشوائب وتوثيقها إلى أبعد حد ممكـن^(٢).

وفيما يتصل بالأدلة الأثرية السبئية، فإنـنا نعتمد في دراستـنا لـدولـة سـبا اعتمـاداً كـبيرـاً عـلـى الكـتابـات السـبـئـية التـي عـشـر عـلـيـها فـي مواـضـع متـعدـدة من جـنـوبـ الجـزـيرـة العـرـبـية وبـخـاصـة فـي الجـوـف مـقـرـ السـبـئـيين، إـلا أـنـه يـؤـخذ عـلـى الكـتابـات السـبـئـية إـنـها لم تـتـخـذ تـارـيخـاً مـطـلـقاً كـبداـية لـلتـارـيخـ، وإنـما أـرـخت الـاحـدـاث نـسـبة إـلـى الـأـشـخـاصـ، وبـعـض الـاحـدـاثـ الـهـامـةـ، وـذـلـكـ مـا يـجـعـلـ عمـلـيـة تحـديـد زـمـنـ هـذـهـ النـصـوصـ أـمـراًـ مـنـ الصـعـوبـةـ بـمـكـانـ وـمـعـ ذـلـكـ فـلـقـدـ أـمـدـنـاـ هـذـهـ النـقوـشـ بـمـعـلـومـاتـ لـاـ بـأـسـ بـهـاـ عـنـ نـظـامـ الـحـكـمـ وـتـابـعـ الـحـكـامـ فـيـ

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٦٥ - ٢٧٠.

قارن: نجيب ميخائيل. مصر والشرق الأدنى القديم. صفحات ١٦٠ - ١٦٢.

Cf. De Lacy O'leary, op. cit., P. 87.

(٢) أهم هذه المصادر وأكثرها تفصيلاً هو:

Strabo, 16. 4. 19; Pliny, 6. 32.

بعض الاحيin والاعمال الهامة التي قاموا بإنجازها والاحداث الكبيرة التي حدثت في عهودهم^(١).

وفيما يتصل بالكتابات المقدسة، فلقد أشlar القرآن الكريم في سورة سميت بإسم «سبأ» وهي السورة رقم «٣٤» من القرآن الكريم، إلى ما كانت تتمتع به دولة سبا من رخاء.

ولقد وردت كلمة «سبأ» و «شبا» في التوراة، ولكن كاتبي التوراة كانوا متدددين في نسبهم، فهم مرة من الحاميين، فلقد ورد في الآية السابعة من الاصحاح العاشر من سفر التكوانين: «وبنوا كوش سبا وحويلة وسبته ورعمه وسبتكا. وبنوا رعمه شبا وددان». وورد كذلك في الآية التاسعة من الاصحاح الأول من اخبار الأيام الأول: «وبنوا كوش سبأا وحويله وسبتا ورعمما وسبتكا. وبنوا رعمما شبا وددان». فلقد ذكروا في هذين الموضعين على انهما من كوش أي من الحاميين^(٢).

وهم مرة أخرى من الساميين، فلقد ورد في الآيات من ٢١ - ٢٨ من الاصحاح العاشر من سفر التكوانين ما يشير إلى ذلك: «وولد لسام أيضاً بنون وهو أبو جميعبني عابر أخوه يافت الأكبر، بنو سام عيلام واشور وازمكشاد ولود وأرام، وبنو أرام عوص وحول وجائز وماش وارفكشاد ولد صالح ولد عابر، وولد لعاير ابنان إسم أحدهما فالج لأنه في ايامه انقسمت الأرض باسم أخيه يقطان، ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح، وهدورام واوزال ودقله، وعوبال وابيمائيل وشبا»^(٣).

ووصفت أرض «شبا» في التوراة بأنها كانت تصدر للبلدان، وإن تجارها كانوا يقومون بالتبادل التجاري مع العبرانيين، انظر في ذلك ما جاء في الآية

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٦٥ - ٢٧٠ .

(٢) سفر التكوانين، ١٠ ، ٧ ، ١٠ - ١٩ ، ٢٨ - ٢٨ .

(٣) سفر التكوانين، ٢٥ ، ٣ - ٢٥ ، ٢٥ - ٣ .

العشرين من الاصحاح السادس من نبوة إرميا: «لماذا يأتيني اللبناني من شباً وقصب الذرة من أرض بعيدة». وما جاء في الآيات ٢٤ - ٢٢ من الاصحاح السابع والعشرين من نبوة حرققال وجاء فيها:

«تجار شباً ورعمه متجرون معك وبأفضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب أقاموا اسواقك، حaran وكنه وعدان وتجار شباً واشور وكل مد متجرون معك، هؤلاء يتجررون معك بالانسجة الفاخرة وبأدبية من السمنجوني والوشي وبالنفائس من الثياب المبرمة المشدودة بالحبال المعكومة بين بضائعك».

ولقد وأشارت التوراة إلى قصة سليمان - عليه السلام - مع ملكة سباً، ويلاحظ أن التوراة لم تذكر إسم ملكة سباً. ولقد وردت هذه القصة في الآيات من ١ - ١٠ ، ١٣ من الاصحاح العاشر من سفر الملوك الثالث وجاء فيها: «وسمعت ملكة سباً بخبر سليمان وإسم الرب فقدمت لتختبره بأحجاجي، فدخلت اورشليم في موكب عظيم جداً ومعها جمال موقره اطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة وأتت سليمان وكلمته بجميع ما كان في خاطرها، ففسر لها سليمان جميع كلامها ولم يخف على الملك شيء لم يفسره لها، ورأى ملكة سباً كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه، وطعام موائد ومسكن عبيده وقيام خدامه ولباسهم وسقااته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب فلم يبق روح بعد، وقالت للملك حقاً كان الكلام الذي يلقى في أرضي عن أقوالك وعن حكمتك، ولم اصدق ما قيل لي حتى قدمت وعاينت بعيني فإذا إني لم أخبر بالنصف فقد زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته، طوي لرجالك طوي لعيديك هؤلاء القائمين دائماً بين يديك يسمعون حكمتك، تبارك الرب إلهك الذي رضي منك وأجلسك على عرش اسرائيل فإنه لأجل حب الرب لاسرائيل إلى الأبد، اقامك ملكاً لتجري الحكم والعدل، وأعطيت الملك مائة وعشرين قنطار ذهب واطياباً كثيرة وحجارة كريمة ولم يرد بعد في الكثرة مثل ذلك الطيب الذي وهبته ملكة سباً للملك سليمان... واعطى الملك سليمان ملكة سباً كل بغيتها التي سألتها فوق ما

أعطها من العطايا على حسب كرم الملك سليمان وانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها^(١).

وتشير أحداث هذه القصة إلى معرفة العبرانيين بالسبعين، وإن اختلفت وجهات نظر المؤرخين في مكان دولة سبا التي ورد ذكرها في أحداث هذه القصة، فاتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنها كانت مملكة عربية صغيرة في أعلى جزيرة العرب كان سكانها من السبعين القاطنين في الشمال^(٢).

ورغم الإختلاف في تفاصيل كيفية تعرف سليمان - عليه سلام - بملكة سبا والهدف من الزيارة بين ماورد في القرآن الكريم والتوراة، إلا أنها تشير إلى معرفة العبرانيين بالسبعين وإلى وجود المملكة في القرن العاشر قبل الميلاد.

أصل السبئيين:

اختلف المؤرخون في أصل السبئيين، فتذكر الروايات العربية إن سبا من قحطان، ويسمونهم العرب المترفة، تميزوا لهم عن العرب الذين كانوا قبلهم، وتشير هذه الروايات إن والده هو يشجب بن يعرب بن قحطان، وتذكر إن من أولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده، ونسب إليه نسله من السبئيين، وقد ذكروا أن إسمه الحقيقي هو «عبد شمس» وأما «سبا» فهو لقب تلقب به، وذهبوا في سبب هذه الكنية مذاهب متعددة، فقالوا إنه لقب به لأنه أول من سبا، أي سن السبي من ملوك العرب، واتجه البعض الآخر إلى احادة الاساطير حوله فقالوا إنه بني مدينة «سبا» وسد مأرب، وغزا الأقطار وبنى مدينة عين شمس في مصر، وهي أمور لا تدعو أن تكون خيالاً في مخيلة كاتبها^(٣).

(١) سفر الملوك الأول. ١٠ (١٣ - ٤٢) قارن أنجيل متى. (١٢ : ٤٢) محمد بيومي مهران. العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة. صفحات ٢٨٧ وما بعدها.

(٢) عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحات ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) تاريخ الطبرى. الجزء الأول. صفحة ٢١١، ابن الأثير. الجزء الأول. صفحة ٢٣٠.

ولم يعثر في النصوص العربية الجنسوية التي كشف عنها عن شيء يتصل بشخص يدعى سباء أو إسمه واعماله، وكل ما ورد في هذه النقوش يشير إلى أن سباء هو إسم شعب كون له مملكة وكان له حكامه ونظامه السياسي والإداري والاقتصادي، وعلاقاته الخارجية.

ويتجه بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن السبئيين كانوا في الأصل شعب بدوي يتنقل بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، ثم استقر في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق. م، وأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب جيرانهم من المعينيين والأوسانيين والحضارمة، وعملوا بالتجارة وسيطروا على الطرق التجارية الرئيسية التي تصل ما بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها وببلاد الشام، وكان لذلك أثره الكبير في ازدهار دولة سباء ونموها بين ممالك العرب الجنوبية.

مراحل التاريخ السبئي:

امكن بفضل النقوش السبئية تقسيم عصر دولة سباء إلى عدة مراحل وذلك على أساس تغير لقب حكام سباء، حيث تغير هذا اللقب عدة مرات، وفي كل مرة كان يتغير فيها كان يحدث تغيير في نظام الحكم، وتدخل سباء في عهد جديد يختلف عنوانه عن العهد السابق، ولقد امكن تحديد مراحل اربعة رئيسية مرت بها سباء، وهذه المراحل هي :

١ - مرحلة المكاربة: وهي مرحلة كان يتلقب فيها حاكم سباء بلقب مكرب، أي المقرب من الآلهة، أو الوسيط بين الآلهة والناس، وقد اتخذ المكاربة من صرواح عاصمة لهم ثم نقلوها إلى مأرب، ويمتد عصر المكاربة من عام ٨٠٠ - ٦٥٠ ق. م.^(١)

= وهب بن منبه كتاب التيجان. صفحات ٤٨ - ٥٠.

قارن: عبد المنعم ماجد. التاريخ السياسي للدولة العربية. الجزء الأول. صفحة ٧٢

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحة ٢٦٩.

قارن: حسن ظاظا. المرجع السابق صفحة ١٣٢.

٢ - مرحلة ملوك سباً: وهي المرحلة التي تلقب فيها حكام سباً بلقب «ملك سباً» وتمتد هذه المرحلة حتى عام ١١٥ ق. م أو ١٠٩ ق. م.

٣ - مرحلة ملوك سباً وذي ريدان (١١٥ - ٣٠٠ م).

٤ - مرحلة ملوك سباً وذي ريدان وحضرموت واليمن وأعراها في المرتفعات وفي التهائم. وهو آخر دور من ادوار الحكم في سباً (٣٠٠ م ٥٢٥ م)^(١).

١ - سباً في عهد المكاربة

: إنما يأخذ حكام سباً في أقدم عهودهم لقب «مكرب» وذلك كما ورد في الكتابات السبئية وتشير اللفظة إلى التقرب من الآلهة، فكان «المكرب» هو المقرب أو الوسيط بين الآلهة والناس، وغلب على حكام سباً في هذه المرحلة الصفة الدينية.

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لحكم المكاربة فهناك عدة آراء تدور حول هذا الأمر، فهناك من يرى إن بداية حكم المكاربة ترجع إلى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد، بينما هناك رأي ثان يرى إن بداية حكمهم كان في بداية عام ٨٠٠ ق. م واستمر عهدهم لمدة قرنين ونصف أي حتى حوالي عام ٦٥٠ ق. م بينما رأى فريق ثالث إن مدة حكم المكاربة قد استمرت ثلاثة قرون وذلك من حوالي ٧٥٠ ق. م وحتى ٤٥٠ ق. م^(٢).

ونلاحظ من ذلك اختلاف آراء المؤرخين حول بداية عهد المكاربة وكذلك نهاية هذا العهد، في بينما يرجع البعض بدايته إلى القرن العاشر ق. م، نجد البعض الآخر يرجع بدايته إلى اواسط القرن الثامن ق. م، وبينما يجعل البعض نهاية هذا العهد في منتصف القرن السابع ق. م، نجد البعض الآخر

(١) سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٨٩.
قارن: أحمد أمين سليم. المرجع السابق صفحات ١٩٢ - ١٩٣.

(٢) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحة ٢٦٩.

يجعلها في اواسط القرن الخامس ق. م. ويرجع ذلك - كما سبقت الإشارة - إلى عدم وجود تواريخ محددة وثابتة نستطيع التأريخ على أساسها للدولة سباً ولعدم وجود تواريخ أخرى ثبت حكم كل ملك بصورة قاطعة.

ومن أقدم مكاربة سباً الذين وصلتنا معلومات عنهم المكرب «سمه على» وقد وصلنا من عهده بعض الكتابات المكتوبة بالطريقة الحلزونية، ولكن هذه الكتابات كانت قصيرة وناقصة، ولقد ورد فيها اسماء بعض العبودات مثل: عشر والمقه وذات حميم^(١).

ولقد اختلفت آراء العلماء حول حكام سباً وترتيب تتابعهم في الحكم وكذلك سنوات حكمهم، وحاولوا ترتيبهم على أساس تقدير عمر البقايا الأثرية التي تختلف من عهودهم والطبقات الأثرية المختلفة فيها وكذلك على أساس دراسة نماذج الخطوط والكتابات التي وردت عنهم، ويلاحظ في ذلك تباين آراء المؤرخين حول عددهم وتتابعهم، ومن أشهر هؤلاء المكاربة: سمه على .

يدع ايل ذريح .

يشع أمر وتر .

يدع إيل بين .

يشع أمر وتر .

كرب إيل بين .

ذمر على وتر .

يشع أمر بين .

ذمر على ينف .

كرب إيل وتر^(٢) .

J. B. Philby, op. cit., 141.

(١)

(٢) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٣٠٧ - ٣١٤. وعن الموضوع بالتفصيل راجع:

محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٧٣ - ٢٨٦ .

سياسة سبا الداخلية في عهد المكاربة

١ - بناء المعابد:

إهتم مكاربة سباً ببناء معابد الآلهة وتقديم القرابين لها، وتشير نقوش المكاربة الأوائل إلى تشييدهم لمعابد الآلهة في صرواح وأمارب وغيرها من المناطق الس妣ئية، ولعل من أشهر هذه المعابد، المعبد الذي شيده المكرب «يدع ايل ذريح» للاله المقه في مأرب، ويسمى المعبد «معبد أوما» وهو يعرف حالياً بإسم «محرم بلقيس»، وهو يقع جنوب شرق مأرب الحالية بحوالي أربعة كيلومترات.

وفي محاولة لتفسير معنى التسمية الحالية للمعبد، يذكر الأستاذ الدكتور أحمد فخري إن كلمة «محرم» تعني المكان المقدس للاله أو بعبارة أخرى «المعبد». أما «بلقيس» فيرى المؤرخون العرب إنها ملكة سباً التي زارت سيدنا سليمان - عليه السلام - وبرون أن إسمها كان «بلقيس» أو «بلقمه» ويرجح علماء السامييات أن «بلقمه» هو الارجح، وربما كان أسم الله «المقه» يدخل في تركيبه. أما إسم «بلقيس» الذي تكرر ذكره في كتب المفسرين المسلمين فلم يرد على الاطلاق بين الأسماء الس妣ئية المعروفة، وهناك إحتمال بأن الإسم منقول عن العبرية التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه «أمة» أو جارية.

وفيها يتصل بالتصميم المعماري لمعبد أوما أو محرم بلقيس، فيلاحظ إنه يكاد يكون بيضاوي الشكل، ويوجد مدخله الرئيسي في الناحية الشمالية، ويوجد أمام المدخل بهو ذي أعمدة على جوانبه، وبعد المدخل بحوالي عشرة أمتار تقوم ثمانية أعمدة كبيرة في صف واحد، وذلك عدا الاعمدة الصغيرة. ويوجد في الجهة الشرقية من البناء هيكلًا صغيراً من الحجر له أربعة أعمدة. وشيد السور الخارجي للمعبد من أحجار منحوتة، وهي تتفاوت في أحجامها، وقد زين أعلى السور ببعض الزخارف. وكان للمعبد باب جانبي آخر في الناحية الغربية وهو مواجه للمدينة القديمة، وربما كان هناك طريق موصل بين

الاثنين، ومن المحتمل أن تكون هناك أبواب جانبية أخرى مغطاة الآن بالرمال.

وقام مكاربة سباً بعد ذلك بترميم المعبد وتوسيعه، ومن هؤلاء المكاربة «يشع أمر بين» الذي حكم في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد، الذي سجل نقشاً على الناحية الغربية من سور المعبد أشار فيه إلى قيامه بإتمام بناء المعبد. ولقد ظل هذا المعبد يؤدي وظيفته في عبادة الآله المقه مدة تناهز الألف عام، حيث عثر على كتابات بالقرب من باب المعبد تشير إلى القيام ببعض الترميمات فيه، وترجع هذه الكتابات إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين^(١).

وقام المكرب «يدع ايل ذريخ» ببناء معبد للاله المقه أيضاً في مدينة صرواح، ولكن لا يمكن معرفة التصميم الخاص بهذا المعبد، وذلك نظراً لأنه قد استخدم خلال العصور الوسطى كحصن، فاستحدثت فيه مداخل وسدت منافذ وهدمت كثيراً من أحجاره.

٢ - تشيهيد السدود

إهتم مكاربة سباً بالإصلاحات الزراعية، فعملوا على استصلاح الأرض واستغلالها، ومن أجل ذلك وجهوا إهتمامهم لبناء السدود لاحتجاز المياه للاستفادة منها في أعمال الزراعة، وأقام العرب السدود لقلة المياه في بلادهم فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا وحجزوا سيله بسد، فتكاثرت السدود بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات.

وكانوا يسمون كل سد بإسم خاص به، أو بنسبة إلى البلد المقام فيه، ومن أعظم هذه السدود في بلاد العرب وأشهرها سد مأرب. ومن أقدم النقوش التي وصلتنا عن سد مأرب نقش من عهد المكرب «سمه على ينف»

(١) أحمد فخرى. دراسات في تاريخ الشرق القديم. صفحة ١٦٢ أحمد فخرى. أحدث الاكتشافات الأثرية في اليمن. صفحات ٢٥٥ - ٢٥٦.
قارن فؤاد حسين. التاريخ العربي القديم. صفحة ٢٩٠.

وأشار فيه إلى تصميمه لسد رحاب للسيطرة على مياه الامطار والاستفادة من السيول، وهو جزء من مشروع سد مأرب، ويشير هذا النقش كذلك إلى قيام هذا المكرب بثقب حاجز من الحجر، وفتح ثغرة فيه لمرور المياه منها إلى سد رحاب لتسيل إلى منطقة يسران، وكانت تغذيها مساليل وقنوات عديدة تأتي بالماء من حوض هذا السد^(١).

وتشير نقوش «سمه على ينف» وهي أقدم كتابات تصلنا عن سد مأرب إلى قيمة بأعمال هامة فيه، إلا إنه لا يمكن القول إنه هو مشيده، فقد يكون تشييده قد بدأ من قبل حكمه وإنه أتم هذا العمل، ولكن نظراً للنقص الشديد في الوثائق المتصلة بهذا الموضوع يظل «سمه على ينف» هو أقدم المكاربة الذين نعرف عنهم قيامهم بتشييد سد مأرب، وكان ذلك في اواسط القرن الشامن قبل الميلاد. ولقد سار على نهجه من جاء بعده من المكاربة في الإهتمام بسد مأرب وتعلية جدرانه وترميمها واستحداث اضافات إليه.

ويعتبر سد مأرب أعظم عمل هندسي قديم في الجزيرة العربية كلها، ولقد حظي بكثرة ماورد عنه في اخبار العرب واعمارهم وذلك على سبيل العضة والعبرة لما أصاب سبأ نتيجة انهياره، ولقد أشار القرآن الكريم في سورة سبأ إلى ما أصاب سبأ نتيجة حدوث سيل العرم، فقال تعالى في كتابه الكريم: «لقد كان لسبأ في مساكنهم آية، جتنان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجتنيهم جتنين ذوات أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكافر، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيراً فيها ليالي وأياماً آمنين، ف قالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور». الآيات من ١٥ - ١٨ .^(٢)

(١) فؤاد حسنين. المرجع السابق. صفحة ٢٩١ .

CF. J. B. Philby, op. cit., P.39.

(٢) سورة سبأ. الآيات ١٥ - ١٨ .

وسيل العرم الذي يشير إليه القرآن الكريم، والذي كتب فيه المفسرون كثيراً، وكان سبباً في خراب المنطقة حدث في وقت ما بين أعوام ٥٤٣هـ، أي قبيل مولد النبي عليه أفضل الصلاة والسلام. ولكن بالرغم من أن حدث هذا السيل كان قريباً منبعثة المحمدية فإن ما كتبه الشراح والمفسرون مليء بالقصص الخيالية سواء كانت عن سبب تخريب السد وتهدمه أو عن سبب الذين قاموا ببنائه، فقال بعضهم إن بانيه هو سباً بن يشجب. وقال غيرهم بناه لقمان بن عاد، وجعله فرسخاً في فرسخ، وجعل له ثلاثين فتحة، إلى غير ذلك من المبالغات^(١).

ولعل من أوثق روایات العرب عن سد مأرب ما ذكره أبي محمد الحسن ابن يعقوب الهمذاني في كتابه الأكليل، وكان قد شاهد انقاشه بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة، وكان يقرأ خط المسند ويفهمه، فوصف انقاشه مع تطبيقها على ما جاء في القرآن الكريم، ولقد جاء في رواية الهمذاني^(٢):

«ذكر مأرب: وهي مسكن سباً الذي قال الله فيه: «لقد كان سباً في مسكنهم آية جتنا عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشکروا له بلده طيبة ورب غفور». وهي كثيرة العجائب. والجتنا عن يمين السد ويساره، وهو اليوم غامرتان، والغامر العافي، وإنما عفتا لما اندحق السد فارتقت عن ايدي السيول. ووُجِدَت في احدهما غريق اراك، وفي اصله جذع نخلة اسود قد كبسَت باقيَة السوافي، فقال بعض من كان معِي: لا اظنه إلا من بقايا نخل الجنتين، وما اظنه بقي من العصر القديم. وأما مقاسِ الماء من مداخل السد فيما بين الصياع فقائمة كأن صانعاً فرغ من عملها بالامس. ورأيت بناء أحد الصدفين وهو الذي يخرج منه الماء، قائماً بحاله على أوثق ما يكون ولا يتغير إلا أن يشاء الله، وإنما وقع الكسر في العرم وقد بقي من العرم شيء مما يصل إلى الجنة اليسرى يكون عرض اسفله خمسة عشر ذراعاً، قال تبارك

(١) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ١٣٧ - ١٤٦ فؤاد حسين. المرجع السابق. صفحة ٢٩٢.

(٢) عن: أحمد سليم. المرجع السابق. صفحة ٩٩.

وتعالى : «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ويدلناهم بجتنيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل» قيل الخمط الاراك والاثل الطرفاء، والسد المعروف العرج وهو العلب وجمعه علوب الواحدة علبة.

ومن امثال العرب في الرجل المنيني الجانب: هو رجل لا يفash عليه ولا يخلف وثله ودومه، وبها من الاراك ما ليس بيلد ومن الحمام المطوق في الاراك ما يجعل عن الصفة. وكان السيل يجمع من اماكن كثيرة ومواضع جمة باليمين، من (عروش وجانب ردمان وسرعة وذمار وجهران وكومان وأسيبل وكثير من مخالف خolan).

وفيما يتصل بوصف السد، فيلاحظ أن السيل المتدافع في الوديان تصل إلى منطقة قرية من مأرب في وادي أذنه حيث تدخل في جبل يسمى «جبل بلق» وتسمى الفتحة التي تدخل منها المياه بإسم «الضيق» ولكل من جهتيها إسم حسب وصفها فهي بلق اليمين وبلق اليسر^(١).

ويرتفع جبل بلق في تلك المنطقة إلى حوالي ٣٠٠ متر، ويبلغ متوسط اتساع «الضيق» ٢٣٠ مترًا، ولكنها تتسع في الوسط فيصبح اتساعها ٥٠٠ مترًا، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن ١٩٠ مترًا تقريبًا، ثم تستمر الناحية الشمالية في امتدادها بينما تنفرج الناحية الأخرى. وقد اختير هذا المكان لتشييد السد، فبني فيه جداراً قوياً يعترض الوادي ويوقف مياه السيل المتدافع، وجعلوا في الناحيتين فتحتين احداهما إلى اقصى اليمين واستغلوا ذلك الجبل المرتفع في هذا الغرض فلم يبنوا إلا جداراً ضخماً واحداً ليكون ثانياً للبوابة، أما البوابة التي في الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهي أكبر وأعظم، وتنقسم إلى قسمين، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة، ثم يتهيأن بحوض كبير مبني بالحجر ترى في جهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لري ناحية من نواحي الوادي الفسيح .

ولقد شيد هذا السد لغرضين، (الأول) السيطرة على مياه السيل

(١) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٧٢ وما بعدها

المتدفقة فلا تخرب ما يعرضها إذا جاءت فجأة بكثرة غير عادية، (وثانيهما) تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد وعدم صرف شيء منها إلا بالمقدار اللازم، وبذلك يضمنون ري وادي مأرب الذي يرتفع عن مستوى السابلة بخمسة أمتار، ويأمنون توفر كميات المياه اللازمة للري حين يحين موعد مجيء سيول أخرى.

وفيما يتصل بوقت تهدمه، فيلاحظ إن السد لم يتهدم مرة واحدة وإنما صارع عوامل الزمن والطبيعة، واهمال الإنسان طيلة الفترة التي كان قائماً فيها، ولا ريب أنه تأثر بتلك التحولات السياسية والإقتصادية التي شهدتها اليمن قديماً، وتعرض للإهمال والكوارث الطبيعية مراراً. ومن النقوش التي سجلت تهدم السد والقيام بترميته، نقش عشر عليه في مأرب ويعرف بإسم «جام ٦٧١» ويرجع إلى أواسط القرن الرابع الميلادي، وفيه يشير «ثاران بن يهنعم» وابنه «ملكي كرب يهمن» إلى إصلاح ما تهدم من السد في حوالي ثلاثة أشهر. ووصلنا النقش الثاني من عهد الملك «شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد» التابع اليمني وذلك بين عامي ٤٤٩، ٤٥٠ م، وفيه يشير إلى إصلاح ما تهدم من السد من جداره، أو قناته واعيد بناؤه سوياً، كما كان، وذلك في خمسة أشهر من العمل المتواصل^(١) واشتراك في اصلاحه عشرون ألف رجل.

وتهدم سد مأرب للمرة الثالثة في عهد ابرهة الذي حكم اليمن بعد الغزو الحبشي واليأ لنجاشي الحبشة ثم حاكماً مستقلأً عنه، وكان ذلك حوالي عام ٥٤٣ م. وقد عمل في إصلاح السد آنذاك عدد كبير من العمال وصرف على ترميمه اموال طائلة اشير إليها في نقش ابرهة الذي عشر عليه قرب السد ويطلق عليه (المدونه ٥٤٢) وكان خبر انكسار السد قد بلغ ابرهة وهو في احدى حملاته لإنخضاع بعض القبائل الثائرة، وعاد ابرهة ومعه من ثار عليه من القبائل واشتراك الجميع في إصلاح السد وبإشراف ابرهة نفسه. وقد خلد ابرهة ذكرى هذا العمل في نقش عشر عليه في جلازر. ونورد فيما يلي ما جاء

(١) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٩٩ - ١٠١.

في هذا النص إعتماداً على ما ورد في مؤلف الاستاذ جرجي زيدان عن العرب قبل الإسلام^(١):

«نعمت الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس، إن ابرهه عزيز الاحباش الاكسوميين، ملك اراخميis زبيمان، ملك سباً وذو ريدان وحضرموت ويمتد واعرائهم في نجد وتهامه، قد نقش هذا الاثر تذكاراً لتلغبه على يزيد ابن كبيشه، عامله الذي كان قد ولاه كندة وريء، وعيته قائدأً ومعه أقيال سباً الصحاريin، وهم مرة ونمامة وحنش، ومرثد وصنف ذو خليل واليزيون أقيال معدى كرب بن السميع وهفان واحتوه ابناء الاسلام، فأنفذ الملك إليه الجراح ذازنبور، فقتله يزيد وهدم قصر كدار، وحشد من اطاعه من كندة وحرب وحضرموت، وفرهجان الزماري إلى نجران. وبلغ الملك الاستصراخ، فنهض بجنده الاحباش الحميريين الوفاء في شهر ذو القياط من سنة ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فنزل اودية سبا... فجاء يزيد وبایع وخضع للملك بين يدي القواد. وهم في ذلك جاءهم النبأ بتهدم السد والحانط والوحوض والمصرف في شهر ذو المدرج سنة ٦٥٧ فأمر بالعفو... وبعث إلى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والأخشاب ورصاص الصب... لترميم السد في مأرب... فتوجه أولاً إلى مأرب وصل إلى كنيستها، ثم عمد إلى الترميم فبشوا الانقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه. وعلم وهو في ذلك إن القبائل تضايق من العمل، ورأى اعدامهم يعود بالضرر فعوا عنهم: احباشهم وحميريهم، وأذن بانصرافهم... ورجع الملك إلى مأرب بعد أن عقد تحالفًا مع الأقيال الآتي ذكرهم: اكسوم ذو معاهر بن الملك ومرجف ذو ذرناح وعادل ذو غائش وازداد شولمان وشعبان ورعين وهمدان والكلاء... الخ وجاء إليه وفد النجاش ووفد ملك الروم ورسول من المندر وآخر من الحارث بن جبلة، وأخرون جاءوا بعون الرحمن يخطبون موته في أواخر شهر داوان، ويعثروا إليه من غلة اراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعاً وارتفاعه ٣٥ ذراعاً

(١) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٠٠ - ١٠٣.

(ثم ذكر ما انفق فيه من الحجارة والاطعمه للعمال والحيوانات للعمل)، واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوماً و ١١ شهراً، وكان الفراغ منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨. «وهذه السنة في حساب الحميريين تعدل عام ٤٣٥ للميلاد، لأنهم كانوا يبدأون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد».

أما متى تغير سد مأرب للمرة الأخيرة، وهي الحادثة التي ذكرها القرآن الكريم، فلا يعلم زمانها بدقة وإن كان جمهور العلماء يرى أن تلك الحادثة لا بد وأن تكون قد تمت بعد منتصف القرن السادس الميلادي، أي بعد عام ٥٥٠ ميلادية، وذلك قبل ميلاد الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، بسنوات قليلة^(١).

٣ - بناء المدن :

اتخذ مكاربة سباً من صرواح عاصمة لهم في باديء الأمر، وظلت قرونًا طويلاً عاصمة لهم، وعني الكثير من حكام سباً بتشييد المعابد فيها. وتقع مدينة صرواح في وادي صرواح الذي يكاد يكون مستديراً، وتحيط به المياه من كل ناحية، وكان له سد لتخزين مياه الامطار. وتوجد المناطق الأثرية في صرواح في ثلاثة مناطق متقاربة واحدة منها هي منطقة السد وتعرف بإسم «البنا»، والثانية هي المنطقة المسماة «القصر»، والمنطقة الثالثة وتعرف بإسم «الخربة» وتوجد فيها بقايا المعابد، ومن أشهرها المعبد الكبير الخاص بالله «المقه» والذي سبقت الاشارة إليه^(٢).

سياسة سباً الخارجية في عهد المكاربة :

تشير العديد من النقوش السبئية إلى الاهتمام بمدينة نشق وتحصينها وهي مدينة معينة في الأصل، مهمة بالنسبة لهم، فقرروا إصلاح ما تخرّب

(١) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ٩٩ - ١٠١ .

(٢) الهمذاني. صفة جزيرة العرب. صفحات ١١٠ ، ١٠٢ ، ٢٠٣ .

ياقوت الحموي. الجزء الخامس. صفحة ٤٠٢ أحمد فخري. أحدث الإكتشافات الأثرية في اليمن. صفحات ١٥٩ - ١٦٢ .

منها، واستصلاح أرضها لاسكان السبيئين فيها، ووسعوا في حدودها، وأصلحوا نظم الري فيها، وزعوا اراضيها الزراعية على إتباعهم السبيئين، وتحولوها بذلك إلى مدينة سبية. ومن هذه النقوش التي تشير إلى إهتمام مكاربة سباً بمدينة نشق، نقش خاص بالمكرب «كرب ايل بين» ويشير فيه إلى إنه وسع حدود مدينة (نشق) وحسن المدينة، وأشار ابنه المكرب «ذمر على وتر» إلى إنه أمر بتوسيع مدينة (نشق) وإصلاح الأرض المحيطة بها، وتحسين نظم الري فيها، وذلك فيما وراء الحد الذي وضعه أبوه لهذه المدينة، وإنه قد جعل ذلك وقفا على شعب سباً.

ويشير إلى توسيع السبيئين أيضاً نقش يرجع إلى عهد المكرب «يشع امر بين» وفيه يذكر أنه سور وحصن قلعة (حربيب) وهو من مدن قتبان، ويشير ذلك إلى توسيع السبيئين في عهد المكاربة وإلى اتخاذهم هذه الحصون موقع هجومية تغير منها جيوشهم على جيرانهم الذين أصابت حكوماتهم الضعف.

ولقد ورد في نقش خاص بالملك سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق. م) إنه تسلم هدايا من عدد من الملوك، من بينهم «يشع امر» السبيئي، وذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن «يشع امر» هذا كان أحد الملوك السبيئين الحاكمين في شمال جزيرة العرب على مقربة من البدية في أعلى الحجاز، أو نجد مثلاً أو في الأرض الواقعة في المناطق الجنوبية من الأردن، بينما يرى آخرون إنه هو المكرب السبيئي الذي حكم في الجنوب، وهو ما يتوجه إليه معظم الباحثين، وفي هذه الحالة، فإن هذه الهدايا لا تشير إلى خضوع سباً للأشوريين، إذ إنه من المستبعد بلوغ نفوذ الأشوريين في ذلك الوقت إلى اليمن، وعلى ذلك فإن هذه الهدايا تكون مجرد تعبير عن الصداقة التي كانت تربط بين أشور وسباً، خاصة وإن بين اليمن وال العراق تجارة مستمرة قديمة، ومواثيلات متصلة، فلتوطيد الصداقة بين الحكومتين وتسهيل التبادل التجاري بين العراق واليمن أرسل حكام سباً تلك الهدايا للكسب ودهم وتسهيل أمور تجارتهم في أسواق العراق^(١).

(١) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٢٨٣ - ٢٨٥ أحمد فخرى. المرجع =

٢ - عصر ملوك سبا

يبدأ عصر ملوك سبا بالملك «كرب أيل وتر» الذي كان «مكرباً» ثم لقب «ملك» كما تشير إلى ذلك النقوش التي ترجع إلى عهده، ومن أهمها نقش صرواح المنقوش على وجه جدار مشيد من المرمر في بهو المعبد الرئيسي في صرواح، وقد افتح هذا النقش بجملة: هذا ما امر بكتابته كرب أيل وتر بن ذمر على مكرب سبا عندما صار ملكاً. ويشير استخدام حكام سبا لهذا اللقب إلى زيادة صفتهم السياسية عن صفتهم الدينية. وقد انتقلت الحكومة من صرواح العاصمة الأولى القديمة إلى مأرب العاصمة الجديدة، حيث استقر الملوك فيها متخذين من قصر سلحين مستقراً لهم.

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لعصر ملوك سبا، فهناك من المؤرخين من يجعل بداية هذا العصر حوالي عام ٦٥٠ ق. م، بينما يرجعه آخرون إلى حوالي عام ٤٥٠ ق. م، إلا أن الرأي الأول هو الارجح. أما عن تحديد نهايته، فيتجه غالبية العلماء إلى تحديده بحوالي عام ١١٥ ق. م أو ١٠٩ ق. م.^(١)

وقد اختلف المؤرخون في عدد ملوك سبا، فذكر «هومل» في قائمه تسعة عشر ملكاً، وذكر «كليمان هوار» اثنا عشر ملكاً، وأورد «فلبي» اسماء خمس وعشرين ملكاً، ومن هؤلاء الملوك:

- سمه على ذريع.
- الشرح بن سمه على ذريع.
- كرب أيل وتر بن سمه على ذريع.
- يدع أيل بين بن كرب أيل وتر.
- يكرب ملك وتر.

= السابق. صفحة ١٦٣ محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٨١ - ٢٨٥.

CF. J. B. Philby, op. cit., P. 3q.

(١) فريتز هومل. التاريخ العربي القديم. صفحات ٨٧ - ٨٨.

CF. J. B. Philby, op. cit., P. 14.

- يشع أمر بين.
- كرب أيل وتر.
- سمه على ينف.
- الشرح بن سمه على ينف.
- يدع أيل وتر.
- ذمر على بين بن يدع أيل وتر.
- كرب أيل وتر بن ذمر على بين.
- نشاً كرب يهنعم.
- وهب آل يحز.
- كرب أيل وتر يهنعم^(١).

سياسة سباً الداخلية في عصر الملوك

١ - الإهتمام بالنواحي الاقتصادية :

إهتم ملوك سباً باقامة السدود وحصر السيول وشق القنوات لاستصلاح الأراضي الصالحة للزراعة وتنظيم وسائل الري . وفي ذلك يشير أول ملوك سباً وهو «كرب أيل وتر» في نقش النصر إلى شكره لالهته وثنائه عليها . لمباركتها أرضه وأرض شعبه ، ووهبت أرضه مطرأ سال في الاودية فأخذت الأرض زخرفها بالنبات ، وإذ مكنته من انشاء السدود وحصر السيول حتى صار في الامكان اسقاء الاراضي المرتفعة ، واحياء الاماكن التي حرمت من الماء . وكذلك احياء اراضي واسعة بإنشاء سد لحصر مياه الامطار يتصل بقناة روت اراض لم تكن المياه تصل اليها ، فوصلت إليها بامتداد حوض السد بالماء ، وبانشائه مسائيل أوصلت المياه إلى أراضي اخرى ، كما نظم الري ، حتى صارت المياه تسقي كل ارض . كما اشار في نقش آخر يعرف بإسم Glaser إلى اقامته لخزان ماء في وادي أذنة ، وأقام مسائيل للماء فوصلتها إلى

(١) عن هؤلاء الملوك والخلاف حول ترتيبهم زمنياً ومدة حكم كل ملك واعماله راجع : محمد بيومي مهران . المرجع السابق . صفحات ٢٨٧ - ٢٩٦ .

(يسران) وإنه شيد وحصن وقوي جدار ماء (يلط) وما يتفرع منه من مساق ومسايل. ويشير في هذا النقوش كذلك إلى تعميره لأراض زراعية، في أرض (يسران) وغرسه لنباتات فيها^(١).

وورد نقش من عهد الملك «كرب ايل وتر» سجله أحد كبراء القبائل بمناسبة قيامة بأعمال زراعية وأمّور تتعلق بري الأرض مثل حفر الانهار وبناء السدود. وقد ورد في هذا النقوش أسماء الاماكن التي أجريت فيها هذه الاعمال وهي (أثنين) و (مطرن) و (مائتم) و (ذو فنوتيم) و (سمطانهان) وهي من مزارع الملك. وغوطه (ذو ضام) في (سرر أمان).

وقد ذكر أسم الملك «كرب ايل وتر يهنعم» في النص المعروف Jamme 563 وقد دونه أناس من (بني عثكلان) حمدآ وشكرا للاله المقه الذي انعم عليهم وحباهم بنعمه، واعطاهم حصاداً جيداً وغلة وافرة، ولزيزيد في توفيقه لهم ونعمه عليهم، ولبيعد أذى الحсад وشر الشائين. ويوضح ذلك مدى الإهتمام بزيادة المحاصيل الزراعية.

كما جاء أسم هذا الملك في نص آخر دونه قيل من أقيال (غيمان) معروف بـ Jamme 464 دونه عند تقديمه تمثلاً للاله المقه حمدآ له وشكرا على إنعامه عليه وعلى جيش وaciال الملك كرب ايل وتر يهنعم، وأنه من عليه وأعطاه حاصلاً طيباً وغلة وافرة وأثماراً كثيرة، وليمن على قومه في المستقبل أيضاً، وذلك بحق المقه وبحق الآلهة عشرة... ثم يعدد النقوش العديدة من الآلهة السبئية^(٢).

٢ - النواحي المعمارية

العمارية الدينية: إهتم ملوك سباً بإقامة معابد الآلهة وترميمها وتقديم القرابين إليها، ومن بين النقوش التي وصلتنا وتشير إلى إهتمام الملوك بترميم

(١) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحة ١٠٩ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق. نفس الموضع.

قارن: جورجي زيدان. المرجع السابق صفحات ١٨٧ - ١٨٨ .

المعابد وزياتتها، نقش يعرف بـ CIH 374 وورد فيه «إن الشرح بن سمه على ذريح» قد أقام جدار معبد المقه من موضع الكتابة إلى اعلاها، ورسم ابراج هذا المعبد، وحفر الخنادق، وفيه بجميع نذره الذي نذره لاله المقه على الوفاء به بعد أن اجاب دعاه، وقد استجابة إليه لسؤاله، فيسر أمره وأعطاه كل ما أراد، فشكراً له على نعمه، وشكراً لحقيقة آلهة سبا، وهي: عشرت وهب وذات حميم، وذات بعدهن وتمجيداً لإسم والده «سمه على ذريح» إن أمر بتدوين هذه الكتابة ليطلع عليها الناس»^(١).

العمارنة المدنية: اشار أول ملوك سبا «كرب ايل وتر» في نقش النصر الذي يرجع إلى عهده بعض ما قام به من أعمال عمرانية، فذكر أنه أتم بناء الطابق الأعلى من قصر سلحين ابتداء من الأعمدة، والطابق الأسفل إلى أعلى القصر.

وفيما يتصل بعاصمة سبا في عهد الملوك فكانت مأرب، وكان يحيط بها سور قوي حصين له أبراج، وشيد السور بحجر البلق، كما ورد في النقش المعروف بـ Glaser 418, 419، وأقيم السور على أساس قوي من الحجر، وكان بالسور بابين. ومن أعظم ابنيه مأرب وأشهرها قصر ملوكها وهو المعروف بقصر سلحين، ومعبدها الكبير الخاص بالاله المقه. وفي خارج أسوارها توجد بقايا مقبرة جاهلية، يبدو أنها كانت مقبرة مأرب قبل الاسلام^(١).

٢ - النظم السياسية :

توجد بعض الإشارات التي يمكن الاستدلال منها على بعض نواحي التنظيم السياسي في عصر ملوك سبا. ومن هذه الإشارات ما ورد في عهد الملك «يكرب ملك وتر» وهو النقش المعروف بـ Halevy 51، وقد سجل عليه تأييد هذا الملك لقانون كان قد صدر في أيام حكم أبيه لشعب سبا، وقبيلة «يهبلع»، وهو يتصل بحقوق الأرض وكيفية استغلالها واستثمارها في

D. Neilson, op. cit., P 87.

(١)

(٢) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٣١٥ وما بعدها.

مقابل نسبة معينة تدفع إلى الدولة، وفي الواجبات المترتبة على سبأ وعلى (يهلج) في موضوع الخدمات العسكرية، وتقدم الجنود لخدمة الدولة في السلم وال الحرب. وقد شهد على صحة هذا القانون وأيد صدق صدوره من الملك وافق عليه جماعة من الأشراف وسادات القبائل المتضامنة مع سبأ. وقد ذكرت اسماؤهم بعد جملة «شهد على صحة هذا البيان، وأيده، ووافق على ما جاء فيه»^(١).

ويتضح من هذا النتش أهمية القبائل السياسية في اتخاذ قرارات القوانين والموافقة عليها، وإنه كان يوجد - ما يمكن أن يطلق عليه مجلس قبائل سبأ، وإن هذا المجلس يتكون من ممثلين لإشراف كل قبيلة ويرأسه الملك، ويبدو إنه لا بد من موافقة هذا المجلس على ما يصدره الملك من قرارات، وبعبارة أخرى كان هذا المجلس هو الذي يصنع سياسة الدولة بما يتفق ومصالح القبائل الممثلة فيه.

ويؤيد ذلك نقش يرجع إلى عهد الملك «كرب ايل وتر» ويعرف بـ 1571 Glaser وهو يتضمن أمراً ملكياً يتصل بجباية الضرائب، وقد شهد عليه ووقعه ممثلون عن القبائل: قبيلة ذي يفعان، قبيلة نزحتن (نزحتان)، وقبيلة أربعنهان، وقبيلة فيشان، وكبير صرواح.

السياسة الخارجية:

استمر «كرب ايل وتر» أو ملوك سبأ في سياسة المكاربة الخارجية، وذلك فيما يتصل بسياسة التوسيع والقضاء على الحكومات العربية الجنوبية الأخرى، أو إخضاعها لحكم سبأ، وقد سجل في نقشه المعروف باسم نقش النصر ما قام به من أعمال حربية ونتائج هذه الحروب، ونستطيع من دراستنا للإعمال العسكرية في هذا النص معرفة الاتساع الذي بلغته سبأ في عهده وما غنمته في هذه الحروب وما أوقعه بأعدائه أو المتحالفين معه. ولقد اطال في ذكر البلاد التي فتحها ودمرها، ويذكر أنه في حربه ضد أوسان قتل ١٦٠٠٠

(١) المرجع السابق. صفحة ٣١٨.

من أعدائه وأسر رهءو، ويقول إنه استمر في فتوحاته حتى وصل إلى البحر ودانت أوسان وملكيها «مارتو» لسلطانه. وبعد أن تم له إخضاع الجنوب، اتجه ببصره نحو مدن المعينيين فأخضعها واحدة بعد أخرى، وقبل ملوكها دفع الجزية له، وأن يكونوا من أتباعه. ويشير في آخر النسخ إلى حملته على نجران. ولقد كانت حروب هذا الملك فاتحة عهد جديد في تاريخ اليمن القديم، وأصبح ملك سباء، ملكاً على اليمن بأكملها بما في ذلك حضرموت ونجران، وما يسمى الآن بالمحمييات، واستمر ذلك الملك الواسع الكبير لسبأ لمدة عدة قرون.

ومنذ عهد الملك «يشع أمر بين» دخلت سباء في صراع مع قتبان، ومما يشير إلى ذلك نقش سجله كاهن الآلهة ذات غضران بمناسبة اقامته هو وافراد اسرته جداراً في معبد الآله المقه وشكراً لهم لآلهة سباء لأنها انعمت عليه إذ كان قائداً عسكرياً بالتوفيق في عقد صلح بين حكومة سباء وحكومة قتبان وذلك بعد حرب ضارية استمرت لمدة خمس سنوات، كانت قتبان هي التي اشعلت نارها بهجومها على أرض سباء، وقد عهد إلى هذا الكاهن والقائد بمحاربة القبيانيين والدفاع عن المملكة، فاستطاع وقف الهجوم القبياني والجلاثهم وانتهى الأمر بعقد صلح معهم. تمكن السبيئون من استعادة اراضيهم التي احتلتها القبيانيون^(١).

ولم تنته جولات الحروب بين سباء وقطبان عند ذلك، فهناك العديد من الاشارات إلى وقوع حروب بينهم بعد ذلك، استمر بعضها سنين طويلة استغرقت عهد العديد من الملوك، وكان لقطبان الغلبة في بعضها حيث استولت على بعض املاك القبائل السبيئية وسجلتها بإسمها.

ويستدل من النص المعروف بـ Glaser 1228 إن «وهب ايل يحز» قد دخل في صراع حربي مع الريدانين، وقد ساعد السبيئين في هذه الحرب بعض القبائل ومنها مخطران، وسخيم، وزو خولان، وينتسب بينما انضم إلى جانب الريدانين سعد شمس، ومرتد.

(١) جواد على. نفس المرجع. صفحة ٣٢٠.

ويشير نص آخر إلى هذه الحروب مع الريدانين، وهو يعرف بـ Jam-*me* 561 BIS وقد سجله بعض أقىال همدان وذلك عند تقديمهم تمثلاً إلى الله المقه لأنه من عليهم وعلى قبيلتهم، وأغدق عليهم نعماءه واعطاهم غنائم كثيرة في الحرب التي وقعت بين ملوك سباء وبين ذي ريدان واشتركوا فيها، إذ ترأسوا بعض القوات وكذلك في غاراتهم على أرض العرب المجاورين لقبيلتهم والنازلين على حدودها، أولئك العرب الذين أخطلوا تجاه أمرائهم وساداتهم ملوك سباء، وتتجاه بعض قبائل ملك سباء، ولأن الله المقه أنعم عليهم بأن جعل الملك «وهب ايل يحز» ملك سباء أرضياً عنهم، مقرباً لهم^(١).

ويتبين من هذا النتش أن هؤلاء الأقىال من قبيلة همدان كانوا في خدمة ملك سباء، وإنهم قد اشتركوا مع ملك سباء «وهب ايل يحز» في تكبيدبني ذي ريدان خسائر فادحة في الحرب التي نشب بينهم وبين هذا الملك كما يتبيّن من هذا النتش كذلك أن أرض همدان قد تعرضت لغارات الاعراب وقد نجحوا في تأديبهم.

وقد وردت أولى الإشارات عن الاعراب وغاراتهم على السبيّلين وقوافلهم من عهد الملك «نشأ كرب يهنعم»، وقد دون هذا النص بعض الأفراد من قبيلة بنى آل الجميل العرج وهم من كبراء قبيلة يدع، وذلك حمداً للله المقه الذي أحب نداءهم وأغاثهم ومن عليهم وعلى بيتهم سلحين في الجميل وحماتهم من الغارة التي أمر بها الملك «نشأ كرب يهنعم» على (أرض عربن)، أي الاعراب لإنقاذ أصدقائهم واهليهم في مأرب، وكذلك الجنود والحيوانات التي كانت معهم واعادتهم إلى مأرب.

ويتبّع من هذا النص إن اعراب البادية كانوا قد أغروا على جماعة من السبيّلين، أو إنهم هاجموا أرض سباء، فأرسل الملك السبيّي «نشأ كرب يهنعم» قوة من الجيش ومن الاهالي للاحتجاج عليهم في مضاربهم (أرض العرب) ولا سرّجاع ما أخذوه من غنائم وأسلاب واسرى، وقد رجعت

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٢٩٣ - ٢٩٤.

الحملة سالمة. ومن الواضح إن (أرض عربن) تشير هنا إلى اعراب البدية المتنقلون الرحيل والذين لم يكن لهم موطنًا محدداً ولا إسماً معيناً، وذلك بعكس القبائل المستقرة في اليمن والتي كانت تذكر بأسماء قبائلها ومواطنها^(١).

٣ - دولة سباً وذي ريدان

اتخذ ملوك سباً في هذا العهد لقب جديد وهو «ملوك سباً وذي ريدان» وذلك اشارة إلى ضم ذي ريدان إلى مملكة سباً. إلا إنه لا يمكن الجزم بذلك، فقد ظل للريديانيين كيانهم إلى جانب دولة سباً، مما قد يرجح إن ذلك يعني تحالفًا بين سباً وقبائلها وكيان ذي ريدان وحمير^(٢).

وقد اختلف المؤرخون حول بداية هذا العهد، فيتجه أغلب العلماء إلى أن ذلك كان في حوالي عام ١١٨ أو ١١٥ أو ١٠٩ ق. م، إلا أن البعض يتوجه إلى الاعتقاد بأن ذلك اللقب لم يظهر إلا في أواخر القرن الأول قبل الميلاد.

وتتميز هذه المرحلة من الناحية الداخلية بالاضطراب وعدم الاستقرار وكثرة الحروب الداخلية، وأدى ذلك إلى تهدم المدن وتخريب القرى وعدم الإهتمام بوسائل الري مما حول الكثير من الأراضي الزراعية إلى صحراء مجدهبة. وتوجد من هذا العصر الكثير من النصوص التي يتoss فيها الأهالي إلى الآلهة بأن تمنّ عليهم بنعمة الطمأنينة والهدوء والاستقرار، وكان من نتائج هذه الحروب انتشار الوبية والامراض التي كانت تفتك بالناس بالجملة.

وأول ملوك هذا العصر هو «الشرح يحضرب» وتشير النقش المتبقية من عهده أنه كان مقاتلاً خاص العديد من الحروب حتى قبل أن يصبح ملكاً، استمرت الحروب للتنافس على العرش بينه وبين «شمر» وهو من حمير، ولقد

(١) المرجع السابق. صفحات ٢٩٤ وما بعدها.

(٢) مصطفى العبادي. المرجع السابق. صفحات ١٢٥ - ١٢٧.
قارن: سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٩٣.

تدخل الاحباش في هذا الصراع الداخلي، ولم تكن لهم سياسة ثابتة، فقد كانوا يغيرون سياستهم تبعاً للاحوال المتغيرة، فنراهم مرة مع الحميريين وتارة عليهم، وكان ذلك نتيجة للاحوال القلقة المضطربة التي كانت تحكم في العربية الجنوبية آنذاك، ولمصالح الجيش الذين كانوا يريدون تثبيت اقدامهم في السواحل العربية المقابلة وتوسيع رقعة ما يملكونه باستمرار.

وينسب إلى الشرح يحضر تشييد قصر غمدان في صنعاء، وقد ذكر هذا القصر في نصوصه مع قصر سلحين، وقد يشير ذلك إلى إقامته في القصررين وحكمهما. وقد لمع اسم (صنعاء أي) في أيام الشرح يحضر، وهي لا بد أن تكون قد بنيت قبل عهده، وكان لتشييده قصره فيها أثره في زيادة مكانتها، حتى صارت عاصمة اليمن ومقر الحكم.

ومن الناحية الخارجية، فقد تعرضت سبا خلال هذا العهد للحملة الرومانية التي قام بها اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية عام ٢٤ ق. م، وذلك بهدف الاستيلاء على اليمن للسيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها السبيئون، فقد تمكنت بحكم موقعها من التحكم في نقل السلع الآتية من الهند وافريقيا الشرقية إلى الشمال، وذلك بالإضافة إلى تصدير ما تنتجه بلاد الجنوب العربي من محاصيل إلى الشمال، ومثلت هذه التجارة والطرق التجارية مصدر ثروة اليمن.^(١)

وإعتمد اليوس جالوس في حملته على مساعدة الانباط له، إلا أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً، ولم تحقق أغراضها، إذ تعرضت للأمراض والأوبئة والجوع والعطش ووعورة الطريق، ولقد وصف ستراابو الذي يبدو أنه قد رافق الحملة، ما تعرضت له الحملة وصفاً دقيقاً، إلا أنه ألقى بتبعه فشل الحملة على كاهل الوزير النبطي «صالح» الذي رافق الحملة وعمل دليلاً لها.

Pliny, 11, 415

(١)

CF. O'Leary, op. cit., PP. 74 - 75.

جواد على. المرجع السابق. الجزء الثاني. صفحات ٤٣ - ٤٤ أحمد فخرى. المرجع السابق. صفحة ١٤١.

وكان لفشل الحملة اثره في عزوف الرومان عن السيطرة على بلاد العرب بطريق القوة، واقتصرت على محاولة السيطرة على التجارة البرية، وتدعيم مصالحهم التجارية عن طريق تحسين علاقاتهم السياسية بالدول العربية والامارات في الجنوب العربي^(١).

دولة سباً وذى ريدان وحضرموت ويمن:

يبدأ هذا العهد من حوالي عام ٣٠٠ ويستمر حتى عام ٥٢٥ م ويشير اتخاذ الملوك لهذا الإسم على أن دولة سباً وذى ريدان أصبحت تضم إليها حضرموت وكذلك يمن، وهي في رأي غالبية العلماء تشمل المنطقة الجنوبية الغربية من بلاد العرب، من باب المندب وحتى حضرموت.

وأول ملوك هذه الدولة هو «شمر يهرعش» ولقد نسب إليه القيام بالكثير من الفتوحات في العديد من البلدان، حتى قيل إنه وصل حتى الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر، ومن الواضح إن في ذلك نوعاً من المبالغة، إذ لا تثبت الأدلة النصية والاثرية في منطقة الشرق الادنى القديم حدوث مثل هذا العمل، ولكن يبدو إن هذه المبالغة ترجع إلى قيامه بالعديد من الفتوح في جنوب بلاد العرب، مما دعا الاخباريين العرب إلى المبالغة في أمر فتوحاته.

وبعد وفاته تمكّن الاحباش من احتلال اليمن في سنة ٣٤٠ م، وأخذ نجاش الحبشة لقب «ملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسباً وصلح وتهامة والباء وكسو»، وربما كان الاحتلال الحبشي لليمن راجعاً في المقام الأول للعوامل الاقتصادية، وذلك لحماية التجارة الحبشية كرد فعل للغزو الذي قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة^(٢).

Strabo, xvi, 23 - 24.

(١)

O'Leary, op. cit., p. 75

قارن: فؤاد حسين. المرجع السابق. صفحات ٣٠١ - ٣٠٠.

(٢) وهب بن منبه، المرجع السابق. صفحة ٢٢٢؛ ياقوت الحموي.

ونظراً لحدوث بعض الثورات في المناطق الأفريقية لملك الحبشة وانشغال الاحباش بالقضاء على هذه الثورات، فلقد انهز اليمنيون الفرصة وطردوا الاحباش من اليمن وذلك فيما بين عامي ٣٧٠ م و ٣٧٨ م.

وكان لاعتناق آخر ملوك سبأ «دو نواس» الدين اليهودي ومحاولته فرضه بالقوة على شعبه، واضطهاده للمسيحيين، أثره في تشجيع الأثيوبيين على غزو اليمن واحتلالها عام ٥٢٥ م وذلك بتشجيع من الدولة البيزنطية.

وأدّت هذه الاحوال المضطربة إلى توقف التجارة العالمية التي اشتهر بها عرب الجنوب وكان مصدر ثرائهم وازدهارهم ورخائهم، ويضاف إلى ذلك تصدع سد مأرب مما أدى إلى ضعف هذه المنطقة ضعفاً شديداً، وفي عام ٥٧٥ م تمكّن الفرس من إحتلال اليمن، وظلّ اليمن خاضعاً لهم حتى ظهور الفتوحات الإسلامية الكبرى في القرن السابع الميلادي التي أنهت دولتهم^(١).

= المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٢٤٧؛ سعد زغلول عبد الحميد.
المرجع السابق. صفحة ١٩٦.

(١) جواد على. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٤٥٩ - ٤٦٠.

خامسًا: دولة الأنباط

تعد دولة الأنباط التي قامت على الأطراف الخارجية لمنطقة فلسطين في حوالي القرن السادس قبل الميلاد من أهم الدوليات التي قامت على طول حدود الصحراء من ساحل البحر الأحمر إلى أطراف سوريا وفلسطين وال العراق، وقد اتخذت من البتراء عاصمة لها^(١).

وقد بلغت دولة الأنباط أقصى اتساعها الجغرافي أيام ملكها «حارثة الرابع» في أواخر القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول الميلادي، إذ ضمت منطقة واسعة إلى جنوب البتراء بلغت حتى حدود العلا، وكان وجودها واضحًا في منطقة النقب، ومن الشمال وصلت أقصاها بضم دمشق، وهذا الاتساع في معظمها سياسي وتجاري. فمن الناحية السياسية كان التوسع ناحية الشمال أسهل لأنهم لم يجدوا مقاومة تصدّهم عنها، ومن الناحية التجارية كان يمثل المكان الذي تتجه إليه السلع الآتية من الجنوب، فهو الاتجاه الطبيعي الذي لا بد من تأمينه، وربما يكون ذلك السبب وراء عدم اتجahهم في بداية تاريخهم للسيطرة على المناطق الجنوبيّة، لأن الامتداد نحو الجنوب لم يكن يمثل أهمية لهم في هذه المرحلة أو ربما كان راجعاً إلى وجود قبائل قوية رأوا من مصلحتهم حينئذ أن لا يستثيروا عداوتها. وتعويضاً عن ذلك قاموا بتوسيع رقعتهم في المنطقة الساحلية عند العقبة، أما

(١) سيبينو موسكاني. المرجع السابق. صفحة ٢٠١.
فيليپ حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٢٦.

الامتداد جنوباً فلم يتجاوز الحوراء على الساحل وتيماء والحجر في الداخل.

وبعد تأمينهم للمنطقة الساحلية استولوا على المنطقة المعروفة اليوم باسم شرق الأردن حتى بلغوا مادبا إلى الشمال، وإن كانوا قد اتجهوا إلى ما وراءها بعد ذلك. وحين اتسعت تجارة القوافل النبطية كان من الضروري لهم تأمين الطرق التجارية التي تذهب من البتراء مخترقاً النقب إلى غزة أو العريش. ومن ثم عملوا على الاستيلاء على النقب كله لتأمين طرقهم التجارية من ناحية واستغلاله في الزراعة من ناحية أخرى.

وعلى ذلك فإن المناطق التي شملها الامتداد النبطي كانت ثلاث مناطق رئيسية أنشأوا لهم فيها مراكز ومواقع استيطانية تعد بالمئات، وهذه المناطق هي :

١ - منطقة النقب وكانت أهم مراكزهم فيها عبدة وكربن ونصتان وخلصه.

٢ - منطقة جنوبي سوريا وكانت أهم المراكز فيها - بالإضافة إلى بصرى - هي سيعاء والسويداء.

٣ - المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن وتمتد جنوباً لتشمل جانباً من شمال الحجاز، وبالإضافة إلى البتراء أهم مركز نبطي في هذه المنطقة فإنها تحتوي على أكبر نسبة من المراكز النبطية ومنها موقع ذبيان ووادي روم وهو يقع عند نهاية شرق الأردن وبداية الجزيرة العربية، ومن أهم المنشآت النبطية في هذه المنطقة معبد لا يزال في حالة جيدة نسبياً^(١).

وفيما يتصل بالتسمية، فهناك من الباحثين من يربط بين كلمة «نبط» ولفظة «نبيايت» التي وردت في العهد القديم كاسم لابن البكر لاسماعيل، ومن الباحثين من قرئها بلفظة «النبياتيين» و«النبيتي» التي وردت في نصوص

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٢٢ جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث صفحة ١٥.

الملك العراقي تجلات بلاسر الثالث، ثم في نصوص أسرحدون، ومن بعد ذلك في نصوص الملك أشوربانبيال^(١).

وفيما يتصل بالمصادر التي تعتمد عليها في دراسة التطور السياسي والحضاري لدولة الأنباط، فمن أهمها المصادر الأثرية وكتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان، وما سجله المؤرخ اليهودي «يوسفوس فلافيوس ٣٧ م - ١ م»، وستتناول هذه المصادر بشيء من التفصيل فيما يلي :

أولاً المصادر الأثرية :

بدأت الجهود الأثرية الجادة تأخذ طريقها في الموضع النبطية من عام ١٩٢٩، حينما قامت بعثة برئاسة جورج هورسفيلد بالعمل في موقع البراء، وتتابعت بعد ذلك البعثات، فتمكن البرايت من الكشف عن «معلاة كونواي» عام ١٩٣٤ وعن خزنة فرعون وقبر الجرة وقبة الجندي الروماني عام ١٩٣٦. ومنذ عام ١٩٥٤ بدأت دائرة الآثار الأردنية بالقيام بأعمال حفظ وصيانة الآثار النبطية وكذلك عمليات الكشف المستمرة في هذه الموضع مما كان له الأثر الكبير في الكشف عن الكثير من الأدلة الأثرية التي أماتت اللثام عن تاريخ وحضارة الأنباط.

ومن أهم هذه المكتشفات الأثرية ما كشف عنه من نقوش استدل منها على نوع كتابتهم ولغتهم وأسماء الأعلام الشائعة بينهم، وأسماء الآلهة التي عبادوها، وأسماء عدد من ملوكهم وملكاتهم، وبعض شعائرهم الدينية وغير ذلك من الأمور.

ويمكن أن نميز في نقوشهم النماذج التالية:

- ١ - نقوش تذكارية قصيرة كالتي وجدت في البراء والحجر وسيناء.
- ٢ - نقوش مدونة على نصب المقابر.

(١) سفر التكويرن: ٢٥ ، ٣ .
جورج علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ١٦ .

- ٣ - نقوش معمارية يذكر فيها اسم المبني والذي قام بتشييده وتاريخ البناء، وفي بعض الأحيان كان لا يكتب اسم المبني إذا كان بناء شهيراً.
- ٤ - نقوش وقفية يذكر فيها اسم واهب الوقف والشيء الموقوف واسم المعبد الذي قدم إليه الوقف.
- ٥ - نقوش تمثل توقيعات البنائين أو توقيعات تدل على الملكية.
- ٦ - نقوش تكريمية وهي نادرة عند الأنباط.

ومن الواضح أن هذه النقوش على كثرتها لا تتحدث عن أحداث تاريخية، ومن ثم تحصر الاستفادة منها في معرفة أسماء الأعلام والآلهة والمباني، وعلى ذلك يستعين المؤرخ بالمصادر الأثرية الأخرى كالمسكوكات وبقايا المقابر والتماثيل والرسوم والمصنوعات المختلفة^(١).

ثانياً: المصادر اليونانية والرومانية:

من أهم المؤرخين اليونان والرومان الذين كتبوا عن الأنباط نذكر كلًا من ديودور الصقلي واستрабو، ولقد اعتمد ديودور الصقلي فيما كتبه عن الأنباط على مصدر معاصر لأنباط في القرن الرابع قبل الميلاد وهو «هيرونيموس القارديائي Hieronymus of Cardia»، ويرجع الفضل لهذا المؤرخ في اماطة اللثام عن تاريخ الأنباط في هذه الفترة المبكرة. وأما استрабو فقد اعتمد في كتابته عن الأنباط على بعض المصادر والتي من أهمها ما كتبه صديقين له أحدهما هو «أثنودور الطرسوسي Athenodorus of Tarsus» الفيلسوف الرواقي الذي ولد وعاش في البتراء وخبر حياة أهلها وعاداتهم ومعتقداتهم. أما الآخر فهو إيليوس جالوس الذي قاد حملة إلى اليمن أيام أوكتفيان ورفاقه فيها استрабو^(٢).

ثالثاً: المصادر اليهودية:

أشار يوسفوس فلافيوس في كتابيه حروب اليهود، وآثار اليهود إلى

A. Musil, Arabia Deserta, P. 471.

(١) (٢) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحة ٥٠٣.

الكثير من المعلومات الخاصة بالأنباط وذلك من خلال علاقاتهم بالدولة المكانية سلماً كانت تلك العلاقة أم حرباً. وهو مت指控 كثيراً للمكانين، ولهذا فقد يكون حديثه عن الأنباط في لحظات صراعهم مع الدولة اليهودية مشمولاً بالهوى، وثمة جانب غير مأمون فيما يقصه من أخبار وأحداث، وذلك أنه ينصب من نفسه مفسراً للوقائع، فيحجب بتفسيره حقيقة الرواية التي قد تتحمل - لو رويت على وجهها - تفسيراً آخر أو تفسيرات أخرى، هذا إلى أنه كثيراً ما يقع في الخطأ والتضارب والتشویه، ويخلط الشائعة بالحقيقة التاريخية.

وقد اختلف المؤرخون في الموطن الأصلي للأنباط، فذهب فريق منهم إلى أنهم من أهل العراق، وأنهم قد هاجروا من العراق إلى (ادوم)، وذهب فريق آخر إلى أنهم عراقيون أتى بهم «نبوخذ نصر» في القرن السادس قبل الميلاد عندما اكتسح فلسطين، فأنزلهم «البتراء» ومجاوراتها، وذهب فريق ثالث إلى أنهم من جبل شمر في أواسط بلاد العرب، ثم سرعان ما نزحوا إلى العراق وظلوا بها، حتى دهمهم الأشوريون فأخرجوهم من هناك.

والثابت أن الأنباط الأوائل هم من سكان العراق، إذ ورد ذكرهم في آثار أشور منذ القرن السابع قبل الميلاد على أيام اشوريانبيال. وهذا يفسر كيف أن العرب عندما عرفوا الأنباط لأول مرة كان ذلك في بطائح العراق حيث يكثر الماء حتى قالوا: «وسمى نبط السواد نبطاً، لاستبانتهم المياه وسقيهم الأنهر». هذا وقد دخل الأنباط في نطاق العرب عن طريق اتخاذهم للثقافة الأرامية وأصنفاعهم لكتابة ولغة الأراميين، ويرجع ذلك إلى أنها كانت اللغة الشائعة في ذلك العصر، بل أنها أصبحت لغة المراسلات الدولية في الشرق الأدنى القديم منذ حوالي عام ٥٠٠ ق. م، كما أصبحت اللغة التي يستعملها سكان منطقة الهلال الخصيب - وكذا الأنباط - كما أنها سوف تصبح لغة المسيح وشعبه فيما بعد^(١).

(١) المرجع السابق. صفحات ٤٩٦ وما بعدها.

فعندهما بدأ الأنبط يعملون بالتجارة، ولم يعودوا نقلة لمتاجر غيرهم مقابل أجر معلوم اكتشفوا حاجتهم الماسة إلى الكتابة، وكانت اللغة السائدة في كل أنواع المعاملات والسفارات في بلاد الشرق الأدنى حينئذ هي الأرامية، فكتبوا بها، وظلوا يستعملون لغتهم العربية في حياتهم اليومية فيما بينهم. وقد كان اختيارهم للأرامية ضرورة حضارية ووسيلة عملية للتفاهم مع من حولهم ممن يستعملونها في مكاتبهم، وظللت هي لغة الكتابة بعد أن سقطت دولتهم لمدة مائتي سنة.

ويتبين من أقدم الأخبار الواردة في كتابات المؤرخين اليونان والرومان أن النبط كانوا في بادئ أمرهم اعراباً ورعاة ماشية.

ومع ذلك فإنهم - فيما يبدو - لم يقنعوا بتربية الإبل والماشية ولم يقتصروا على حياة الرعي، بل كانوا قد تميزوا عن كثير من البدو، بالإقبال على حياة التجارة شراءً وبيعاً، وعلى القيام بدور الوسطاء في دنيا البيع والشراء حتى عرفوا بالشراء^(١).

أما أقدم ما وصلنا من أخبار عن الأنبط فهو ما ذكره (ديودور الصقلي) من أن «انتيجونوس» الذي خلف الاسكندر في سوريا قد جرد حملة على النبط قوامها أربعة آلاف جندي من المشاة ليجبرهم على التحالف معه وتأييد مصالحه، وكان ذلك في عام ٣١٢ ق. م، وسار قائد هؤلاء الجنود وباغتهم عند الصخرة (أم البيرة) في منتصف الليل، فقتل من حاول المقاومة وأسر خلقاً منهم، وترك الجرحى، واستولى على ما وقعت عليه يده من البخور والتوابيل والفضة، ثم أمر قواته بالإسراع بالرجوع، فلما قطعت مسافة، أضناها التعب، واضطررت إلى الإستراحة في معسكر اقامته، وفيما كان الجنود ينعمون بنومهم، هاجمهم النبط وأعملوا فيهم السيف، فلم ينج من رجال الحملة إلا خمسون فارساً هربوا بسلام. وبعد هذا الإنقاص من جانب النبط عادوا إلى الصخرة ونظموا أمورهم، ثم كتبوا إلى الملك «انتيجونوس» كتاباً بالسريانية

(١) جواد علي، المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ١٠.

يلومون فيه قائد الحملة التي بعثها الملك على ما فعل بهم، ويعتذرون فيه عما بدر منهم، وقد أجابهم الملك بأن ما حدث إنما كان بغير علم منه، وأن قائده قد تصرف برأيه، ثم يختتم رسالته بإعلان صداقته لهم، بينما كان في الواقع الأمر، إنما يعد لجولة جديدة قد يهيء لها من الأسباب ما يكفل لها النجاح. وهكذا ما أن يمضي وقت طويل حتى يرسل إليهم ولده «ديمتريوس» على رأس حملة قوامها أربعة آلاف من الفرسان ومثلهم من المشاة. ويبدو أن الأنبط إنما كانوا يتوقعون الخيانة من «انتيوجونوس»، ومن ثم فقد كانوا في حيرة من أمرهم، فأمنوا أموالهم في موقع حصينة لا تصل إليها أيدي الطغاة الطامعين، ثم تفرقوا في الصحراء، وهكذا ما أن وصل «ديمتريوس» إلى الصخرة (أم البيارة) حتى هاجمتها بعنف وشراسة، إلا أن محاولته هذه لم يكتب لها نصيب من النجاح، ومن ثم فقد عاد بخفى حنين، قانعاً بما قدمه إليه الأنبط من هدايا^(١).

ومن المعروف أن البطالمة قد طمعوا في دولة الأنبط بسبب موقعها كمحطة تجارية هامة، ويسبب خيراتها الوفيرة، ومن ثم فقد اهتموا بالسيطرة على البحر الأحمر من أجل تأمين تجارتهم في بونت والهند. فلقد كانت سفن الهند تفرغ بضائعها في بلاد اليمن ومن هناك كانت تنقل شمالاً بطريق البصر الأحمر أو بالطريق البري إلى أيلة ثم إلى بترا. وفي عهد بطليموس الثاني (٢٨٣ - ٢٤٦ ق. م) ونتيجة لتحرش الأنبط بسفن البطالمة ومحاجمة سفنهم المتوجهة إلى مصر وأخذ ما فيها - قام بإنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية، وقد ألحقت هذه القوة خسائر فادحة باسطول النبط، وأدت سياسة بطليموس الرامية إلى السيطرة على البحر الأحمر، وإعادة فتح القناة القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر إلى الحاق خسائر فادحة بالنسبة للأنبط الذين كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارة القوافل التي كانت تمر

(١) المرجع السابق. صفحات ١٩ - ٢٠.
صالح العلي. محاضرات في تاريخ العرب. الجزء الأول. صفحة ٣٧.

ببلادهم، فأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة على السفن الذهابية أو الآتية من مصر^(١).

وفيما يتصل بملوك الأنباط، فيختلف المؤرخون حول ترتيبهم، ويزيد من صعوبة هذا الأمر وجود العديد من الفجوات التي لا يوجد ما يملأها، ومن أهم هؤلاء الملوك:

الحارث الأول:

هو أول ملوك الأنباط، عرف اسمه، وهو اسم كثير الشيوع في أسماء الأعلام، ولما كان هو أول من عرف اسمه دعي «ال الأول» تمييزاً له عن كل من جاء بعده من اسمه «الحارث». ولكنه ليس من الضروري أن يكون أول ملك نبطي.

وكان الحارث الأول معاصرأ لمؤسس الأسرة المكابية (أسرة حاكمة يهودية)، فلقد ورد ذكره في سفر المكابيين الذي أطلق عليه «ارياس» وذلك عندما حدث نزاع بين اليهود عام ١٦٩ ق.م حول من يتولى الكهانة العليا، وفر أحد المتنازعين إلى الحارثة. ولكنه طرده ربما لوجود اتفاق ما بين الحارث والأسرة المكابية.

ولم يصلنا أي شيء آخر بخصوص الحارث الأول، وإن كان هناك من الباحثين من يرى أن النتش الذي عثر عليه في الخلصه يخصه، وقد جاء في هذا النتش «هذا هو الموضع الذي أقامه عبد نثير و لحياة حارثة ملك النبط (نبطو)». ويتجه أصحاب هذا الرأي أن هذا النتش لا يتجاوز في تاريخه عام ١٥٠ ق. م^(٢).

M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic world, vol. I, P. 387. (١)

G. A. Cooke, Palmyra, p. 216. (٢)

سفر المكابيين (ثان): ٨، ٥.
جوراد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٢٢.
عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحة ٢٣٠.

الحارث الثاني :

وجاء بعد الحارث الأول الملك زيدال وذلك في حوالي عام ١٤٦ ق. م، ثم تلاه على العرش الملك الحارث الثاني الذي حكم حوالي عام ١١٠ ق. م، ودام حكمه حتى حوالي عام ٩٦ ق. م، وقد نعته المؤرخ يوسفوس بلقب «ملك» مما يدل على أن هذا اللقب صار لقباً رسمياً لحكام النبط في ذلك العهد.

وفيما يتصل بالأحوال التاريخية خلال هذه المرحلة يذكر المؤرخ يوسفوس في كتابه «آثار اليهود» عن بداية تضارب المصالح بين الأسرة المكابية والأنباط، وكانت الدولة السلوقية حينئذ قد أخذت تدخل مرحلة ضعف وتقهقر مما أغري ملك المكابيين بانهاز الفرصة للتوسيع وجعل هدفه مدينة غزة التي استغاث أهلها بالملك الحارث الثاني المجاور لهم، إلا أنه خيب آمالهم فلم يقدم يد العون لهم رغم وعده لهم بذلك مما مكن المكابيين من الاستيلاء على غزة، ولم يتركوها إلا لوجود حرب أهلية عندهم.

وأشار يوسفوس أيضاً إلى أن الملك الحارث الثاني قد انتهز فرصة ضعف الأوضاع في مصر وبلاد الشام، فهاجم بجنوده بعض هذه الأراضي، وغنم منها غنائم كثيرة، ف تكون بذلك لنفسه وللعرب صيتاً بعيداً.

وفي زمن الحارث الثاني، صدرت نقود نبطية، ولعله أول ملك نبطي يفعل ذلك، إذ لم تصقلنا نقود لملك قبله. وتحمل النقود المنسوبة إليه حرف «A» وهو الحرف الأول من اسمه «Arethas»، وقد وجدت حديثاً كمية غير قليلة من العملة البرونزية وفيها نماذج تحمل حرف (ح) بالأرامية إشارة إلى حارثة.

ولقد انتهى حكم الحارث الثاني عام ٩٥ ق. م، وخلفه على العرش النبطي ابنه عبادة الأول^(١).

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٢٥ - ٢٦.
فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤١٩.

عبادة الأول:

ورد نقش سجله رجل يدعى أصلح بن أصلح من أهل البتراء على غرفة للعبادة في الصخر في الممر الضيق المؤدي إلى البتراء وجاء فيه: «هذه هي القاعة التي أقامها أصلح بن أصلح لذى الشرى إله منبتوا لحياة عبادة ملك النبط في أول ستة من سني حكمه». وقد أرخ هذا النقش بعام ٩٥ ق. م. في إشارة أكيدة لتاريخ اعتلائه العرش.

ولقد استمر في عهده النزاع بين الأنباط والمكابين في عهد ملوكهم اسمكناذر جينوس، لأن اطماع جينوس التوسعية امتدت إلى جلعاد وموآب، واستطاع التغلب على عرب هاتين المنطقتين، ولذلك تصدى له عبادة في معركة عند جدارة (أم قيس) إلى الشرق من بحيرة طبرية، وإضطرته «هجانة» الأنباط على الوقوع في واد عميق، وكاد يفقد حياته. واضطر جينوس إلى التخلّي عن طموحه والتفرغ لضغوط أخرى بزغت في مكان آخر، فرد إلى ملك العرب ما كان استولى عليه من موآب وجلعاد وما فيهما من معاقل في مقابل أن يتمتنع عبادة عن مساعدة خصومه^(١).

رب إيل الأول:

هو ابن الحارث الثاني وأخو عبادة الأول، حكم في الفترة من ٨٨ - ٨٧ ق. م، لم يذكره يوسفوس بالاسم، ولذلك اضطربت المصادر بشأنه، ونسبت الأحداث التي تمت في عهده إلى عهد أخيه عبادة، غير أن المؤرخ أسطفانس البيزنطي ذكره لدى حديثه عن الحملة الثانية التي قام بها انطويونخوس الثاني عشر ضد العرب، وكانت هذه المعركة في أواخر عام ٨٨ ق. م، أو أوائل التي بعدها. وقد أحرز الأنباط في هذه المعركة نصراً مؤزراً، وقتل انطويونخوس وفر جيشه وهلك معظمهم جوعاً^(٢).

(١) المرجع السابق. نفس الموضع.

(٢) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحة ٥٠٩ هامش ٣.

الحارث الثالث:

هو ابن حارثة الثاني أيضاً وأنحو عبادة الأول إيل الأول، وهو يعد من أشهر الملوك المتقدمين من النبط. ويرى بعض الباحثين أنه حكم من عام 87 حتى عام 62 ق. م، وقد قطف ثمار الانتصار الذي حققه سلفه ضد أنطيوخس، إذ خلا جواره المباشر من تدخل السلوقيين مؤقتاً واستطاع أن يمضي قدماً في السياسة النبطية التوسعية. وقد اقتنى عهده بفتحات واسعة بدأت باستيلائه على دمشق، وعلى سهل البقاع، في حوالي عام 85 ق. م، وذلك بناء على دعوة تلقاها من سكان المدينة العربية - وكانت عاصمة السلوقيين وقتذاك - لإنقاذهم من هجوم «الأيتوريين» الذين كانوا يطمعون في الإستيلاء عليها، وأدخلها في جملة أملاكه، ولقبه أهلها (محب اليونان وحاميهم) لأنقذهم من غزو الأعراب لهم.

وهكذا أصبح (للحارث الثالث) مملكة واسعة الأطراف، عمل على تدعيمها ببناء جيش قوي، فبعد أن كان جيش النبط في بادئ الأمر مجرد جماعات غزو غير منظمة تهاجم عدوها وتبايعه على طريقة الأعراب ثم تراجع، حاول الحارث إدخال الكثير من الإصطلاحات عليه، واستعان بعدد كبير من اليونان في تدريب جيشه، وتكوين وحدات نظامية مدرية، استعان بها في تقوية مركزه حتى صار من أقوى ملوك النبط الذين حكموا حتى أيامه ومن ثم فقد بدأ الحارث يتدخل في شئون مملكة يهودا المتداعية، فغزا أرض يهودا، وفي معركة واحدة وقعت عند موضع (أويدا) انهار الجيش اليهودي وتشتت شمله ولم يبق أمام ملوكهم إلا طلب الصلح، وعاد النبط متصررين إلى ديارهم. كذلك عمل (الحارث الثالث) على مجاهدة الرومان ولكنهم تغلبوا عليه، ويرجع ذلك إلى حيارة الرومان لجيوش منظمة مدرية.^(١).

ودعت الظروف السياسية الحارث مرة أخرى للتدخل في شئون مملكة

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات . ٢٧١ - ٢٧ .

يهودا، أبان الخلاف الذي دب بين ولدي «اسكندر جينوس» (ارسطوبولس وهركانوس)، وانقسام اليهود إلى فريقين، الصدقيون ورؤيذون «أرسطوبولس» والقريسيون ورؤيذون «هركانوس» الذي فر إلى البراء، لعله يجد الحمى عند الحارث، فضلاً عن إعادة الناج إليه وتشييت ملكه، على أن يعيد للحارث في مقابل ذلك، المدن الأخرى عشر التي كان قد أخذها أبوه من العرب، ويقبل الحارث آملاً في أن يوسع أملاكه على حساب يهودا، إن لم يقدر له أن يوجه إليها الضربة القاضية. وهكذا يوجه الحارث جيشاً قوامه خمسون ألف رجل لمحاجمة «ارسطوبولس» الذي سرعان ما يفر إلى القدس بعد هزيمة منكرة، فيتابعه الحارث إلى المدينة المقدسة، ويکاد يستولي عليها، لولا قيام الرومان بالهجوم على دمشق، ثم ارسال حملة عسكرية إلى القدس نفسها للتتدخل في الزراع القائم بها وقتذاك، ولمنع الأنباط من الاستيلاء عليها. وأدرك الحارث أن جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الرومان المدرية، المنظمة والمسلحة تسليحاً جيداً حديثاً بالنسبة إلى أسلحة النبط، ففك الحصار وتراجع، إلا أن «ارسطوبولس» الذي نجح في اكتساب ثقة قائد الحملة الرومانية سرعان ما تعقب الأنباط وهم في طريق عودتهم، فانتصر على الحارث وقتل ستة آلاف من أتباعه.

وتعقدت الأمور مرة ثانية بين الرومان والأنباط، فهدد الرومان النبط بالزحف عليهم وتخريب بلادهم، ووجد الحارث أنه من المستحيل عليه الثبات أمامهم، وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن يدفع الحارث جزية للروماني. واعتبر «بومبي» حاكم الرومان أن ذلك إنما هو خضوع من الأنباط للروماني، ومن ثم فقد وضع صورة الحارث في موكب نصره، كما أمر القائد الروماني أن تضرب النقود عليها صورة الحارث راكعاً على ركبتيه إلى جانب جمل وهو يقدم غصناً في خضوع إلى القائد الروماني ، تعبيراً عن استسلامه. أما الأنباط فلعلهم وجدوا أن دفع بعض الأموال لا يخدش وجه سيادتهم واستقلالهم الذاتي ، خصوصاً وأن استيلاء الرومان على كل سوريا قد وضح لهم مدى قدرتهم على المبادرة بالتحدي . وكانت هذه الأحداث هي خاتمة

حياة الحارث الثالث الذي وافته المنية في عام ٦٢ ق.م.^(١)

الملك عبادة الثاني :

وحكם بعد(الحارث الثالث) ابنه الملك (عبادة الثاني) الذي حكم في الفترة ٤٧ - ٦٢ ق. م على رأي، وفي الفترة من ٦٢ - ٦٠ ق. م على رأي آخر. ولدينا من عهده نقد من الفضة ضرب بأمره في السنة الثانية أو الثالثة من حكمه وهو من فئة الـ (دراخما) وقد صور عليه وجه الملك حليقاً، وشعر رأسه قصيراً^(٢).

مالك الأول :

حكم الملك (مالك الأول) بعد (عبادة الثاني) وفي عهده شارك النبط يوليوس قيصر في حصاره لمدينة الاسكندرية عام ٤٧ ق. م ، فأمدوه بقوة من جيوشهم. ثم حدث بعد ذلك أن تدهورت العلاقات بين الرومان والنبط، وربما يرجع ذلك إلى امتناع الأنباط عن دفع الجزية للروماني، أو لأن النبط قد وقفوا إلى جانب الفرس عندما أرادوا الاستيلاء على فلسطين. وأيا كان السبب فإن الروم وبعد انتصارهم على الفرس، بدأوا يتجهون نحو النبط وأجبروهم على دفع جزية كبيرة، ثم زاد الموقف تعقيداً عندما منح (مارك أنطونيو) وهو الذي عهد إليه الرومان بتولى أمور الشرق)، جزءاً كبيراً من فينيقيا وسوريا، فضلاً عن بلاد الأنباط، إلى «كليوباترا» صاحبة الحق في جزية الرومان من الأنباط، غير أن النبط قد امتنعوا عن دفع الجزية لملك مصر، ومن ثم فقد طلبت كليوباترا من مارك أنطونيو الإسراع في تأديب الأنباط. وفي نفس الوقت دفعت كليوباترا بملك اليهود (ميرودوس) لمحاربة الأنباط، وكانت تهدف من وراء ذلك اضعاف مركز كل من ملك اليهود والأنباط حتى تتمكن

Josephus, The Jewish War, 302.

(١)

C A H., IX, P. 400.

جواد علي. المرجع السابق. صفحات ٣٠ - ٣١.

(٢) جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحة ٨٨.

منهما، وتصبح سيدة بلاد العرب. وبادر هيرودوس بمحاربة النبط، فالتقى بهم عند (اللد) وانتصر عليهم، ثم التحتم بهم في (قنا) في البقاع، وكاد يتغلب عليهم، إلا أن موازين النصر سرعان ما تغيرت إلى جانب النبط، فقتلوا عدداً كبيراً منهم وأسرعوا آخرين، وفر «هيرودوس» إلى القدس^(١).

وفي القدس أخذ (هيرودوس) يحرض قومه على الإنقاص من العرب. والأخذ بالثأر، ولا سيما أن الأنباط أخذوا في الهجوم على مدنه، فنشبت سلسلة من الحروب بين الطرفين، كلفت كل منها خسائر كبيرة.

ويزعم المؤرخ (يوسفوس) أن النصر كان في الخاتمة في جانب اليهود، واضطرب النبط بعد ذلك إلى دفع الجزية إلى (هيرودوس) وعقدوا صلحًا معه، ولم يخالفه الأنباط بعد ذلك. وليس هناك شك في أن قوة هيرودوس لم تكن هي في الحقيقة التي جعلت الأنباط يقبلون بمصالحة اليهود أو دفع الجزية لهم، إنما كانت قوة الرومان وراء تلك الإنتصارات التي حققها هيرودوس نتيجة ما تقدمه له من مساعدات عسكرية فعالة^(٢).

عبادة الثالث:

يصفه كل من يوسفوس واسترابو بالكسل وتراثي الهمة، ويأنه لم يكن يعي الشؤون العامة، فضلاً عن الشؤون العسكرية أي اهتمام. وفي نفس الوقت فقد أسهبو في مقارنته بوزيره الشاب النشط « صالح » أو « سيلوس » Syllaeus، وبذلك تضاءلت شخصية عبادة الثاني بجوار وزيره صالح، وتتصدرت الأحداث شخصية الوزير صالح الذي كان يلقب في النقوش « أخا الملك » أي اليد اليمنى للملك.

وعلى الرغم من ضآلته الدور الذي ينسحب إلى عبادة فهناك نقشاً يستشف منه أنه قد أله في عهد خليفته، وليس لهذا التأليه من سبب إلا إذا كان خليفته الذي قام بهذا العمل كان يهدف من وراء ذلك إلى جعل هذا التأليه سنة

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٣١٢ - ٣١١.

Josephus, op. cit., I. XVIII, 4.

(٢)

متبعه، وبذلك يضفي في نفوس أهل المملكة هيبة جديدة لملك الأنباط ليكتسب لنفسه تلك المكانة بعد موته أيضاً، وقد يكون من أسباب ذلك أيضاً إضفاء نوع من التقديس والاحترام على شخص عبادة بسبب قوة وزير صالح الذي كان أشبه بالوصي عليه.

ومن أهم الأحداث التي حديث في عهد هذا الملك الحملة الرومانية على بلاد العرب الجنوبية عام ٢٥ - ٢٤ ق. م، وكانت تهدف إلى الإفادة من مصادر الثروة السامية، ونظراً لمرور هذه الحملة في أراضي تحت سيطرة الأنباط أو موالية لهم، وأن دليلاً للحملة كان الوزير صالح، فقد ارتبطت هذه الحملة بالأنباط. وقد فشلت الحملة في تحقيق أهدافها فشلاً ذريعاً، وحاول استرابو أن يضع كل مسؤولية الفشل على عاتق الوزير صالح واتهمه بالمكر والخداع وأنه قد غرر بالجيش، إلا أنه قد بالغ كثيراً في القاء التهم على الوزير صالح في محاولاته المستمرة في تبرير فشل الحملة.

ومن الناحية الداخلية، فقد أصدر عبادة الثاني نوعين من النقد أولهما صدر في أوائل حكمه ويسمى النقد البطلمي، وقد صور على أحد وجهيه رأس عبادة وعلى الثاني رسم صقر، وثانيهما يسمى النقد اليوناني وقد صدر بين السنة العاشرة والعشرين من حكمه، وقد صور على أحد وجهيه رأس الملك وعلى الوجه الثاني صورة رأس الملك والملكة، وكتب على جميع النقود عبارة «عبادة الملك، ملك الأنباط»^(١).

الحارث الرابع (٩ ق. م - ٤٠ م):

ورد اسمه في عدد من الكتابات النبطية، وقد حمل لقب «رحم عم» أي المحب لأمته، وقد قام هذا الملك بتزويد القائد الروماني (واروس) بقوة من المشاة والفرسان حين زحف على يهودا، وقد فعل ذلك انتقاماً من اليهود وتقرباً إلى الرومان. ثم حدث بعد ذلك أن اصطدم النبط باليهود وذلك نتيجة قيام هيرودوس بطلاق ابنة الحارث الرابع، وكان قد تزوجها منذ حين،

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٢٣.

وبسبب اختلافهما أيضاً على حدود المنطقة.

وانتهت الحروب بين الطرفين بانتصار الحارت على خصميه انتصاراً كبيراً في جلعاد وتشتيت شمل جيوشه، فاستجذ هيرودوس بسيده وحاميه قيسار الروم، الذي غضب وكتب إلى عامله في سوريا يحثه على السير لمحاربة الحارت والقبض عليه حياً وارساله مكلاً بالسلسل إلى روما، أو يبعث برأسه إليه إن قتله. وبينما كان العامل يهم بالزحف على مملكة النبط جاءته الأخبار بوفاة القيسار فتوقف عن الحرب، وساء موقف هيرودوس ونحاه الرومان عن عرشه^(١).

ويستدل من رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنث أن دمشق كانت تتبع الحارت ملك الأبطاط، وقد كان بولس في دمشق حوالي عام ٤٠ م وهي آخر سنة في حكم حارثة. وفي ذلك يقول: «كان الحاكم بدمشق تحت أمرة ارتاس (الحارث) الملك»، ويدل ذلك على عودة دمشق إلى الدولة النبطية وربما كان ذلك حوالي عام ٣٧ م ابان الحرب التي استعر أوارها بين الحارت وهيرودوس، وربما بقيت تحت سيادة الأبطاط في مقابل مبلغ يدفعونه للرومان.

ويتميز عهد الحارت الرابع بحركة عمرانية واسعة تركزت حول القسم الجنوبي من المملكة، فتحولت المنشآت النبطية في مدائن صالح (الحجر) إلى مدينة كبيرة، وظهر ذلك أيضاً في المقابر المنحوتة في الصخر والتي تضاهي في فخامتها المقابر المنحوتة في الصخور في البراء نفسها، ويحمل أكثرها نقوشاً تشير إلى أنها قد شيدت في النصف الأول من القرن الأول الميلادي، ويحمل أقدمها نقشاً يشير إلى السنة الأولى بعد الميلاد. ومن الجدير باللحظة أن معظم هذه المقابر كان خاصاً بالضباط العسكريين من ذوي الرتب المختلفة، وربما يشير ذلك إلى أن هذه المنطقة (مدائن صالح)

^(١) Josephus, Antiquities of the Jews, V. 18. 1.

جoad علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٤٣ - ٤٤.

قد جعلها الحارث منطقة عسكرية لحصانتها، وأن تكون كدرع أمان للدولة النبطية في المستقبل تحميها من أطماع الرومان.

ويضاف إلى ذلك، أن الأنابط كانوا قد خسروا كثيراً من توسيعهم التجاري بعد أن أصبح البحر الأحمر مجالاً لنشاط السفن الرومانية، ومعنى ذلك أنهم لم يخسروا التجارة البحرية وحسب، بل تضاءلت حصتهم من التجارة البرية، وأخذ طريق البتراء - غزة تكاد تصبح مهجورة وعلى ذلك، فقد كان هذا الاتجاه نحو الجنوب كمحاولة لإنعاش الوضع التجاري وتعويض الخسائر. ودللت النقوش التي اكتشفت في الجوف عند الطرف الجنوبي لهذا الوادي على كثرة الرتب العسكرية، ويدل هذا أيضاً على أن الحارث كان يحاول تقوية هذه المنطقة ليتم لتجارته الوصول من خلالها إلى بصرى، دون حاجة إلى المرور بالمنطقة الواقعة شرق الأردن التي قد تفك روما ذات يوم في ضمها إلى الولاية السورية.

ولعل التخوف من المنافسة الخارجية في النشاط التجاري هو الذي دفع الحارث إلى الاهتمام بالزراعة، ويتبين ذلك في زيادة حركة الإعمار في مدن النقب مثل عبدة وكربن ونصستان. وكان الري هو العامل الرئيسي والضروري لهذا الإعمار، ولقد كشف عن بعض الآثار التي تشير إلى وجود نظام متقدم لحفظ مياه المطر وتسييرها إلى الأراضي الصالحة للزراعة، ولم يقتصر الإهتمام بالإعمار على المناطق الجنوبية، بل امتد كذلك إلى المناطق الشمالية، فرأينا آثاره في بصرى شمالاً وهي تسيطر على الطرق الداخلية من وادي سرحان، ابتداء من الجوف وباتجاه دمشق.

وحظيت البتراء بنصيب كبير من العمران في عهد الحارث، فقد شيد في عهده أكبر أثرين من آثار تلك المدينة وهو المسرح المحفور في الصخر، والمعبد القائم في وسط المدينة والذي يعرفاليوم باسم قصر البنت^(١).

ولقد خلد الحارث أيام حكمه بتوالي الإصدارات النقدية، حتى لا تكاد

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٤٢٨ - ٤٢٩.

سنة من سنوات حكمه تمضي دون اصدار نقد جديد، ولقد سجل على بعض القطع النقدية بعض الأحداث التي تمت في عهده ومنها تخليه للحركة المعمارية التي أجرتها في مداشر صالح، ومنها كذلك اصداراته في العام العشرين من حكمه نقداً تذكارياً لزواجه من شقيقة التي أصبحت ملكة بعد وفاة زوجة سابقة له. كما حملت بعض النقود أسماء بعض أبنائه وبناته. ويلاحظ أن معظم النقود التي أصدرها قد كتب عليها «الحارث ملك النبط، محب أمته».

ومن ناحية أخرى، فلقد عثر على العديد من النقوش التذكارية التي أقامها أفراد من الشعب النبطي لملوكهم الحارث، وقد أرخت هذه النقوش بسنوات حكمه، وكتب فيها «محب أمته» ويشير انتشار هذه النقوش في أماكن متعددة حتى وصل بعضها إلى إيطاليا إلى اتساع الآفاق التي كان يؤمها الأنباط وعلى امتداد تأثيرهم التجاري والحضاري إلى مناطق بعيدة.

ومن هذه النقوش التذكارية نقشاً يتميز بقيمة التاريخية وقد عثر عليه في موقع مادبا وجاء فيه «هذا هو القبر ومعه الهرمان المبنيان فوقه الذي أقامه عبد عبودت من أجل أنايبيل الستريج (حاكم المقاطعة) والده، ومن أجل أنايبيل رئيس عسكري لحيطو وعبرتا في مقر حكمهما الذي شغله فترتین أن ستة وثلاثين عاماً في مجموعهما، في أيام الحارث ملك الأنباط، محب أمته». ولقد تم انشاء ذلك الضريح في السنة السادسة والأربعين من حكم الحارث أي عام ٣٧ م. ويلاحظ أن لحيطو هي لهيت التي ذكرت في سفر إشعيا، وأما عبرتا فتعني المخاضة أو المعبر ولعلها هي المخاضة الموجودة على نهر عرنون في الطريق إلى الكرك.

مالك الثاني (٤٠ - ٧٠ م)؛

هو ابن الحارث الرابع، ويلاحظ أن البقايا الأثرية والتاريخية المتبقية من عهده قليلة وإن كان مرجحاً أنه قد تابع سياسة أبيه في الإهتمام بإعمار المناطق الجنوبية من الدولة، ولقد توقف اصدار النقد في السنوات الست

الأخيرة من أيامه، وفي الوقت نفسه استأنفت دمشق اصدار نقدتها مما دعى الباحثين إلى الإعتقد بأن الأنباط قد فقدوا دمشق في عهده، ولقد جاء بعده على العرش النبطي ابنه رب إيل الثاني^(١).

رب إيل الثاني (١٠١ - ٧٠ م):

كان صغيراً حين تولى العرش وهذا عينت أمه وصية عليه، وهي ظهرت على النقود التي أصدرت في سنوات حكمه الأولى، وبعد أن تزوج أصبحت زوجته «جميلة» هي التي تصور على ما يصدره من نقود.

وكانت فترة حكم رب إيل قليلة الأحداث ولهذا لم تتر انتباه مؤرخى الدولة الرومانية. وهناك مجموعة من المخرّبات تشير إلى قيام ثورة في بداية حكمه، وما يلفت النظر أن رب إيل كان يقضي أكثر وقته في بصرى وتلك كانت بداية غروب مجد البتارء السياسية وإن بقيت بمجدها التجاري.

ولقد اتخذ رب إيل لقباً لافتاً للنظر وقد ألحقه باسمه حيثما ذكر وهو «واهب الحياة والخلاص لأمته».^(٢)

مالك الثالث (١٠٦ - ٩٣ م):

آخر ملك نعرفه من ملوك الأنباط هو مالك الثالث، وفي عهده قضى تراجان قيسار الروم على استقلال مملكة الأنباط وجعلها تحت حكم حاكم سوريا، وذلك في عام ١٠٦ م وأطلق عليها اسم (المقاطعة العربية) ونقل مقر الحكم من البتارء إلى بصرى، فتضاءل بذلك شأن العاصمة القديمة وصارت مجرد موضع قليل الشأن. وكانت بصرى حتى ذلك الوقت موقعاً غير ذي أهمية، فأمر الإمبراطور تراجان بإعادة تأسيسها، ويشهد بذلك لقبها الرسمي

N. Glueck, The Story of Nabatoeans, P. 542.

(١) قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٤٦.

(٢) جواد علي. المرجع السابق. صفحة ٤٨.
فيليپ حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٢٤.

المنقوش على عملتها وهو «بصري الجديدة التراجانية». وحين أصبحت بصري العاصمة بدأ بذلك تقويم جديد اسمه تقويم الولاية، وأصبحت بصري قاعدة الفيلق الروماني الثالث ووضعت الحاميات الرومانية على طول الطرق الرئيسية التي تكون ما يسمى بالحد الغربي، وكانت الطريق الجديدة التي بناها تراجان تصل بين سوريا والبحر الأحمر^(١).

النشاط الاقتصادي :

من أهم أوجه النشاط الاقتصادي عند الأنماط النشاط التجاري، وقد أوضحنا فيما سبق الجهود التي بذلها ملوك الأنماط في سبيل توسيع رقعة نشاطهم التجاري، ولقد كان النشاط التجاري من الأسباب التي أدت إلى بروز مظاهر كثيرة في الحياة النبطية وفي مقدمتها العناية بتربية الجمال وتوفير المؤونة بها والتزود بكل الأدوات التي تساعد على تجهيز البضائع وترتيبها وتصنيفها وبناء السفن والتدريب على ركوب البحر وتوفير كل ما تطلبه المواني من معدات، وتخصيص أماكن للتفریغ والتخزين. وأدى النشاط التجاري كذلك إلى حركة صناعية وتعدينية وزراعية ورعوية، فلم يكتف الأنماط باستقبال السلع الخارجية وتسيويقها.

ومن المواد الهامة التي كانوا يتاجرون بها القار، وكانوا يستخرجونه من البحر الميت، وللقار فوائد متعددة منها استخدامه في تقوية المواد والأدوات، أو أن يتخذ كعنصر في التغذية، كما استخدمه المصريون في تلوين المعادن وكذلك في التحنيط.

وكانت التجارة الخارجية هي عماد ثورة الأنماط وكانت تعتمد على السلع القادمة من جنوب بلاد العرب، إذ كانت تلك السلع تباع بأثمان عالية وهي مقدمتها البخور الذي كان يمثل مادة ضرورية في حياة الناس وعبادتهم،

N. Glueck, op. cit., p. 543.

(١)

فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٣٢٣ - ٣٢٤.

كما كان هو والمر يستعملان في تركيب العقاقير، وكان المر وحده يستخدم في صناعة مواد التجميل والعطور وفي شؤون الدفن^(١).

ولا ينزع هاتين السلعتين من السلع المحلية سوى البلسم والقار ولقد تحدثنا عن أهمية القار، أما البلسم فكان يستخدم في الأمور الطبية، ولقد أشار إليه ديودور فقال: «في أحد الوديان ينمو النبات المسمى بالبلسم وهو يعطي دخل كبير، إذ لا يوجد في أي مكان آخر من العالم المعمور، واستعماله كعقار مهم جداً لدى الأطباء». وبجانبها يرجح كذلك أن صناعة الخزف كانت تدخل في نطاق التجارة الخارجية.

وقد مارس الأنابط النشاط الصناعي ومنه سك العملة من البرونز والفضة، كما صنعوا بعض التماثيل الصغيرة والحلبي والأسلحة وكذلك الأواني المعدنية المستخدمة في الأدوات المنزلية، كما ظهرت صناعات أخرى مثل النسج وصناعة الأحذية والأدوات الموسيقية.

وcame الزراعة بدور كبير في نشاط الأنابط الاقتصادي، وتدل السدود التي أقاموها والقنوات والمجاري التي شقوها وخزانات المياه التي شيدوها على اهتمامهم بالنشاط الزراعي. ويرجع أنهم مارسوا زراعة شتى أنواع الحبوب وأشجار الفواكه وبخاصة العنبر، وتشير رسومهم إلى أهمية العنبر والرمان كعنصر زخرفي. وهكذا بلغ الأنابط مستوى اقتصادي رفيع بالتضافر بين أنواع النشاط الاقتصادي المتعددة من تجارة وصناعة وزراعة^(٢).

نظام الحكم :

أما عن تنظيم الدولة وكيفيتها عند النبط، فمن الواضح أن الملك كان بالطبع رئيس الدولة، وكان الحكم متوارثاً بداخل الأسرة الملكية، وحسب المعلومات المتاحة لنا حالياً فإن الحكم الملكي لم يخرج عن أسرة واحدة.

(١) جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحات ٨٥ - ٨٩.
سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٤١.
(٢) المرجع السابق. نفس الموضوع.

وهناك ما يستشف منه أن الأسرة المالكة كانت حسنة التماسك، ولم تكتف بذلك بل أصبغت على ملكها صفة الألوهية لتبعده عنها كل مدعى طامع، وأحاطت الحاكم من تلك الأسرة بروابط الأخوة، وفي ذلك بالإضافة إلى معنى المشاركة في المشورة وبعض المسؤولية رغبة في اضفاء نوع من وحدة الحكم، فزوجة الملك أخت له وصورتها تظهر مع صورته على النقود، وزير الملك آخر له وكليهما بهذه الأخوة يشاركا المسؤولية أو جانباً منها، ولم تكن هذه أخوة بالدم ولكنها اشارة إلى عمق المشاركة.

ويبدو مرجحاً أن الوزير كان مسؤولاً عن السفارات في الخارج، واجراء المفاوضات وعقد الاتفاقيات وما شابه ذلك.

وكانت البلاد مقسمة إلى ولايات لكل ولاية حاكم يسمى في النقوش سترنج، وتدرجت الوظائف الإدارية في الدولة سواء كانت سياسية أو دينية أو قضائية⁽¹⁾.

الحياة الاجتماعية :

كانت العائلة هي الوحدة المهمة في المجتمع النبطي، وكانت شديدة التماسك وتقوم على روابط قوية بين أفرادها والتزاوج فيما بينهم، ويرى الباحثون أن المرأة النبطية كانت تتمتع بمنزلة مرموقة في المجتمع، وأنها كانت تعامل باحترام وأنها كانت مصونة الحقوق، ويستدللون على ذلك بمكانة ربة الخصب السامية بين الأرباب، وأنها كانت تتفوق على قرينها زيوس، وكذلك بوجود صورة الملكة إلى جانب صورة الملك على العملة النبطية ومعها لقيها، كما كان للمرأة النبطية الحق في الوراثة والتملك والتصرف في أملاكها.

الفكر الديني :

كان لإنقال الأنبياط من حياة بدوية أو شبه بدوية إلى حياة مستقرة

(1) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٦٩ وما بعدها.

العامل الأول في تطور فكرهم الديني ، فقد كان الإستقرار يعني خلق أوضاع جديدة لا بد أن تؤثر في كثير من المفاهيم الدينية التي صاحبت حياة البداوة . إذ كان أول ما يعنى الإستقرار ظهور الحاجة إلى وجود معبد بما يتضمنه من تطور معماري ، كما أثرت الحياة الزراعية المستقرة على تطور فكرهم الديني كذلك .

ومن النواحي المؤثرة في هذا التطور اتصال الأنماط بالحضارات الأخرى المجاورة لهم أو التي كانت لهم بها صلات سياسية أو تجارية .

ومن المرجح أن الأنماط قد حملوا معهم من مواطنهم الأولى أرباباً معينة هي اللات والعزى ومناة ذو الشرى وهذه المعبودات تناسب وعيشة البداوة .

وكانت اللات وهي تمثل في الأرجح الشمس ، وهي عندهم أما للأرباب ، وقد أقيمت لها معابد كثيرة في الواقع النبطية ، ولكن يلاحظ أن اسمها قليل الورود في نقوش البتراء حيث كانت ربة بصرى وصلخد حيث كان عبادها المخلصون من بني روجو .

ولا تختل العزى ومناة دوراً بارزاً بين الأرباب النبطية وخاصة بالنسبة الذي الشرى الرب الأكبر الذي حمل طبيعة بعض الآلهة السامية في دور مبكر فأصبح يناظر كل من بعل وهدد ، ثم أصبح فيما بعد صنوا لزيوس ، وكان في البدء يعبد على شكل حجر مربع أو مستطيل ، وكانت مكانته كبيرة في البتراء ، ونظراً لكونه إليها شمسيّاً فقد كانت أنصاته ورموزه موجهة نحو المشرق .

وكان تقديم القرابين من أهم الشعائر لدى الأنماط مثلهم في ذلك مثل الشعوب السامية ، وكان ذلك بالضحايا الحيوانية التي يسفع دمها على مذبح أو على رأس النصب ، وليس لدى الأنماط ما يشير إلى وجود التضحية البشرية . وتتجدر الإشارة إن القرابين المقدمة في المعابد لم تكن تحرق كلها بل كان معظمها يأكله موظفي المعبد والعباد في غرفة خاصة بالولائم المقدمة حيث يجتمع الكهان والحجاج إلى المعبد في المواسم والأعياد الدينية حيث

يجلسون في هذه الغرف ويأكلون هذه الوجبة التي يطلق عليها «الوجبة التعبدية» وكانت لها أهميتها في العبادات لدى الأنباط، لأنها تعني المشاركة بين الآلهة وعباده.

وقد تم الكشف عن معابد نبطية أهمها معبد خربة التنور ومعبد وادي رم ومعبد ذيبان، وتشترك جميع المعابد في عناصر رئيسية هي المذبح ووجود تماثيل للأرباب وأنها تتجه نحو الشرق.

وكان هناك جهاز ديني يقوم بالاشراف على العبادة في المعابد وتنظيم الأعياد المرتبطة بالقصول وإعداد الجنائز وطقسos الدفن، وكان على رأس هذا الجهاز الكاهن الأكبر^(١).

الفن النبطي

تميز الفن المعماري النبطي بقدرته على التأثير بالفنون المعمارية للحضارات المجاورة له، ففيه المظاهر المصرية والإيرانية واليونانية، ولكن في صورته العامة يأخذ الطابع النبطي، ويتجلّى بشكل واضح في القبور المحفورة في الصخر وفي المعابد.

وفيما يتصل بالمقابر فكان الصانع يبدأ بنحتها في أعلى الهضبة فيجعل سطحها أملس ثم ينحو الواجهة ثم يتم العمل في الأجزاء الداخلية لها، وكانت الأعمدة في الغالب عارية من الزخرفة في تيجانها، وإن كانت في بعض الأحيان تزيين برؤوس بشرية، وكانت الرموز المصاحبة لهذه الأضرحة تكاد لا تتغير فهي الصقر والقناع الأدumi، أما في داخل غرفة الدفن فتكاد تكون الزخرفة معدومة.

ويختلف الفن المعماري في المعابد عنه في القبور من حيث أن المعابد لا تتحت أحياناً في الصخر بل تبني بالحجارة.

(١) المرجع السابق. نفس الموضوع.

سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ١٤٩.

وفيما يتصل بالعمارة المدنية فمن أهمها المعبد الرئيسي في البتاء وقد تمثلت فيه قدرة المعماري النبطي على اتقان النحت والبناء بالحجر.

وبرع الفنان النبطي في نحت التماثيل ومنها التماثيل الأدمية الصغيرة المفردة والتماثيل الأدمية النصفية وتماثيل الحيوانات كالجمال والقرود وغيرها.

وبالاضافة إلى صناعة التماثيل فقد وجدت العديد من الرسوم سواء كانت رسوم جدارية أو رسوم على الخزف^(١).

(١) المرجع السابق. نفس الموضع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سادساً: تدمر

تقع مدينة تدمر على مسافة ١٠٠ كيلو متراً من حمص، ١٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من دمشق، في منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات، ومن ثم فقد كانت موقعاً هاماً على الطريق التجاري بين العراق والشام، بل كانت نقطة التقائه التجارة القادمة من أسواق العراق، وما يتصل بها من أسواق في إيران والهند والخليج والعربية الشرقية، وبين تلك التي على البحر المتوسط، وبخاصة في الشام ومصر، فضلاً عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال أفريقية، والعربية الجنوبية والهند. وهكذا أصبحت (تدمر) ملتقى جميع القوافل، وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد، وعام ٢٧٣ م، ومن ثم فقد وجد في نقوشها عبارات (زعيم القافلة) و(زعيم السوق) باعتبار أن المشار إليه من زعماء المواطنين^(١).

والإسم اليوناني للمدينة هو (باليمنيا Palmyra) وهو مشتق من لفظة Palma اللاتينية ومعناها (نخل)، ويرى بعض الباحثين أن الإسكندر الأكبر لما تغلب عليها أطلق عليها Palmyra أي مدينة النخل، وذلك لما يكتنفها من غابات النخل العظيمة، فعرفت عند اليونان واللاتين منذ ذلك الحين بهذا الأسم. بينما ذهب فريق آخر إلى أن Palmyra هي ترجمة لكلمة (تمار) (تamar) (تمر) العبرانية ومعناها (نخلة)، وهي في الأصل اسم موضع في الجنوب الشرقي من يهوذا ورد ذكره في (سفر حزقيال). ويرى علماء

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحة ٥٣.

التوراة إنه الموضع الذي بناه سليمان والمذكور في (أخبار الأيام الأول)، ويرى البعض أن الرأي السابق خاطئاً، لأن اسم المدينة يرجع ظهره للمرة الأولى إلى أيام الملك الأشوري «تجلات بلاسر» الأول (١١١٦ - ١٠٩٠ ق. م) أي قبل مولد سليمان نفسه، وبفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون. وربما تكون الشهرة التي اكتسبتها مدينة تدمر في أيام كتبة أسفار (أخبار الأيام) هي التي حملتهم على إضافتها إلى أعمال سليمان كدليل على شهرته ومدى بلوغ ملوكه في أيامه^(١).

وذهب المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) إلى أن النبي سليمان قد شيد مدينة تدمر. ويعد المؤرخ (بلينيوس) أول كاتب كلاسيكي تعرض لمدينة تدمر، فذكر أنها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز، وأرضها خصبة وبها ينابيع وعيون، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف.

وأهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسة تاريخ هذه المدينة مجموعات الكتابات التدمرية التي درسها المستشرقون وترجموها إلى لغاتهم، وهي الaramية واليونانية ثم اللاتينية والعبرانية، ونشرت في كتب خاصة، كذلك هناك مؤلفات المؤرخين اليونان والروماني ومن بينهم بلينيوس، ثم هناك كتابات أخرى ذات قيمة ثانوية ذكرت تدمر عرضاً لوجود مناسبة دعت إلى ذلك مثل سجلات المجتمع الكنيسية والتلמוד^(٢).

وأهل تدمر كانوا عرباً - شأنهم في ذلك شأن الأنباط في البتراء - بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصلية في كتاباتهم. كما أن أسماء الأصنام عندهم عربية، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء الأعلام، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء أنهم من القبائل العربية التي أخذت تستولي على المناطق الخصبة في شرق الأردن، عقب إنهايار الدولة البابلية الحديثة،

(١) حسن ظاظا. المرجع السابق. صفحة ١١٥.

فيليپ حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٣٣.

(٢) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٧٧ - ٧٨.

وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام ٥٣٩ ق. م، ثم أخذت تستعمل الآرامية - وهي لغة الكتابة والثقافة في غرب الفرات وقتذاك - لغة لها. أما الثقافة التدمرية، فكانت مزيجاً من الثقافات العربية والأرامية واليونانية واللاتينية، ذلك لأن تدمر قد نمت في ظل حضارة الaramيين واتخذت لغتهم، فضلاً عن المبادئ الأساسية في تفكيرهم الثقافي والديني، هذا في الوقت الذي أخذت فيه كثيراً عن دنيا اليونان والرومان.

وكان أهل تدمر خليطاً من تجار ومزارعين، أما أطرافها فكأنوا أعراباً ورعاة. وكان في تدمر جاليات يونانية ورومانية، أقامت فيها وفضلت السكنى بها، كما كانت هناك جاليات يهودية نزحت إليها ربما قبل سقوط القدس في أيدي الرومان، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا في تهويد بعض السكان^(١).

هذا وقد أخذت تدمر في الإزدهار والقوة منذ النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، وذلك بسبب الأهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتي الفرس والروم المتنافستين، وقد حاول «مارك انطونيو» عام ٤١ ق. م الإستيلاء على خزائن المدينة ففشل، وإن أصابها منه ضرر كبير، غير أن مدينة مهمة كتدمر لها ثروة وما وليس لها جيش قوي ضخم ولا مجال لتكوين هذا الجيش فيها، لا يمكن أن تبقى في مأمن ومنجاة من طامع الطامعين، ولو كانت في بقعة منعزلة وفي بادية بعيدة. ومن ثم فقد طمع فيها أهل العراق، وطعم فيها الفرس، وطعم فيها اليونان والرومان والبيزنطيون. وكان أول طامع فيها وصل خبره إلينا من الفاتحين الأقوياء هو الملك (تجلات بلاسر الأول) تلاه جملة غزة ورثوا الحكم والملك في الشرق الأدنى. وقد صارت تدمر في جملة الأراضي التي أخضعتها الإسكندر الأكبر لحكمه، ولما انقسمت دولته بعد وفاته صارت تدمر من نصيب السلوقيين على ما يظهر. وقد حاولت تدمر أن تقف موقف الحياد بين الفرس والروم، وتمكنـت من ذلك

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٣٧ - ٥٣٨.

أمداً، إذ كان من مصلحة الدولتين المتنافستين وجود محل منعزل محايد، لكي يتمكن تجار الدولتين من الإتجار والتسوق فيه^(١).

وقد قام أحد القادة السلوقيين ببناء حصن ليضم إليه الجنود المقدونيين في مدينة (تدمر)، وكان ذلك في عام ٢٨٠ ق.م، ولعل هذا الحصن هو واحد من سلسلة حصون أقامها السلوقيون في المواقع الهامة ذات المكانة الخطيرة من الوجهة السياسية والعسكرية والتجارية لحماية مصالحهم فيها. هذا وقد اعترفت تدمر بنوع من السيادة عليها للرومان، منذ أوائل العصور المسيحية، ودليلنا على ذلك المراسيم الإمبراطورية التي ترجع إلى عهد (تيبيريوس) ٣٧ - ٤١ م، والتي تتعلق بالرسوم الجمركية، وقد عثر في تدمر على قوائم ترجع إلى عام ١٧ م وتبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدمرية. هذا ويدو أن تدمر قد أصبحت على أيام «فسباسيان» تحت الإشراف الروماني، وإن كان هذا لا يعني الخضوع لروما، أو أن الإشراف على الشؤون المدنية بالمدينة كان بأيدي الرومان، وإنما كان هناك إشراف روماني عام على المدينة، بدليل أن الروم قد سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بحمياتها في خارج تدمر^(٢).

هذا وقد قام الإمبراطور (هドリヤヌス) (١١٧ - ١٣٨ م) بزيارة تدمر، وبذل عناية كبيرة بها، حتى قيل فيه أنه مؤسس المدينة الثاني، فاعتنى بها عناية خاصة بحماية الطرق البرية، التي تصلها بنهر (الفرات) الذي كان شرياناً مهماً من شرائين التجارة العالمية في ذلك العهد، وسعى إلى تحسين صلاته بالفرس والمحافظة على الأمن في الbadia، لتمكن القوافل من المرور منها بأمن وسلام.

وهناك من الآراء ما يذهب إلى أن تدمر قد منحت درجة مستعمرة رومانية علياً، فاكتسبت بذلك حق الإمتلاك التام والإعفاء من الخراج،

(١) المرجع السابق. صفحة ٥٣٩.

(٢) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٨٥.

والحرية الكاملة في إدارة سياسة المدينة. وإن هذه المنحة كانت في عهد الإمبراطور هدريانوس، بينما يرى آخرون أنها كانت في عهد (سبتيموس سيفيروس) (١٩٣ - ٢١١ م). وقد أفادت تدمر من سياسة هدريانوس التي كانت تميل إلى السلم وتجنب الحرب، فوسع تجاراتها وزادت في عدد قواقلها، وحصلت على ثروة طائلة، وتعد الفترة من عام ١٣٠ حتى ٢٨٠ م هي أزهى سنوات المدينة، فإلى هذه الأيام ترجع معظم النصب والآثار العظيمة التي ما زالت آثارها قائمة حتى ذلك اليوم. وقد تأثرت تدمر بأصول اليونان والروماني في إدارة الحكم، فكان للمدينة مجلس شيخ له سلطة سن القوانين والتشريع، وله رئيس وكاتب وأعضاء، ويشرف على السلطة التنفيذية شيخان وديوان يتتألف من عشرة حكام، أما السلطة القضائية فينظر فيها بعض الوكلاء وغيرهم من العمال^(١).

أسرة أذينة:

كان لتجدد الحروب بين الفرس والروم بعد تأسيس دولة الساسانيين في فارس عام ٢٢٦ م أثره في ارتفاع شأن أسرة عريقة في تدمر وزعيمها الذي يدعى أذينة، فقد استفادت هذه الأسرة من هذه الحروب وتمكن من الحصول على مركز عال لدى الرومان، وزعيم هذه الأسرة هو (أذينة) وجده الكبير كان يدعى (ناصر) (صزو) والد «وهب اللات» (وهبات) وإن هذا الأخير إنما هو والد «خيران» أبو «أذينة»، وقد تولى رجال هذه الأسرة رئاسة تدمر وزعامتها، واستطاعت بفضل تأييدها للروماني وقربها إليهم أن تكتسب ود القياصرة وعطفهم عليها والأنعام على أفرادها بالألقاب والأوسمة وبالمال في بعض الأحيان، وبالقوة والمعونة في أحيان أخرى. ولم يتعرض الرومان لحكم أفرادها بل تركوهم يديرون شؤونها وفق السياسة الرومانية. وبعد (نصر) أقدم إسم وصل إلينا من أسماء هذه الأسرة التي حكمت

Mommsen, Provinces of The Roman Empire, Vol II, p. 236.

(١)

فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٣٥.

تدمر، وإن كنا لا نعرف عنه شيئاً ما. أما (أذينة) فقد ورد إسمه في كتابة يرجع الباحثون زمن كتابتها إلى حوالي سنة ٢٣٥ م، وقد لقب فيها بإسم (أذينة بن خيران بن وهب اللات بن نصر)، وكان يحمل لقب عضو في مجلس الشيوخ الروماني، ثم لقب بلقب ملك في حوالي عام ٢٥٠ م وأجمع الناس عليه، فأدرك الرومان ما وراء هذه الدعوة من خطر على مصالحهم، فأوازع القيصر إلى قائه «روفينوس» باغتياله، فقتل وتخلص الرومان منه. وتولى بعده حكم تدمر ولده (خieran) وفي عهده أخذت تدمر دورها في القضايا الدولية، وما إن قامت الدولة الساسانية في عام ٢٢٦ م، تحت زعامة «أردشير بن بابك بن ساسان» (٢٢٦ - ٢٤١ م) حتى بدأ الشرق يضطرب بالصراع بين الروم والفرس. وكان على التدمريين أن يختاروا الانضمام إلى إحدى القوتين الكبيرتين، فآثروا الانضمام إلى الروم. وتولى بعد (خieran) هذا، الملك أذينة، وكان له ثأر عند الرومان منذ أن قتل قائدهم «روفينوس» أبيه (أذينة الأول) وعدم موافقة الإمبراطور فاليران على أن يأخذ ثأر أبيه من (روفينوس)، ومن ثم فإنه ما أن علم بهزيمة الروم في عام ٢٦٠ على أيدي الساسانيين، حتى أسرع بالإتصال بالفرس، مقدمًا لهم الهدايا، وعارضًا عليهم صداقته، إلا أن الإمبراطور الفارسي، الذي كان يحس في ذلك الوقت أنه ملك الشرق والغرب جميعاً، احتقر العرض التدمرى، وأمر بالقاء الهدايا في النهر، وتوعد (أذينة) بسوء المصير جزاء وفاقاً على جرأته في مخاطبة ملك الملوك، وهو لا يعدو أن يكون شيخاً لمدينة صغيرة في بيداء قاحلة، لا أهمية لها ولا نفع منها^(١).

وعندما علم (أذينة) بموقف الملك الفارسي منه، قرر الأخذ بالثأر من هذا الملك المتغطرس، فجمع القبائل بظاهر تدمر وجعلها تحت أمرة ابنه (هروديس)، وضم إليها فرسان تدمر بقيادة (ذبدرا) كبير قواده، والقواسة ورمة السهام تحت قيادة «زياي»، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانية، وسار على

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٤٢ - ٥٤٣.
جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٩٣.

رأس هذا الجيش قاصداً المدائن للانتقام من الملك الفارسي ولإنقاذ (فالريان) الأمبراطور الروماني الذي كان قد وقع في الأسر على أثر الهزيمة المخجلة التي لحقت بالروم على أيدي الفرس. وفي أثناء زحف أذينة على المدائن وصلته أنباء تغلب القائد الروماني (كاليستوس) على الفرس وتشتت شملهم وهربهم، فغير اتجاهه وأسرع إليهم لمقاتلتهم، وقد أدركهم قبل تمكنهم من عبور نهر الفرات، فالتحم بهم وتغلب عليهم، وولى (سابور) مع فلول جيشه مذعوراً تاركاً أمواله وحرمه غنيمة في أيدي التدمريين، وكتب (أذينة) بعد ذلك إلى الإمبراطور الروماني يخبره بهزيمة الفرس وباختلاصه للإمبراطورية، فأنعم عليه القيصر الروسي بدرجة قائد عام على جميع عساكر الشرق. وتمكن (أذينة) بعد ذلك من فتح نصبيين وحران واستقبل هو وجنوده استقبلاً عظيماً، ثم سار هو وجنوده إلى طيسفون عام ٢٦٤ م، فخاف (سابور) وأمر بجمع كل ما عنده من قوات للدفاع عن عاصمتها، وأحکم (أذينة) الحصار حولها، وكاد الإمبراطور الفارسي أن يستسلم، لو لا أن المؤمرات الرومية قد لعبت دوراً خطيراً في إفساد نجاح أذينة. ذلك إن القائد الروسي «مكريانوس» - الذي كان سبباً في هزيمة الروم ووقوع فالريان في الأسر - قد أعلن الثورة على «جالينو» ونصب نفسه إمبراطوراً على القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية (آسيا الصغرى والشام ومصر)، ومن فقد اضطر (أذينة) إلى رفع الحصار عن الفرس، وأن يعود لإخماد هذه الفتنة الجديدة، إلا أنه ما أن بدأ يعد العدة لمواجهة «مكريانوس» حتى علم بقتله، ثم اتجه إلى حمص للقضاء على ولده «كياثوس»، وبعد أن شدد الحصار على المدينة، قتل (كاليستوس) سيده (كياثوس)، ورمى برأسه من فوق السور تحت قدمي (أذينة) وفتح الأبواب والتمس الأمان منه. وبذا انتهت ثورة القائد «مكريانوس»، غير أن (كاليستوس) سرعان ما عاد إلى الثورة من جديد، ومن ثم فقد أمر (أذينة) ببعضه من رجاله باغتيال (كاليستوس)، وعاد الهدوء إلى هذه المنطقة الهامة من الإمبراطورية بفضل جهود (أذينة)، ومن ثم فقد أغدق عليه القيصر الروسي بلقب «إمبراطور على جميع أنحاء الشرق»، أي على الشام والجزرية وآسيا

الصغرى عدا أجزاء صغيرة منها، وضربت نقوذ باسمه صور عليها (أذينة) ووراءه بعض أسرى الفرس، وأصبح تحت أمرته جميع القوات الرومانية المعسورة في الشرق. واختار (أذينة) لنفسه لقباً آخر حبيباً إلى نفوذ الشرقيين هو لقب (ملك الملوك).

وقام (أذينة) باصلاحات أثبتت أنه لم يكن قائداً قديراً فقط، بل كان إلى جانب ذلك رجل إدارة وسياسة وتسامح أيضاً، فمنع تعصب الوثنين على النصارى اضطهادهم لهم، ومنع كل طائفة حريتها في ممارسة شعائرها الدينية، وأعطى النصارى الحق في بناء الكنائس، وتعقب اللصوص وقطع الطريق من الجنود الهاريين الذين قاموا بالإعتداء على الآمنين ومهاجمة القوافل والمدن والقرى^(١).

وفي عام ٢٦٥ م، اتجه (أذينة) إلى محاربة الفرس من جديد، فاتجه إلى (طيسفون) وضرب الحصار عليها، واضطر (سابور) إلى أن يظهر استعداده لعقد محالفة مع (أذينة)، إلا أن الأخير طلب فك أسر «فاليران» وهو شرط في نظر الفرس جد عظيم، ومن ثم فقد أوقفت المفاوضات بين الطرفين ولكن لسوء حظ (أذينة) تغير الموقف لمصلحة الفرس، إذ عبر «القوط» البحر الأسود، متهزين فرصة غياب (أذينة) وابتعد عن آسيا الصغرى وببلاد الشام ونزلوا بميناء هرقلية، واتجهوا نحو «قِبادُوقِيَا»، ومن ثم فإن (أذينة) اضطر إلى رفع الحصار عن مدينة الفرس، والعودة لقتال الغزاة الجدد، إلا أن القوط سرعان ما علموا بعودته (أذينة)، فعادوا إلى ميناء هرقلية، ثم ابحروا منها عائدين إلى بلادهم. فقرر (أذينة)، الرجوع إلى العراق لفتح (طيسفون) وبينما كان في حمص لإراحة جنوده، انتهز (معنى) ابن أخيه (خيران) هذه الفرصة، فقتل هو وعصابته عم (أذينة) وابن عم (هيرودس) لاغتصاب عممه منه ملكه الذي ورثه عن أبيه، ونادي بنفسه ملكاً على المملكة التي كونها (أذينة) ولكنه

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٤٤ - ٥٤٥.
قارن: فيليب حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٣٧ وما بعدها.
جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٩٤ - ٩٦.

ما كاد يتربع على العرش حتى قتل عام (٢٦٦ - ٢٦٧ م).

انتقل الملك بعد مقتل (أذينة) و (معن) إلى (وهبت) أو (هبلات) ابن (أذينة) من زوجته (الزياء) ويعرف في اليونانية بـ (أتينودورس)، وكان قاصراً، لذلك تولت الوصاية عليه أمه (الزياء) فعلمه اللاتينية والفرنسية وهيأنه ليكون ملكاً كقياصرة الرومان أو أكاسرة الفرس، ومنذ أن تولت الملك بدأت تعمل على تكوين دولة عربية قوية تحت زعامتها، وبخاصة أنها أدركت بفطتها السياسية أن أعداء تدمر، إنما هم الرومان، والذين لا يفكرون إلا في مصلحة روما فحسب. ومن ثم فقد بدأت تتقارب إلى العناصر العربية المستوطنة في المدن، فضلاً عن الأعراب الذين كانت ترى أنهم عيادة في القتال وسندوها في الحروب. وكان بداية النزاع بين الزياء والرومان، يوم أرسل «جالينو» بجيش لاحتلال تدمر والقضاء على الزياء قبل أن يستفحـل خطرها، متظاهراً بأنه يريد محاربة الفرس. إلا أن الملكة العربية سرعان ما اكتشفت السر، ومن ثم فقد دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس، كتب النصر فيها للزياء، وحاقت الهزيمة بالروم، وفي نفس الوقت، خافت الملكة أن يستغل الفرس الفرصة فيوجهوا إليها ضربة قد تكون غير مستعدة لها، ومن ثم فقد أنشأت حصناً على الفرات، دعـته (زنوبـيا) نسبة إليها^(١).

ووجهـت (الزياء) نظرـها بعد ذلك نحو مصر، ووضـعت الخطـطـ للإـستـيلـاءـ عـلـيـهـاـ،ـ بـعـدـ أـنـ مـهـدـتـ لـنـفـسـهـ الدـعـوـةـ فـيـهـاـ بـأـعـلـانـهـاـ أـنـهـاـ مـصـرـيـةـ،ـ وـأـنـهـاـ مـنـ نـسـلـ الـمـلـكـةـ (كـلـيـوـبـاتـرـاـ)،ـ فـلـهـاـ إـذـنـ فـيـهـاـ مـاـ يـسـمـعـ لـهـاـ بـالـتـدـخـلـ فـيـ شـؤـونـهـاـ.ـ وـأـخـذـتـ تـرـقـبـ الـفـرـصـ وـتـحـيـنـ الـأـسـبـابـ،ـ فـلـمـاـ قـتـلـ الـقـبـصـرـ (غالـيانـسـ)ـ عـلـمـ ٢٦٨ـ مـ،ـ وـأـنـقـلـ الـحـكـمـ إـلـىـ (أـورـيلـيوـسـ كـلـودـيوـسـ)ـ ٢٦٨ـ -ـ ٢٧٠ـ مـ،ـ وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ كـانـ الـجـرـمـانـ وـالـقـوـطـ قدـ بـدـأـواـ يـهـاجـمـونـ الـقـسـمـ

(١) تاريخ الطبرى. الجزء الأول. صفحات ٦١٧ - ٦٢٥.
تاريخ ابن خلدون. الجزء الثاني. صفحات ٢٥٩ - ٢٦١.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٤٧ - ٥٥٣.

الغربي من الإمبراطورية الرومانية، مما دفع (بروبوس) الحاكم الروماني في مصر، إلى أن يخرج بأسطول من الإسكندرية لمطاردة القوط، وهنا بدأ الزعاء المصريون وعلى رأسهم تيماجنيس وفرموس - يحرضون الزباء على فتح مصر، بل ويقدمون لها العون المادي للمساعدة على هذا الفتح، وأمرت الملكة قائلها (زبذا) بالإتجاه إلى مصر، وكان على رأس جيش قوامه سبعون ألف رجل، وهناك دارت معركة رهيبة بين الفريقين انتهت بانتصار (زبذا) قائد تدمر الذي قرر العودة إلى تدمر تاركاً في مصر حامية صغيرة من خمسة آلاف رجل بزعامة (تيماجينيس) الذي عين نائباً عن الملكة على مصر، فلما سمع (بروبوس) بهجوم التدمريين وتغلبهم على الرومان، أسرع عائداً إلى مصر، فألف جيشاً من المصريين الموالين للرومان وزحف على الإسكندرية، وأخذ يتعقب التدمريين، وأعمل فيهم السيف، فلما سمعت الزباء بذلك، أمرت قائلها بالعودة ثانية إلى مصر، فجرت معارك بين الطرفين انتهت بانتصار التدمريين على (بروبوس) عند (بابلون) أو (الفسطاط) وكتب النصر لجيش الملكة في مصر. وانتهى الأمر باتفاق بين الزباء والرومان على أن يكون حكم مصر مشتركاً بينهما، فوافقت روما على بقاء جيوش تدمر في مصر، مع اعتراف تدمر بسيادة الرومان عليها. وقد عثر على عملاً تدمرياً سُكت في الإسكندرية في عامي ٢٧٠، ٢٧١ م وعلى وجهها صورة القبص (أورليان) بجانب صورة «وهب اللات» (ابن الزباء) مما يدل على الحكم المزدوج بينهما^(١).

ولم يدم هذا الإنفاق بين الرومان والملكة طويلاً، فقد ضغط سادات روما على الإمبراطور بأن ينقذ الإمبراطورية مما حاصل بها من تصدع في أوروبا والشرق، ولا سيما إن فتح الزباء لمصر والإستيلاء على الإسكندرية - أهم مدن الإمبراطورية الرومانية قاطبة بعد روما - كان ضربة أصابت الروم في الصميم. وعندما علمت الملكة بعزم الإمبراطور الروماني على القضاء عليها،

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ١١٤ - ١١٥.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٥٣ - ٥٥٤.

قررت القيام بعمل سريع قبل مباغتة القيسر لها، فألغت الإنفاق المعقود مع الرومان ومحو صورة القيسير الروماني من النقود لتبرهن على قطع علاقتها بالقيصر وعدم اعترافها بالسيادة الأساسية الرومانية على مصر، وأمرت كذلك بضرب صورة (وهبات) وحده مع اللقب الإمبراطوري المخصص لقياصرة روما، وفي ذلك تحديًّ صريح وإعلان العداء لروما. وهناك رواية تذهب إلى أن (الزياء) قد تفاوضت مع الملكة (فيكتوريا) عاملة أقليم الغال، لتوحيد الخطط في مهاجمة القيصرية الرومانية واقسامها، وبدأت جيوشها تتوجّل في آسيا الصغرى، وأقامت الحاميات باتجاه الشمال الغربي حتى (انقره) وظلت جيوشها تتقدم دونما أدنى مقاومة، حتى (خلقدونية) مقابل بيزنطة. وهكذا استطاعت ملكة البايدية أن تكون لنفسها ولابنها إمبراطورية انتزعتها من مخالب النسر الروماني وهو في أوج قوته، غير أن تنفيذ هذه الخطة، دعا الزياء إلى أن تسحب كثيراً من قواتها من مصر، وانتهز أورليان الفرصة، ونجح قائده في أن يلحق بالتدمريين في عام ٢٧١ م، هزيمة كانت نتيجتها خروج مصر من إمبراطورية الزياء، وكان من أخطر النتائج التي تمّ خضـتـ عن فقد مصر، أن الزياء بدأت تفقد الثقة بنفسها ويجيـشـها، كما شجـعـتـ أهل (خلقدونية) بآسيا الصغرى على صد هجوم التدمرـيينـ، أمـلاـ فيـ نـجـدةـ قـرـيبـةـ تـأـتـيـ منـ الـقـيـصـرـ الروـمـانـيـ،ـ وهذاـ ماـ حدـثـ بالـفـعـلـ،ـ إذـ سـرعـانـ ماـ قـدـمـتـ الجـيـوشـ الرـوـمـانـيـةـ بـقـيـادـةـ الـقـيـصـرـ نـفـسـهـ،ـ فـعـبـرـتـ الـبـسـفـورـ،ـ وـطـرـدـتـ التـدـمـرـيـينـ مـنـ «ـبـيـتـيـنـيـةـ»ـ ثـمـ اـتـجـهـتـ إـلـىـ (ـغـلـاطـيـهـ)ـ فـيـ (ـقـبـادـوـقـيـاـ)ـ حـتـىـ بـلـغـتـ (ـانـقـرـهـ).ـ وهـكـذـاـ اـسـطـاعـ أـورـلـيـانـ فـيـ عـامـ ٢٧٢ـ مـ،ـ أـنـ يـخـضـعـ الـحـامـيـاتـ التـدـمـرـيـةـ فـيـ آـسـياـ الصـغـرـىـ،ـ وـأـنـ يـتـابـعـ مـسـيـرـتـهـ حـتـىـ سـوـرـيـةـ^(١).ـ وـحاـولـ جـيـشـ الـزـيـاءـ أـنـ يـوـقـفـ تـقـدـمـ جـيـوشـ الـرـوـمـانـ،ـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ أـشـاعـ فـيـ الـرـوـمـانـ بـيـنـ النـاسـ بـأـنـ هـنـاكـ تـبـؤـاتـ الـهـيـهـ بـسـقـوطـ تـدـمـرـ،ـ لـإـقـنـاعـهـمـ أـنـ مـعـهـمـ الـقـيـصـرـ وـجـنـودـهـ،ـ وـأـنـهـ مـنـ الـخـيـرـ تـرـكـ الـمـقاـومـةـ وـالـإـسـلـامـ.ـ وـقـدـ أـثـرـتـ هـذـهـ الشـائـعـاتـ فـيـ عـقـولـ الـكـثـيرـينـ،ـ فـقـضـتـ عـلـىـ مـعـنـوـيـاتـ التـدـمـرـيـينـ الـوـثـنـيـنـ الـذـيـنـ يـدـيـنـونـ بـهـذـهـ الـخـرافـاتـ

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، صفحات ٥٥٤ - ٥٥٦.

ويؤمنون بها، ومع ذلك فقد استعدت الملكة لمقابلة (أورليانوس) عند مدينة (انطاكيه) وكانت هي على رأس الجيش، أما القيادة فكانت لقائدها (زيدا)، وتحقق النصر للملكة (الزياء) وجيوشها في بادئ الأمر وشتووا شمال الجيش الروماني إلا أن القىصر قد أمر جنوده بالرجوع إلى مسافات بعيدة، ليوهم التدمريين أنه قد فر، فإذا ساروا في أثرهم وابتعدوا عن قواعدهم باغتهم بالهجوم، فلا يمكن فرسان تدمر من هزيمتهم لثقل أسلحة الفرسان ومعداتهم وبطء خيلهم بالقياس إلى خيل الرومان. وهذا ما حدث، فقد خدع التدمريون وظنوا رجوعهم هزيمة، فتعقبوهم إلى مسافات بعيدة، وفجأة انقلب الكتائب الرومانية على التدمريين، واطبقو عليهم وأعملوا فيهم السيف، وأنهزموا هزيمة منكرة وفرّوا إلى مدينة (انطاكيه). وقررت الملكة سرعة الإرتحال عن انطاكيه لأسباب عديدة، منها أن القوم هناك كانوا يميلون إلى جانب الرومان بعواطفهم، فهناك جاليات يونانية ذات نفوذ في المدينة تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين، وهناك كره النصارى للزياء بسبب موقفها من الأسقف (بولس السميسياطي) الذي عزله مجتمع أنطاكيه، ولكنها لم تنفذ قرار العزل، وهناك كراهية اليهود للتدمريين. وتلى ذلك تعقب القىصر للملكة حتى وصل إلى حمص، وهناك تقابل الفريقان للمرة الثانية وكان النصر للتدمريين في الجولة الأولى، ثم هزيمة لهم في الجولة الثانية، مما اضطرها إلى ترك حمص والإحتماء بتدمر نفسها، ودخل (أورليان) حمص وتوجه بالشكر إلى إله الشمس، وتعهد بتوسيع معبده وتجميله^(١). وادرك القىصر أن النصر الحقيقي لن يتم إلا بالقبض على (الزياء) وفتح تدمر، لذلك قرر الزحف إليها بأقصى سرعة قبل أن تتمكن الملكة من تحصين مديتها والإتصال بالفرس والقبائل العربية في البداية، فيصعب عندها الإستيلاء عليها، فسار مسرعاً حتى بلغ المدينة وألقى الحصار على تدمر، غير أن المدينة قاومت بشدة، وعرض

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٥٦ - ٥٥٧.

قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ١١٧ - ١٢٠.
فيليپ حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٤٠.

أورليان على الزباء التسليم بشروط معتدلة، غير أن الملكة رفضت العرض بباباء وشمم، مذكرة إياه بأنها تفضل مصير كلوباترا على عار الإسلام له، وأنها سوف تلقنه درساً قاسياً على جرأته في الكتابة إليها، طالباً منها الإسلام، عندما يحين الوقت، ويأتي إليها أعنوانها من الفرس والعرب والأرمن. ومن الجدير بالذكر أن الملكة لم تجد عوناً من كل هؤلاء، فقد كانوا هم أنفسهم في شغل شاغل عنها، ومن ثم فقد قررت ترك عاصمتها للأقدار، والتسلل منها ليلاً للوصول نفسها إلى الفرس لعلهم يرسلون لها نجدة تغير الموقف. ولما علم أورليانوس بنبا هرب الملكة أرسل رجاله في أثرها وأمرهم بالقبض عليها مهما كلفهم الأمر، ونجح هؤلاء الرجال في القبض عليها وأعادوها إلى (أورليانوس) وهكذا لم يعد أمام تدمر سوى الإسلام، ومن ثم فقد فتحت أبوابها في أوائل عام ٢٧٣ م لقيصر روما، فدخلتها أورليانوس دخول الفاتحين، وأقام حاكماً رومانيا عليها مع عدد من الرماة. وهكذا عادت تدمر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية، بعد أن شقت عصا الطاعة منذ أسر فالريان عام ٢٦٠ م^(١).

وأخذت الزباء إلى حمص، وهناك عقد مجلس لمحاكمة الملكة العربية العظيمة ورجال بلاطها. وتذهب بعض الروايات إلى أن الزباء قد تصلت من مسؤوليتها عما ححدث، فضلاً عن اعترافها بأنها لم تكن إلا الإحتقار لأمثال جاليوس وكلوديوس، ولكنها تعرف لأورليانوس وحده بأنه ملك فاتح، إلا أن الكثير من المؤرخين ينكرون هذه الرواية التي لا تتفق وما كانت عليه الزباء من سمو الأخلاق والشجاعة، وأياماً ما كان نصيب هذه الرواية من الخطأ أو الصواب فإن أورليانوس قد أمر بإعدام بعض رجال الزباء، وإن كان قد أبقى عليها هي وابنها (وهبات) بغية إلحاقها بموكب النصر الذي سوف يقيمه عند دخوله روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية. وفي أثناء رحلته إلى روما جاءته الأنباء بقيام ثورة عاتية في تدمر، وأخرى في مصر، وهنا لم يتزدد أورليانوس في أن يولي وجهه شطر سوريا، وقضى على ثورة التدمريين،

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٥٧ - ٥٥٨.

وانهال عليهم بالتنكيل، ولم ينج من عقابه الرهيب أحدٌ من الشيوخ أو النساء أو الأطفال. وبذلك فقدت المدينة كل عظمتها القديمة، وأخذ أورليانوس رماة السهام والأقواس في تدمر ليعملوا في خدمة الجيش الروماني في إفريقيا.

أما الملكة الزباء فقد انتهى الأمر بها بأن تقع في بيت خصص لها في «تيبور» باليطانيا مع أولادها وأن تعزل السياسة وال الحرب. أما تدمر فقد ذهب كل مجدها ولم تعد سوى قرية صغيرة وقلعة من قلاع الحدود في عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)، وفي حوالي القرن الخامس الميلادي كانت تدمر مقاطعة تابعة لولاية فينيقية، وعيّن فيها ثيودوسيوس (٤٠٨ - ٤٥٠ م)، فرقة من الجنود لحراستها وحمايتها من هجمات رجال البدية. وفي العام الأول من حكم (جستنيان) ٥٢٧ - ٥٦٥ م أصبحت تدمر على خط الحدود الخارجية للأمبراطورية ومن ثم فقد أمر الإمبراطور بتقوية حامتها واصلاح ما تهدم من مبانيها، فضلاً عن تحسين قلاعها وأسوارها وتحسين موارد مياهها، ثم اتخذها مقرًا لحاكم ولاية فينيقية. ومع ذلك، فإن تدمر بدأت تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً، ورغم الإشارة إليها كمركز أسقفي في الصحراء، فإن الصحراء قد تغلبت عليها يوم فقد سكانها السيطرة على هذه الصحراء، وظلت كذلك حتى فتحها (خالد بن الوليد) صلحًا في عام ٦٣٤ م على أيام الخليفة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - غير أنها لم ولن تعد كما كانت أيام الزباء.

وأخيرًا فإنه يوجد في تدمر في الزمن الحاضر، ثروة تاريخية مطمسورة تحت الأنقاض ستفيينا ولا شك فائدة كبيرة في تدوين تاريخ المدينة وتاريخ صلاتها بالخارج. ومن المواضيع العديدة التي ذكرها (بطلميוס) في مقاطعة تدمر (بالميرا Palmyra)، وهي تدمر العاصمة، ثم (الرصافة) وهي مدينة قديمة ورد خبرها في النصوص المسمارية في نص يعود إلى عام ٤٨٠ ق. م وقد اشتهرت بوجود ضريح القديس (سرجيوس) بها وهو مقدس عند الغساسنة^(١).

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٥٨ - ٥٦٠.

أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٨٤ - ١٨٦.

قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ١٢٧ - ١٢٩.

سابعاً: الغساسنة

قامت على أطراف الصحراء في القرنين الخامس والسادس الميلاديين دولتان جديتان، ازدهرت إحداهما حول دمشق وعرفت بدولة الغساسنة، أما الأخرى فقد ازدهرت في الحيرة بالقرب من صفاف الفرات وعرفت بدولة الملخمين. وكانت هاتان الدولتان تابعتين لامبراطورية بيزنطة وفارس - وكانتا بمثابة مركزى حراسة لهما على حدود الصحراء. وقد عرف ملوك الغساسنة ببني جفنة أيضاً، وقد نقلت كلمة (غسان) في زعم الاخباريين من اسم ماء يقال له (غسان) ببلاد (عك) بزيبد وربيع، نزل عليه آل غسان، وأصلهم من الأزد، بعد خروجهم من اليمن قبيل حادث سيل العرم أو بعده، فلما أقاموا عليه وشربوا منه، أخذوا اسمهم منه، فسموا (غسان)، وعرف نسلهم بالغساسنة. أما سبب تسميتهم بآل جفنة فلا نتساهم إلى جد أعلى يدعونه (جفنة بن عمرو فريقيا بن عامر) على رأي، أو إلى (جفنة) قبيلة من غسان من اليمن.

وتاريخ دولة الغساسنة هذه غامض لقلة المصادر، ولا متزاج الحقائق فيه بالاساطير، ولضياع معظم آثار بني غسان، ومن ثم فلا تتفق المصادر العربية مع اليونانية إلا في القدر اليسير، بل أن المؤرخين العرب أنفسهم إنما يختلفون في عدد الملوك وسني حكمهم وأسمائهم. وربما يرجع ذلك الاختلاف إلى اختلاط أخبار آل غسان بالقبائل العربية التي سبقتهم إلى سوريا، واقتصر مؤرخي العرب على الناحية الأدبية من تاريخ الغساسنة، وإهمال تاريخهم السياسي، أضف إلى ذلك هذا التشابه في الأسماء بين

حارث ومنذر ونعمان، واحتلاط ذلك أيضاً بالتشابه والتقارب مع أسماء ملوك المناذرة^(١).

ويزعم الاخباريون أن الذي قاد الغساسنة في خروجهم من اليمن، هو عمرو المعروف بـ(فريقيا) وهو ابن عامر ماء السماء بن حارثة، وقد نزح معه من اليمن قومه من الأزد، فنزل المدينة ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر، و منهم الاوس والخزرج، ونزل مكة رهط حارثة ابن عمرو بن عامر، وهم خزاعة، ونزل جفته بن عمرو بن عامر بالشام وهم الغساسنة، وقد استوطنوا أرض حوران حيث كان هناك قوم يعرفون «بالضجاعمة» من قبائلبني سليح بن حلوان من قصاعة، قد استقروا هناك ورضخوا لحكم الرومان ودانوا بالنصرانية من قبل مجيء الغساسنة، وقد استقر الغساسنة أيضاً في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل الهام الذي كان يربط بين «مارب» في الجنوب ودمشق في الشمال. وما إن يمضي حين من الدهر على هجرة الغساسنة إلى الشام حتى تبدأ الخلافات بينهم وبين الضجاعمة. وقد بدأ هذا الخلاف عندما فرضت سليح (وهم من الضجاعمة) جبائية سنوية قدرت بدينار على كل رجل، وكان من الطبيعي أن تؤدي جبائية هذه الضريبة من غسان، الذين (كانوا لا يعرفون الجبائية)، إلى صدام بينهم وبين عرببني سليح، ثم بينهم وبين الروم الذين فرضوا حمايتهم وسيادتهم علىبني سليح. وتم اللقاء الأول بين الغساسنة - الذين قتلوا الجابي السليحي - وبين عساكر الروم الذين يظن أنهم كانوا من سليح، في موضع عرفه العرب بوادي الكسوة، نظراً لسلفهم كسوة عسكر الروم الذين قتلوا في المعركة. وهكذا عرف الروم قوةبني غسان، فصالحوهم (على أن تعطي غسان الذمة، والدخول والخروج من البلد والمراعي والنصرة ضد العدو، والمواصلة والعدل). وهكذا ثبت الغساسنة أقدامهم في أرض الشام

(١) محمد يومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٦١ - ٥٦٣.

قارن: عمر فروخ. تاريخ الجاهلية. صفحة ٦٨.

جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٤٤٣ - ٤٤٧.

إلى جانب السليحيين. وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بانتزاعهم السيادة على كل البلاد من الضجاعمة رؤساء سليمان، بعد عدد من الوقائع بين غسان وبين الروم وسليمان «الذين كانت أجسامهم مع قيسرون ولوبيهم مع غسان» منها: يوم بالعة الذي انهزمت فيه الروم، ومنها اللقاء الذي تم بمرج الظباء وهو يوم حليمة الذي وقفت فيه قبائل العرب، من سليمان وكناية وجذام إلى جانب الروم حتى وافقت غسان على الصلح نظير دفع الجزية. وكانت المطالبة بها هذه المرة بالقرب من باب دمشق الذي عرف لذلك السبب بـ(باب الجابية)، وهذا يعني تقدم الغساسنة نحو قلب بلاد الشام، مما أدى إلى الحرب من جديد. ووقفت سليمان إلى جانب الروم، بينما أتت المعونة إلى الغسانيين من بني عمومتهم في يثرب، وانتهت الأمر بانتصار غسان حتى اضطر قيسرون إلى صلحهم على أن لغسان ملك الشام، وإن لملكهم طعمة على الروم، وإن ينصروه في الحرب.

والجدير بالذكر أن العاصمة السياسية للغساسنة يدو أنها كانت في البدء مخيماً متنقلأً، ثم استقرت بعد ذلك في «الجابية» في منطقة الجولان جنوب غربي دمشق، كما كانت في بعض الوقت في «جلق» في جنوب حوران^(١).

أما عن ملوك الغساسنة فتذكرة رواية (وهد بن منبه) إن أول من ملك من الغساسنة هو (عمرو بن جفنة) الذي حقق الانتصارات التي سبق ذكرها على الروم، وربما حدث ذلك في أواخر القرن الخامس الميلادي، أو قبل ذلك بقليل. وبعد (الحارث بن جبلة) المعروف لدى الأخباريين بـ«الحارث الأعرج» وبـ«الحارث الأكبر / ٥٢٨ - ٥٦٩ م» أول أمير نعرف من أمره شيئاً واضحاً يذكر من أمراء آل جفنة، وهو في نظر (نولدكه) (ارتياس) الذي ذكره المؤرخ السرياني (ملالا) على أنه كان عاملاً للروم. وهناك ما يشير إلى نشوب حرب بين الحارث والمنذر الثالث أمير الحيرة، ربما بسبب العداوة التي

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٦٤ - ٥٦٦.

انتقلت إليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم، وربما لأن أمير الحيرة ادعى إن القبائل العربية النازلة فيما بين دمشق وتدمّر، إنما تخضع لسلطانه، فنazuعه الامير الغساني هذا السلطان. وأياماً ما كان السبب، فإن الرجلين اشتبكا في أبريل من عام ٥٢٨ في حرب كتب النصر فيها للحارث الغساني، ومن ثم فقد منحه (جستنيان) قيصر الروم، لقب ملك - وهو لقب لم يمنحه الروم لواحد من عمالهم في سوريا من قبل - كما بسط سلطانه على قبائل عربية متعددة، بغية أن يجعل منه خصماً قوياً لأمير الحيرة، وإن كان (نولدكه) يشك في منح القيصر الرومي الحارث لقب ملك، ذلك لأن هذا اللقب كان خاصاً بقياصرة الروم ولا يمنح لغيرهم، ويرجح أن يكون (جستنيان) قد منحه لقب (بطريق) ولقب (سيد القبيلة) (فيلارخوس). ولقب البطريق من القاب الشرف الفخمة عند الروم ولصاحبه امتيازات ومترفة في الدولة، ولذلك فلم يكن يمكن إلا لعدد قليل من الخاصة. والجدير بالذكر إن نص (أبرهة) الذي ورد فيه ذكر اسم (الحارث بن جبلة) لم يورد لقب ملك مقتربنا باسم الحارث، ويدل ذلك على أن (أبرهة) قد اتبع الأصول الدبلوماسية المقررة عند البيزنطيين، وإن لقب ملك لم يكن لقباً رسمياً للحارث وكان ذلك عام ٥٤٢ م^(١).

هذا وقد اشترك (الحارث بن جبلة) في المعركة التي نشبّت بين الفرس والروم في ١٩ أبريل عام ٥٣١ م، وانتهت بهزيمة الروم. وقد أثار تصرف الحارث في هذه الحرب شك الروم في إخلاصه لهم، والحذر منه، إذ ما كاد هذا الامير يعبر نهر دجلة مع قائد الروم (بليزاريوس) حتى عاد فرجع إلى مواضعه بعد أن سلك طريقاً آخر غير الطريق الذي اتبّعه معظم الجيش دون أن يقوم بعمل يذكر في هذه الحرب، مما جعل الروم يشكّون في صداقته لهم، ويراقبون حركاته، خوفاً من انقلابه عليهم^(٢).

(١) جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحات ١٩٨ - ١٩٩.

جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٢) عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحة ٢٨١.

جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحات ١٩٩ - ٢٠٠.

وفي عام ٥٤٤ م تجدد التزاع ثانية بين الحارث والمنذر أمير الحيرة، وينتهي القتال بهزيمة الامير الغساني، وأسر أحد أولاده، الذي قدمه المنذر قرباناً للإلهة العزي، وفي عام ٥٤٥ م يسود السلام بين الفرس والروم، ولكن الامر كان جد مختلف بالنسبة لحلفائهم من المناذرة والغساسنة، إذ سرعان ما يتجدد القتال بينهما. وهناك، وعلى مقربة من «قنسرين» تتشب بين المنذر والحارث معركة رهيبة في عام ٥٥٤ م، انتهت بقتل المنذر نفسه، وكذلك ابن الحارث الذي يدعى «جلبة». ويرى (نولدكه) إن هذه المعركة هي معركة يوم حليمة وذلك لأن حليمة بنت الحارث كانت تحضر الرجال على القتال، أو لأن أباها قد أعلن أنه سوف يزوجها لمن يقتل المنذر، أو لأنها كانت قد أقبلت على مائة من المحاربين تطيب أجسامهم وتلبسهم الأكفان والدروع، وهناك آراء أخرى تذهب إلى أن (حليمة) هذا، كان اسم مكان وليس إسماً لأمرأة^(١).

وعلى أي حال، فهناك ما يشير إلى أن الحارث قد اعتنق النصرانية على المذهب (المونوفيزى) القائل بوجود طبيعة واحدة للمسيح، ومن ثم فقد سعى لدى الامبراطورة «ثيودورة» زوج الامبراطور جستينيان، لتعيين (يعقوب البرادعى) ورفيقه (ثيودوروس) أسقفين للمقاطعات السورية العربية، فنُجح في مسعاه هذا في عام (٥٤٢ - ٥٤٣ م) وبذلك وطد هذا المذهب في بلاده. وكان لجهود الحارث ومسعاه في حماية هذا المذهب، فضل كبير في انتشاره وبقائه بين السريان والعرب في الشام. وقد زار الحارث القسطنطينية في عام (٥٦٣ م) فاستقبل استقبلاً حافلاً وأثر أثراً عميقاً في نفوس أهل العاصمة وفي رجال القصر والحاشية. وتذهب بعض الروايات إلى أن الغاية التي من أجلها ذهب الحارث إلى القسطنطينية هي مفاوضة رجال الحكم فيمن سيخلفه على عرشه بعد وفاته من أولاده، وفي السياسة التي يجب سلوكها تجاه أمير الحيرة. هذا وقد وصلت دولة الغساسنة في عهده ذروة اتساعها، فقد كانت

(١) تيودور نولدكه. أمراء غسان. صفحات ١٨ - ٢٠ .
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٧٠ - ٥٧٩ .

تمتد من قرب البتراء إلى الرصافة شمالي تدمر، وتشمل البلقاء والصفا وحران، وأصبحت بصرى العاصمة الدينية في المنطقة، فضلاً عن شهرتها كمركز تجاري هام^(١).

و جاء بعد الحارث ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨١ م) أو (٥٧٠ - ٥٨٢ م) وقد عرف بـ Alamundaros عند اليونان والسريان، وقد استهل حكمه بالحرب مع ملك الحيرة قابوس، والظاهر أن عرب الحيرة كانوا هم البادئين بها، فانتصر عليهم في يوم ٢٠ مايو ٥٧٠ م في معركة عين أباغ. وحدث في عهد هذا الأمير أن ساءت العلاقات بين الغساسنة وبين قيصر الروم الامبراطور جستنيان الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨ م)، وربما كان ذلك بسبب الخلافات المذهبية بين الفريقين، وتعصب المنذر الغساني للمذهب المونوفيزى، بل أن هناك من يذهب إلى أن المنذر قد عقد مجمعاً كنسياً أعلن فيه هرطقة القائلين بالثلث، وعلى رأسهم الامبراطور نفسه، وربما لأن سياسة المنذر كانت هي السبب في استيلاء الفرس على (Rhomaye)، وأحسن المنذر بأن القيصر يدبر له مؤامرة، وأنه أمر عامله البطريق (مرقيانوس) بأن يحتال عليه لقتله، فتمرد على الروم، وغادر أرضهم إلى البدية، فانهزم عرب الحيرة هذه الفرصة المؤاتية فامعنوا في غزو بلاد الشام، وإيقاع الرعب في نفوس سكان القرى المجاورة لهذه الحدود مما حمل الروم على مراسلة المنذر والتودد إليه لاسترضائه، حتى إذا ما تلطف الجو أرسلوا إليه البطريق (يوسطانيوس) ليجتمع به في مدينة الرصافة عند قبر القديس (سرجيوس) لإقناعه بترك موقفه والموافقة على العودة إلى محله. وعند القبر المقدس عقد الصلح بينهما في صيف عام ٥٧٨ م، فعاد المنذر إلى أرضه، ليقوم بالدفاع عن حدود الشام. هذا وقد قام المنذر بزيارة القسطنطينية في عام ٥٨٠ م مصطحبًا اثنين من أبنائه، وقد استقبل هناك بكل احترام وتبجيل وأنعم عليه الامبراطور تiberios الثاني (٥٧٨ - ٥٨٢ م)، بلقب (Rex) وبالتالي وهو لقب كان له شأن كبير في امبراطورية الروم، وقد أغدق القيصر عليه الهدايا الثمينة النفيسة مما لم ينعم

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٧٠ - ٥٧٢.

به أي ملك عربي من قبل^(١)، كما أنعم على ولديه بدرجات عسكرية. هذا وقد أطلق مؤرخو الروم على المتنز لقب «المتنز ملك العرب».

وقد قام المتنز بتجديد بناء كنيسة الرصافة، كما بني صهاريج لإيصال الماء إلى الرصافة مدينة القدس (سرجيوس) ذي المكانة العظيمة عند عرب الشام، كذلك فقد طلب المتنز وهو في القسطنطينية من البيزنطيين مساعدته في بناء قصر يكون أعظم قصر غسانى بني، حتى أيامه، وذلك بأن يرسلوا إليه أحسن المعماريين والبنائين الحاذقين، فلبي البيزنطيون طلبه فأمدوه بما يحتاج إليه من معماريين ومن مواد بناء. ومن أبنيته الخربة المعروفة اليوم بناء يعرف باسم البرج، وقد عثر على إسمه مدوناً على حجارة من ذلك البناء.

على إن العلاقات بين المتنز والروم، سرعان ما بدأت تسؤ من جديد، وربما كان السبب هذه المرة فشل المحاولة التي قام بها الروم لغزو الفرس، بسبب هدم الجسر المنصوب على الفرات، واتهام المتنز بذلك، وزاد الطين بلة أن المتنز أراد استرضاء الروم فأغار على الحيرة وأحرقها بالنار، ثم عاد محملاً بالغنائم الكثيرة، غير أن هذا النجاح الساحق الذي حققه المتنز على اللخميين لم يمح ريبة الروم في ولائه لهم، وإنما اعتبروه تحدياً لهم، ورغبة منه في الخروج على طاعتهم، ومن ثم فقد انتهزوا فرصة افتتاحه لكنيسة في حوارين، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى العاصمة البيزنطية، مع إحدى نسائه وبعض بناته وأولاده، حيث بقي هناك إلى أن تولى «موريس» (٥٨٢ - ٦٠٢ م) العرش، فأمر ببنفيه إلى صقلية في عام ٥٨٢ م فضلاً عن قطع المعونة السنوية عن آل جفنة^(٢).

أثار عمل الروم هذا ثائرة أبناء المتنز، فتركوا ديارهم، وتحصنوا

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٧٢ - ٥٧٣.

قارن: جورجي زيدان. المرجع السابق. صفحة ٢٠١.

سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق. صفحة ٢١٠.

(٢) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٩٢ - ١٩٣.

نوكله. المرجع السابق. صفحات ٣٠ - ٣١.

فيليپ حتى. المرجع السابق. صفحة ٤٤٩.

بالبادية، وأخذوا يهاجمون منها حدود الروم ملحقين بها أذى شديداً، فاضطر القيسر على أثره أن يوعز إلى القائد (ماكتوس) بتجهيز حملة من أبناء المتنز ألحق بها أحد أخوة المتنز، وكان قد أعد ليتولى مقام أخيه، غير أنه توفي بعد أيام. ولما كان من الصعب على الروم مهاجمة أبناء المتنز في البادية، عمد القائد إلى المكيدة، فأرسل إلى النعمان كبير أبناء المتنز أنه يريد مقابلته للاتفاق معه على وضع شروط للصلح. وقد ظن الامير أن القائد صادق فيما دعا إليه فذهب لمقابلته، فقبض عليه الروم، وأرسلوه إلى العاصمة حيث حجرروا عليه فيها، وهكذا تصدع ملك الغساسنة. وانقسم أمراؤهم شيئاً وأحزاباً تركت بعضها ديارها فهاجرت إلى العراق وتشتت الباكون، ولم يبق لهم شأن يذكر، ولم يشر الكتبة السريان أو البيزنطيون إلى ملك الغساسنة بعد هذا الحادث، وقد عقب هذا التصدع حدوث اضطراب في الامن وفوضى بين القبائل التي أخذت تتنافس بينها للحصول على الرئاسة والسيادة، مما حمل البيزنطيين على التفكير في اختيار رئيس قوى من سادات القبائل المتنافسين ليقوم بضبط هذه القبائل وإعادة الامن إلى نصابه وحماية الحدود من هجمات عرب الحيرة، ولكن دون جدوى، حتى استطاع الفرس على أيام «كسرى أبرویز» (٥٩٠ - ٦٢٨ م) غزو سوريا، فاستولوا على انطاكيه ودمشق وبيت المقدس وخلدونية، ثم فتحوا مصر في عام ٦١٩ م، وإن كان فيما يبدو إن هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) حين نجح في استعادة سوريا عام ٦٢٩ م، ربما استعمل الغساسنة مرة أخرى، بدليل أنهم قد حاربوا المسلمين مراراً في جانب الروم، وإن خالد بن الوليد قد أوقع به في «مرج الصفر» جنوب دمشق عام ٦٣٤ م.

وأيا ما كان الامر، فإن الروايات العربية تنظر إلى «جبة بن الأิهم» على أنه آخر الغساسنة وأنه قد حارب المسلمين في جانب الروم في موقعه اليرموك عام ٦٣٦ م^(١).

(١) أحمد سليم. المرجع السابق. صفحات ١٩٣ - ١٩٤ .
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٥٧٣ - ٥٧٥ .

ثامناً: مملكة كندة

كندة هي قبيلة قحطانية تنسب إلى ثور بن عفیر بن عدی ابن الحارث ابن مُرَّة، وينتهي نسبه إلى كهلان بن سبأ، وقد عرفت عند الـاخباريين بـ(كندة الملوك)، لأن الملوك كان لهم على بادية الحجاز من بنی عدنان، ولأنهم ملکوا أولادهم على القبائل. وكانوا يتعززون بنسبيهم إلى كندة، وكندة هي (كدت) وهي القبيلة التي ورد ذكرها في نص أبرهة، وفي نصوص عديدة قبل هذا العهد، إذ ورد ذكرها في إحدى النصوص التي تسب إلى واحد من ملوك سبأ وذی ريدان، ويرجع إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، وقد جاء في هذا النص أنه في عهد الملك «شعراوتر» انضمت كندة والتي كان يحكمها «ربيعة» من آل ثور، والذي كان ملکاً على قحطان أيضاً، إلى صفوف أعداء ملك سبأ وذی ريدان. وكانت كندة مستقلة وعلى رأسها ملك، في أيام «الشرح يخصب» ملك سبأ، وكان ملکها إذ ذاك من المناهضين المعادين للملك «الشرح يخصب» واشترك في الحلف الكبير الذي تألف ضد مملكة (سبأ وذی ريدان)، وقد منيت (كندة) بهزيمة على يد جيش سبأ ووقع ملکها في الاسر وكان يدعى (مالك)، وفقدت كندة بعد هذا العهد استقلالها في وقت لا نستطيع تحديده لعدم ورود شيء عنه في النصوص، وصارت خاضعة لحكم دولة سبأ وذی ريدان^(١).

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٩٩ - ٦٠١.

قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٣١٦ - ٣١٨.

وأول من ذكر اسم كندة من المؤلفين الكلاسيكين هو نونوس وقد دعاها باسم (Kindynoi) أي كندة، وذكر أنها وقبيلة (مادينوي) كانتا من أشهر القبائل العربية عدداً ومكانة، يحكمها رجل واحد اسمه (قيس)، وتعتبر كتابات الاخباريين من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسة مملكة كندة، ويأتي في مقدمة هؤلاء الاخباريين ابن الكلبي وله مؤلف خصصه لتاريخ كندة، سماه: (كتاب ملوك كندة)، وله مؤلفات أخرى لها علاقة بهذه القبيلة، وأبو عبيدة والاصمعي وغيرهم.

ويذكر الاخباريون أن مواطن كندة الاصلية كانت بجبال اليمن مما يلي حضرموت، وإن جماعات من كندة قد غادرت مواطنها في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي، واتجهت شمالاً حتى نزلت في مكان دعي فيما بعد «غمر كندة أو غمر ذي كندة» - وهي أرض لبني جنادة بن معد في نجد، وتقع وراء «وجرة» على مسيرة يومين من مكة. على أن الاخباريين إنما يختلفون في أسباب هجرة الكنديين إلى الشمال، فذهب فريق إلى أن السبب إنما كان حرباً استعر أواراها بين حضرموت وكندة، ثم طال أمدها حتى كادت أن تقضي على الكنديين، ومن ثم فقد اضطروا إلى النزوح إلى الشمال، فراراً بأنفسهم من الفناء^(١).

وعلى أي حال، فربما كانت هذه الروايات جمياً، إنما تمثل مرحلتين من تاريخ كندة، الأولى تمثل الهجرة من اليمن إلى نجد، والثانية تمثل مرحلة استقرار الكنديين في مواطنهم الجديدة، وكيف كونوا لهم إمارة في نجد، ومن ثم فيمكن القول إن هذه المرحلة الثانية إنما تمثل التاريخ الحقيقي ل肯دة. ولعل الهدف من إقامة دولة كندة، إن التباعة لجأوا إلى ذلك كوسيلة للسيطرة على الطرق التجارية الشمالية التي كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية، حتى يأمنوا اعتداء قبائل البدو الشمالية عليها، وبخاصة أن الدول الكبرى القائمة على تخوم الصحراء، إنما كانت وقتذاك تحاول أن تؤلف القبائل لتحمي حدودها من غزواتها، وتمدتها بالجند، وتيسير معها في

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٦٠١ - ٦٠٢

الحروب متحالفة على أعدائها، فإذا كان ذلك صحيحاً، فإن توليه حجر آكل المرار سياسة يمنية حكيمة، فقد كانت عصبة حجر يمنية، وكان هو من أسرة تولت الملك في بلادها الأولى، ثم إن هذه الأسرة كانت قد استقرت في الشمال منذ فترة عرفت فيها اتجاه العصبيات وفهمت العقلية الشمالية، وهكذا يكون ملوك حمير قد حققوا من إقامة دولة كندة، ما حققه الروم من إقامة دولة الغساسنة، والفرس من إقامة دولة اللخميين، وتصبح كندة لتابعة اليمن، ما كان اللخميون للفرس والغساسنة للروم^(١).

ويرى بعض المؤرخين أن حجر بن عمرو (٤٨٠ - ٥٢٨ م) يعد أول ملوك كندة، وربما كان ذلك بناء على ما رأوه تقليداً شرعياً بالولاية من قبل ملك العرب الأكبر، حسان بن تبع الحميري، هذا إلى جانب أن حجراً يمكن أن يعتبر أول شخصية تاريخية في قائمة ملوك كندة يمكن الاطمئنان إليها. هذا وقد تمكّن حجر بن عمرو أن يتّزع جانباً من الأرض التي كانت تحت سيطرة المناذرة، ثم نزل في مكان يدعى «بطن عاقل» - جنوب وادي الرمة على الطريق بين مكة والبصرة. وهكذا تسرّب النفوذ الاجنبي إلى مكان جديد في شبه الجزيرة العربية، وهو نفوذ رومي مناهض لنفوذ الفرس في الحيرة ومغلف بسياسة يمنية ظاهرة. وإن كان هناك من يخالف هذا الاتجاه اعتماداً على أن الروايات العربية ذهبت إلى أن الذي أقام حجراً ملكاً على كندة، إنما هم الحميريون وليس الروم أو الاحباش، كما أن اليمن لم تكن وقذاك تسير في فلك النفوذ الرومي أو الحشبي، فضلاً عن أن ملوك كندة إنما عملوا بعد ذلك عند الفرس، وليس عند الروم أو الاحباش، وإن تحالفوا مع الروم حيناً من الدهر وكان للحجر آكل المرار وقائعاً مع الغسانيين، فيقال إن الحارت الغساني أغاث عليه واستولى على أمواله، ولكنه نجح في استعادتها

(١) المرجع السابق. صفحة ٦٠٣.

قارن: سعد زغلول عبد الحميد. صفحة ٢٣٣.

سبتيون موسكتاني. المرجع السابق. صفحة ٣٥٦.

عمر فروخ. المرجع السابق. صفحة ٨٣.

منه. وتوفي حجر آكل المرار في (بطن عاقل) في وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين، وإن اتجه البعض إلى تحديده بالعقد الأخير من القرن الخامس الميلادي^(١).

وخلف (حجر آكل المرار) ولده المعروف بالمقصور (عمرو بن حجر)، ربما لأنَّه اقتصر على ملك أبيه، وربما لأنَّ (ريبيه) قد اضطرته إلى ذلك، وأنَّه لم يحمل لقب (ملك) وإنَّما اكتفى بلقب (سيد كندة)، وإنَّ اليمامة إنما كانت من نصيب أخيه معاوية المعروف بالجون، ويبدو أنَّ «عمراً بن حجر» كان على علاقة طيبة بملوك اليمن، ومن ثم فقد تزوج بتَّا لحسان بن تبع أسد الأكبر، كما كانت كذلك باللخميين، ولهذا فقد تزوج «الاسود بن المنذر» ملك الحيرة من (أم الملك) ابنة عمرو المقصور، فولدت له (النعمان بن الاسود)^(٢).

هذا وقد اختلفت الآراء حول علاقة (عمرو المقصور) بالغساسنة، فذهب البعض إلى أنها كانت علاقة عدائية، وإنَّ عمراً كان في أحایين كثيرة يشن الغارات عليهم، بينما ذهب فريق آخر إلى إنَّ العلاقات بينها كانت طيبة، وإنَّ عمراً قد تزوج من (هند الهنود) بنت (ظالم بن وهب)، وكانت أختها (ماريا) زوجة للحارث الغساني الأكبر. هذا وقد قامت (ربيعة) بشورة على (عمرو المقصور) متهرزة فرصة الضعف في آل كندة على إيماه، وكان قد ظهر من بني تغلب في نفس الوقت رجل قوي هو (وائل بن ربيعة) تمكَّن من انتزاع جميع قبائل ربيعة التي كانت تحت سيطرة آل كندة، ثم التقى مع عمرو في معركة على مقربة من جبل القنان، انتهت بقتل عمرو وتحرير قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة إلى حين^(٣).

وجاء بعد عمرو ولده الحارث، وقد اختلف المؤرخون حول تحديد فترة

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحة ٣٢٥.

(٢) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٦٠٧ - ٦٠٨.

(٣) المرجع السابق. صفحة ٦٠٨.

قارن: عمر فروخ. المرجع السابق. صفحات ٨٧ - ٨٨.

حكمه فذهب البعض إلى أنها كانت من عام ٤٩٥ - ٥٢٨ م، وذهب آخرون أنها كانت من عام ٤٩٥ - ٥٢٤ م، وعلى أي حال فلقد كان الحارث أقوى ملوك كندة وأعظمهم شخصية، وعلى عهد الحارث وصلت كندة إلى أوج ازدهارها، فقد نجح في استعادة سلطانه على قبائل ربيعة في نجد، وبني أسد وبني كنانة وبني بكر. هذا وقد بدأ الحارث بغزو فلسطين عام ٤٩٧ م، إلا أن المحاكم الرومانية قد ألحق بهجيشه هزيمة متكررة، ولكن حدث بعد ذلك أن بدأت قبائل البلغار والصقالبة تتغلغل في تخوم الامبراطورية البيزنطية الشمالية، ثم سرعان ما تعود الحرب بين الروم والفرس من جديد عام ٥٠٢ م، وهكذا رأى الامبراطور الروماني أن يقلل من أعدائه، فعقد مع الحارث معاهدة تنص على أن يترك آل كندة مهاجمة الشام، وأن يتعاونوا مع الروم على قتال الفرس والمناذرة. أما فيما يتعلق بالفرس، فقد انتشرت الاضطرابات على أيام قباد (٤٨٨ - ٥٣١ م) وقد قام هذا الملك بدعاوة (المنذر بن ماء السماء) إلى المزدليه وهي مبادئ تدعوه إلى نوع من الاشتراكية في الاموال والنساء، فأبى، وأسرها قباد في نفسه، وعندما ما عرض دعوته هذه على الحارث الكندي أسرع بإيجابته إليها، ومن ثم فقد عزل المنذر عن عرش الحيرة، وأقام مكانه الحارث الكندي، وعندما استشعر الحارث الكندي ضعف الملك الفارسي، بدأ يخطط لنفوذ أوسع في العراق على حساب الفرس، وهكذا أمر رجاله بأن يشنوا الغارة على السواد، ويعلم قباد بالأمر، فيكون جوابه على ذلك إعطاء الحارث الكندي بعض المناطق التي تقع في مجاورات الحيرة، إلا أن الحارث كان أكثر طموحاً، فكتب إلى «تبع» ملك اليمن أن يجمع الجنود ويأتي إليه، واستجاب تبع للحارث وأقبل بجنوده وسار بهم حتى نزل بالحيرة، ثم وجه ابن أخيه «شمر ذي الجناح» إلى قباد فحاربه وانتصر عليه، أما التقاء الحارث بقباد فكان عند قنطرة الفيوم، وهي موضع لا يبعد كثيراً عن «هيث» وهي بلدة على الفرات^(١).

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٣٣٤ وما بعدها.
قارن: محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٦٠٨ وما بعدها.

هذا وقد اختلف المؤرخون في مقر الحكم الذي اختاره الحارث الكندي في العراق، فبينما يذهب فريق إلى أنه في الحيرة، يرى آخرون أنه في «الأنبار» وتقع على مبعدة أربعين ميلاً إلى الشمال الغربي من بغداد. وأياً كان الامر، فإن ملك الحارث لم يستمر طويلاً في العراق، فعندما اعتلى عرش الفرس (كسرى أنسو شروان) ٥٣١ - ٥٨٩ م، قام بطرد الحارث الكندي، وأعاد المنذر الثالث إلى عرش الحيرة، وقام هذا الأخير بتبع الحارث الكندي وأهله، حتى أسر إثنى عشر أميراً من بنى حجر بن عمرو، ثم قتلهم وكان من بينهم الحارث. ولا شك أن ذلك المصير التусي الذي لقيه الرجل، ومن أسر من أهل بيته، إنما كان ضريبه في الصميم وجهت إلى دولة كندة، وسرعان مادب الشقاق فيها، فانحالت عراها بعد أن قتل أبناء الحارث واحداً بعد الآخر. ولم يكتف المنذر اللخمي بذلك بل عمل على تشتت شمال أبنائه والتفريق بينهم حتى نشبت بين اثنين منهم وهما (سلمة) و(شريحيل) الحرب التي عرفت بين العرب (بيوم الكلاب الاول) وأعلن فيها كل من الآخرين عن جائزه مقدارها مائة من الأبل لمن يأتيه برأس أخيه، وكان يوماً عصبياً اشتدت فيه الحرب حتى أخر النهار، وانتهى بقتل شريحيل. وتفرق الابناء جميعهم، وقد أثرت كل هذه الاحداث على دولة كندة، فعملت على إضعاف ملوكها وتضعضع نفوذهم، فكانت البداية تمثل في خروجبني أسد على (حجر ابن الحارث) فامتنعوا عن دفع الاتواة التي كان قد فرضها عليهم من قبل، ومن ثم فقد خرج عليهم حجر من تهامة، وما إن وصل إلى دياربني أسد في جنوب جبل طيء حتى قتل الكثير من أشرافهم، وأخذ بعضاً منهم أسرى إلى تهامة، مما ترك أثراً سيئاً في نفوس القوم، فعقدوا العزم على الانتقام، وما لبثوا أن نفذوا وعيدهم، وقتلوا الرجل. وتولى مقاليد الامر بعده ابنه (امرأ القيس) الشاعر المشهور وكان أصغر أبنائه، وكان أبيه حجر قد طرده وأصر على أن لا يقيم معه، وأنفه من قوله الشعر، على غير عادة أبناء الملوك، فضلاً عن التغزل بالنساء غزاً، وهكذا أخذ امرأ القيس يسير في أحياط العرب، ومعه إخلاط من شذاذ العرب، يشرب الخمر، ويتجول بالنساء، وظل كذلك حتى أتاه خبر مقتل أبيه، فأقسم لا يأكل لحماً ولا

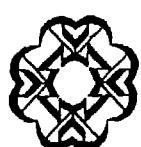
يشرب خمراً، ولا يدهن بدهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك ثاره. وبدأ أولاً بضم بكر وتغلب إليه ثم بث العيون علىبني أسد، فعلم أنهم لجأوا إلى بني كنانة، ومن ثم فقد بدأ هجومه علىبني كنانة - وهو يظنهم بني أسد - إلا أن القوم سرعان ما أخبروه أن بني أسد قد ساروا بالامس - فأسرع إليهم حتى إذا ما أدركهم أنزل بهم هزيمة قاسية، غير أن قبيلة تغلب وبكر رفضت الاستمرار في القتال بعد ذلك، مما اضطره أن يطوف بقبائل العرب يستنصرها على قتلة أبيه، واستجاب له بعضهم، ورفض آخرون خوفاً من بني أسد، وخوفاً من أغضاب المناذرة والفرس، وقرر امرؤ القيس أن يذهب إلى القدس ليستجده بملك الروم، الذي أحسن استقباله، وإن لم يقدم له المساعدة المطلوبة، فالتجدة التي طلبتها امرؤ القيس كبيرة جداً، والجيش الرومي لم يكن مستعداً للقتال في الصحراء، ثم إن الغاية التي جاء من أجلها امرؤ القيس - وهي الأخذ بشارب رجل واحد - كانت بعيدة عن سياسة الروم وأمؤلفهم، فضلاً عن أن الامبراطورية الرومانية كانت مهددة بهجمات البرابرة، ومن ثم فالامبراطورية كانت في حاجة إلى الدفاع عن إمبراطوريتها نفسها.

ومع ذلك فقد أرسل الامبراطور جستنيان جيشاً كثيفاً مع امرؤ القيس، فبلغ ذلك بني أسد، فأرسلوا رجلاً منهم يدعى (الطماح) اتصل بجماعة من رجال القيصر وطلب منهم أن يبلغوا القيصر «إن العرب قوم غدر، ولا تأمن أن يظفر امرؤ القيس بما يريد، ثم يغزوكم بمن بعثت معه». ولكن حدث بعد ذلك أن توفي امرؤ القيس وهو في ديار الروم على أثر مهاجمة داء قديم له كان مصاباً به. وعلى ذلك انقطع آخر أمل في استعادة «بني آكل المرار» لملكهم في كندة.

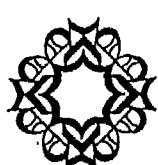
وهكذا انتهت أول محاولة في داخل بلاد العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية واحدة لها زعيم واحد، إذ سرعان ما عادت عشائر كندة إلى الجنوب، حيث ساد منهم (قيس بن معبد يكرب) ثم ابنه (الاشعث). ثم تكونت بعد نهاية دولة بني آكل المرار، إمارة كندية في

حضرموت، فضلاً عن إمارات أخرى حكمها أمراء صغار، لا تتجاوز سلطة الواحدة منهم مدينة أو وادياً، وأشهرها تلك التي كانت في دومة الجندي والبحرين ونجران وغمر ذي كندة^(١).

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق. صفحات ٦١٣ - ٦٢٥.
قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الثالث. صفحات ٣٣٧ - ٣٤٢.



القسم الثاني
أسلفية إحيضارية



الفصل الرابع
العَلَاقَاتُ الْخَارِجِيَّةُ

العلاقات العربية المصرية^(١)

كانت جزيرة العرب اسفينا يفصل بين مركزي الثقافة القديمة - مصر وبابل.

وعلى الرغم من أن الجزيرة لم تقع تحت سلطان الثقافة التي ترعرعت وازدهرت في وادي النيل ووادي الراافدين، فإنها لم تستطع أن تخالص من تأثيرها. على أن ثقافة الجزيرة في قرارتها كانت ثقافة محلية صرفة حاكت الثقافات التي نشأت على سواحل البحار. ولقد أصبح سكان الجنوب الشرقي منها أرباب تجارة توسعوا في سوق التجارة بين مصر وما بين الاهرين والبنجاب - وهي مراكز ثلاثة هامة للمتاجرة في العصور القديمة - وبإسمهم تسمى البحر الفاصل بين هذه البلدان.

ولقد كان التماس بين إفريقيا والجزيرة في الشمال عند شبه جزيرة سيناء حيث يمر خط بري، وجنوباً حيث تقترب الجزيرة من إفريقيا عند باب المندب، فلا تحول دون اتصالهما إلا مسافة خمسة عشر ميلاً، ويربط البرلين في أواسط ساحل الجزيرة الغربي خط البحر الأحمر إلى القصير فوادي الحمامات قبلة انعكاف النيل بالقرب من طيبة، وكان هذا الخط الأخير أهم

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٤٠ - ٥٩.
ذلك راجع الدراسة القيمة الصادرة حديثاً للدكتور سيد الناصري.
المصريون والعرب وعلاقتهم بإفريقيا في العصور القديمة.
دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٩٠.

خطوط الاتصال الوسطى . وقد احتفت الاسرة الثانية عشرة (نحو ٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق. م) قناة فوق بليس تربط النيل بالبحر الأحمر . وإعادة البطالسة معالم هذه القناة وهي بمثابة الام الاولى لقناة السويس . وجاءت دول الاسلام فأعاد الخلفاء فتحها وبقيت إلى أن تم اكتشاف خط رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ م) المؤدي إلى الهند .

نحاس سيناء^(١)

لقد كان مبعث اهتمام المصريين في شبه جزيرة سيناء ما فيها من مناجم النحاس والفيروز المتوفّرة في وادي مغارة بجنوب سيناء قريباً من البلدة المعروفة اليوم بالطور . وفي العهد السابق لفجر التاريخ المصري كانبدو سيناء يبيعون هذه المنتوجات الثمينة في أسواق وادي النيل . ولقد تولى فراعنة الاسرة الأولى شؤون التعدين في سيناء ولكنها لم تبلغ دور استثمارها الظاهر إلا أيام سنفرو (نحو ٢٧٢٠ ق. م) من فراعنة الاسرة الثالثة . وكانت الطريق العظمى التي تربط مصر بسوريا وفلسطين وتصل منها إلى أنحاء الهلال الخصيب وأسيا الصغرى يتوجه منها فرع جنوب غربي إلى مناجم النحاس والفيروز في سيناء . ولقد عثر الاثري بترى سنة ١٩٠٠ على قطعة من العاج في ضريح ملكي للأسرة الفرعونية الاولى في ابيدوس تحمل رسم رجل سامي كتب عليها «أسيوي» ويمثل الرسم رجلاً ذا لحية حليق الشاربين ولعله من عرب الجنوب . وهناك نقش بارز أقدم عهداً من هذا يعود إلى الاسرة الاولى أيضاً نرى فيه زعيمآً بدويآً ناحل البدن يرتدي مئزرآً وهو يزحف متذلاً أمام آسره المصري الذي هم بهراوة ينوي بها سحق رأسه . وهذا الرسمان هما أقدم الرسوم الموجودة التي تمثل البدو . ويقابل لفظة بدوي في المصرية «عمو» ومعناها بدوي أو أسيوي ، وقد ظهرت كثيراً في المدونات الاولى وهي تشير أحياناً إلى البدو القاطنين حول الأراضي المصرية وخارج نطاق الجزيرة . وإن أول مصري زار فلسطين وأبقى لنا أثراً ينبيء عن أخبار رحلته هو سنوهي الذي ظهر في دولة امنمحات الاول (نحو ٢٠٠٠ - ١٩٧٠ ق. م) وهو يشير

(١) المرجع السابق . نفس الموضع .

إلى نفسه بلقب «ملك بين البدو»^(١). وفي أثر تاريخي آخر كلام يشعرون بأن امنمحات الأول نفسه حمل على «البدو ففرق شملهم مثل الكلاب الضالة»^(٢).

اللبن

ولقد توطدت العلاقة بين جنوب الجزيرة ومصر أيام أنشأت مصر صلات التجارة مع (بونت) والنوبة. ولقد ذكر هيرودتس أن، سносرت الأولى (١٩٨٠ - ١٩٣٥ ق. م) من الأسرة الثانية عشرة قد افتحت الامصار المتاخمة للخليج العربي ولعلها الشقة الأفريقية من البحر الأحمر. ثم كان للأسرة الثامنة عشرة أسطول في البحر الأحمر. ولكن منذ عهد الأسرة الخامسة كان ساهوري (٢٧٤٣ - ٢٧٣١ ق. م) قد رأس أول حملة بحرية بطريق البحر الأحمر إلى بلاد تفيفن لباناً يتضح أنها بلاد الصومال على الساحل الأفريقي.

وكان أهم ما يجذب المصريين إلى جنوب الجزيرة هو اللبان الذي كانوا يقدرونه كثيراً إذ كانوا يحرقونه في هياكتهم ويستعملونه في تحنيط موتاهم، وكانت تلك البقاع من الجزيرة غنية جداً بهذا اللبان. ولما تم لفرعون النصر على النوبة وضم أرض بونت (الصومال الحديثة) إلى نطاق الامبراطورية المصرية التجارية نظم حملات شتى سارت إلى هذين البلدين في طلب «المر والصموغ العطرة والراتنج والأخشاب الزكية» منها حملة جردها حت شبسوت (نحو ١٥٠٠ ق. م) إلى بونت وهي أول امرأة تصدرت التاريخ. وأما خليفتها تحتمس الثالث، فقد عادت سفنها من تلك الارجاء حاملة طرائف «العاج والابنوس والارقاء وجلد الفهود» ولما كانت اليمن في الجنوب الغربي من الجزيرة تمتاز بهذه السلع الثمينة أيضاً فلا يستبعد إن المصريين إنما أطلقوا لفظة فوط على البلدين اللذين يفصل بينهما باب المندب. ويظن أن الذهب أيضاً كان يصدر من الجزيرة وكانت تجارة البخور

Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. I. p. 940.

(١)

Ibid, p. 483.

(٢)

الآتية من جنوب الجزيرة تمر بوادي الحمامات بحيث أصبح ذلك الخط الأوسط أهم حلقة للإتصال ببلاد العرب الجنوبية. واشتهرت حضرموت وهي بين اليمن وعمان بأنها كانت أرض البخور واللبان وأهم مدنها أندثر ظفار وهي ذفر اليوم من مقاطعات الساحل، ولسلطان عمان نفوذ أسمى عليها ويجب أن لا يخلط بين ظفار هذه التي كانت المركز التجاري لبلاد اللبان وهي على الساحل الجنوبي وبين ظفار المدينة اليمنية الداخلية التي كانت عاصمة حمير ولا تزال أشجار اللبان تنمو في حضرموت وغيرها من أنحاء الجنوب ولا تزال ظفار كما كانت في الماضي مركزاً تجارياً.

وتجدر بالذكر أن المصريين القدماء لم يستقلوا بميدان المصالح التجارية في الجزيرة فلقد كان ينافسون في تجارة الطيب والمعادن منافسون أشداء في مقدمتهم أبناء بابل^(١).

اتصال العرب بالسومريين والبابليين

ولقد تاختمت بلاد العرب الشرقية أرض الرافدين، وكان سكان العراق القدماء السومريون والاكديون، قد اتصلوا بمن جاورهم من أهل البلاد الغربية (الأمور) وذلك قبل الالف الرابع السابق للميلاد فنشأت بين الطرفين علاقات عن طريق البر والبحر. والراجح أن السومريين استحضروا النحاس (وهو أول المعادن التي اكتشفها الإنسان واستعملها) من مناجمه في عمان.

وهناك كتابه على تمثال من حجر الديوريت «لنارام سين» (نحو ٢٣٠٠ ق. م.) وهو سليل سرجون (أول عظماء الساميين في التاريخ ومؤسس الدولة الأكادية في وادي الفرات) وخليفته، وهي تنص أنه أحضى «ميجان» وغلب سيدها مانيوم. وأنبأنا جوديا (نحو ٢٤٠٠ ق. م.) السومري حاكم «الجش» أنه دبر حمله على «ميجان» و«ملوخا» طلباً للتجارة والخشب لبناء هيكله. وقد أمعن علماء اللغة الآشورية في تقصي أصل هذين الاسمين الدالين على مكانين ولعلهما أطلقوا أولاً على بقعتين في شرق الجزيرة وأواسطها

(١) فيليب حتى. المرجع السابق. صفحات ٤٠ - ٤٣.

ثم في العصر الاشوري جعلوهما اسمين لموضوعين أبعد مسافة يظن أنهما في شبه جزيرة سيناء أو أفريقيا الشرقية. ورأى بعضهم أن ملوخاً موطن العمالة في سيناء بجوار البتراء ولا تمت «ميجان» من حيث الاشتقاء بصلة إلى معان وهو اسم الواحة المعروفة في شمالي الحجاز (وهي الآن في شرق الأردن) وكانت على الأغلب مستعمرة قديمة على طريق القوافل التي ذكرها كتاب اليونان والروماني ومهمها يكن من أمر فإن لنا في هذه الكتابة أول إشارة مدونة في التاريخ إلى موضوع معين في الجزيرة والتي قوم من العرب. وفي كتابة أخرى أقرب عهداً خلفها لنا أردندر (نحو ٢٣٠٠ ق. م) ذكر أرض «سيو». ولا سيل إلى التسليم أنها هي سبا العربية.

وجاء في النقوش ذكر «الارض البحريه» وكان الرأي السائد إلى الآن أنها الأغوار الواقعة إلى الشمال من خليج العجم. غير أن هناك نظرية جديدة تجعلها جزءاً من الجزيرة نفسها يشمل شواطئ خليج العجم الغربية إلى غاية جزيرة البحرين (دلمون قديماً)، وربما كانت الاراضي البحريه تشمل أيضاً النفسود حتى حدود العقبة على البحر الأحمر. وتفيد النقوش أيضاً أن نبو بولاصر كان ملك الارض البحريه قبيل توليه عرش بابل^(١).

٣ - توغل الاشوريين في الbadia

وأول إشارة ثابتة إلى العرب، هي تلك التي وردت في نقش للملك الاشوري شلمناصل الثالث الذي قاد في السنة السادسة لملكه حملة على ملك دمشق الaramي وحليفه آخاب ملك أسرائيل وجندب أحد مشايخ العرب، فاصطدم الجيشان في قرقر شمالي حماة عام ٨٥٤ ق. م وإليك كلمات شلمناصل: (قرقر عاصمته الملكية أنا خربتها أنا دمرتها أنا حرقتها بالنار ١٢٠٠٠ ١٢٠٠٠ فارس، ٢٠،٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب أرام (دمشق؟) ١٠٠٠ جمل لجندب العربي . . . هؤلاء. الملوك الإثنان عشر الذين استقدمهم لمعونته، بربوا إلى المعركة والقتال، تألبوا على).

ومن بديع الاتفاق إن اسم أول عربي يسجله التاريخ جاء مقروناً باسم

(١) المرجع السابق. صفحات ٤٣ - ٤٥.

الجمل . وبدل تاجلات بالسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م) مشيد الأمبراطورية الآشورية الثانية ، قصاراًه لتأمين سلامة الطرق التجارية التي كانت تخترق أقسام الدولة المتراصة ثم تنعطف إلى البحر المتوسط ، فحمل على سوريا وأنحائها حملات عسكرية متعاقبة . وفي السنة الثالثة لملكه ضرب الجزية على زببي ملكة أرض « الأرب » ودونت سجلاته أنه في عام ٧٢٨ ق. م . أتته الجزية من قبيلة (مسائ) ومدينة تماء (تيماء) والسبائ (سباء) ذهباً وإيلاً وطيبوباً . وهذه القبائل إنما كانت تقطن شبه جزيرة سيناء والبادية الواقعة في شمالها الشرقي .

وحوالى سنة ٦٨٨ ق. م . أخضع سennحاريib « ادومو معقل بلاد العرب » وحمل آلهتها إلى نينوى وأسر ملكتها التي كانت في الوقت نفسه كاهنة الأله . وليست ادوموا إلا واحة الشمال التي بلغت شاؤاً عظيماً بعدها على عهد الفتوحات الإسلامية وعرفت بدومة الجندي . أما الملكة واسمها تلخنو (تلخنو) فكانت قد حالفت البابليين الخارجيين على سلطة أشور وساعدتهم جزائيل سيد قبيلة قيدار (كدرى في الآشورية) الذين كان مقرهم في نواحي تدمر .

وفي سجلات الآشوريين إشارات كثيرة إلى زعماء العرب « يقبلون أرجل » ملوك نينوي رافعين إليهم الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة وأنواع الكحول واللبان والجمال والحمير . الواقع أن الأنبياء متواترة عن زهاء تسع حملات جردها سرجون الثاني وسennحاريib وأسرحدون وأشور بانيال لمعاقبة قبائل البدو التي لا تقهرون بسبب مضايقتهم للممتلكات الآشورية في نواحي الشام واعتراضهم طرق القوافل التجارية وتلقيهم العون والمساعدة من مصر وبابل عدوتي أشور ، وأما لفظنا « أرب » و « أربى » الواردتان في مدونات هذه الحملات فإنهما تدلان على البدو بالأكثر . وبالدهم المسماة « أرب » تشمل على الأرجح بادية الشام وشبه جزيرة سيناء وشمالي الجزيرة . وفي سيناء كان أهل مدين (مديان) الوارد ذكرهم في التوراة هم الذين خضعوا لأشور وليس الانباط لأن هؤلاء لم تكن قد استتب قدمهم في سيناء بعد . أما السبييون

الاصليون من أهل الجنوب فلم يخضعوا قط لبنيوی ومع أن الأشوريين يدعون بحق رومان العالم القديم فإنهم لم يستطيعوا أن يبسطوا سلطانهم إلا على بعض الواحات وبعض القبائل في شمالي الجزيرة وذلك بصورة اسمية فقط. وليست سجلاتهم التي بين أيدينا إلا «بلاغات رسمية» قصد بها «تسكين الخواطر» في مناطق نفوذهم^(۱).

صلة العرب بالكلدانين والفرس : تيماء :

وفي هذه الحقبة أحرزت تيماء مكانة رفيعة بين قرينتها من مدنائن الشمال لأن نبويند (۵۵۵ - ۵۳۸ ق. م) آخر ملوك الكلدانين، اتخذها مقراً إقليمياً له. وكان الكلدانيون قد توارثوا أملاك الدولة الاشورية ومنها أمصار الشام وشمال الجزيرة التي آلت إلى دولة أشور في عهد تاجلات بالسر الثالث (۷۴۵ - ۷۲۷ ق. م).

كانت واحة تيماء في شمال الحجاز على طريق عظيم قديم يربط خليج العقبة والبتراء غرباً بخليج العجم شرقاً. ولقد قطعتها أيضاً قوافل الرحيلين من الشام ونواحي الشمال إلى اليمن في الجنوب فصارت محطة لهم يرجعون عليها في سفرهم. وهي وسطى بين مكة والشام وفي منتصف الطريق بين بابل ومصر لذلك بلغت مكانة وعزة تناسبان وموقعها الجغرافي. وكان يقطنها الاراميون قديماً.

وأهم إشارة في الكتابات لهذه الواحة العربية ما دون في وثيقة تاريخية تتعلق بسقوط بابل (۵۳۸ ق. م) على يد الفرس. فقد أثبتت هذه الوثيقة أن نبويند كان في «آل تيماء» وذلك في السنوات السابعة والتاسعة والعشرة والحادية عشرة من ملکه بينما كان ابنه (أي بشاصر) مع الجنديين مقيمين في البلاد البابلية ويتذرع علينا اكتناه ما حمل نبويند إلى الحلول في تيماء.

وسنة ۵۲۵ اجتاز قمبیز شمالي الجزيرة فحالف أقوامها وهو في طريقه إلى غزو مصر. وقد ذكر هیرودتس في صدد الكلام عن داريوس ما نصه:

(۱) المرجع السابق. صفحات ۴۵ - ۴۸.

«ولقد اعترف بسلطانه جميع أقوام آسيا الذين كان قد أذلهم كورش ثم قمبيز
بعده إلا العرب، فهؤلاء لم يخضعوا البته لسلطان فارس إنما كانوا أحلافها،
ولقد مهدوا لقمبيز سبيلاً التوصل إلى مصر، ولو لاهم لما أمكنه القيام بهذه
المهمة»^(١).

اتصال العرب بالعبرانيين

كان اليهود من الناحية الجغرافية جيران العرب الاقربين وكانوا من
الناحية الجنسية أقرب الشعوب نسباً إليهم. ولقد تواترت في التوراة الاشارات
التي تشعر بأن أصل العبرانيين كان من الصحراء.

وعرجت قبائل العبرانيين على سيناء والنفوذ في أثناء خروجها من مصر
إلى فلسطين حوالي سنة ١٢٢٥ ق. م. وتنقلت في تلك الربع زهاء أربعين
سنة. ولقد قطع بنو اسرائيل العهد الالهي في مدين وهي تضم جنوب سيناء
والارض الواقعة إلى الشرق منها. ويحيل لنا أن يهو (يهوه) الله قبلي كان
يعبده المدينيون أو سواهم من أهل الشمال. وهو أحد آلهة البداية طبعه
البساطة والشدة، يسكن خيمة ولعبادته طقوس ليست على شيء من الاتقان
والتعقيد، وهي تتناول الاعياد البدوية والتقديرات والمحروقات يقدمونها من
الماشية. دخل العبرانيون فلسطين وهم ذوو بداوة وخشونة فاستعمروا أرض
الكنعانيين وأخذوا عنهم تمدنهم إلا أن التقاليد القبلية والشعائر البدوية ما
برحت بارزة في حياتهم على تعاقب الأجيال.

وكانت المملكة العبرانية في أوج عزها تضم شبة جزيرة سيناء وكان
اسطول سليمان يرسو في خليج العقبة. وعلى الأرجح أن «أوفير» التي أبحرت
إليها سفن حiram وسلامان في طلب الذهب وخشب الصندل والحجارة الكريمة
هي ظفار من أعمال عمان حتى إذا كانت أيام أيوب صارت «أوفير» مضرب
المثل لوفرة التبر في تربتها. وملك يهو شافاط بعد سليمان بأكثر من قرن،
فكانت سطوة العبرانيين لا تزال مهيمنة على أيلة «العقبة اليوم» وما يتصل بها

(١) المرجع السابق. صفحات ٤٩ - ٥٠.

من خطوط التجارة. تجيئه الجزية من العرب الذين «أتوه بغنم». وصرح سنهاريب ببيانه عن أخبار الحملة التاسعة التي أتت بها على سوريا قال: «أما حزقياً فإن هيبة جلالتي المرعبة غلبته حتى حدث أن الأرببي (العرب) والمرتزقة (?) من جنوده الذين اصطحبهم لتعضيده أورشليم قاعدة ملكه هجروه». وانصرف حزقياً وعزياً قبله إلى مقاتله المعونين المقيمين في واحة معين (معان اليوم بجوار البتراء) وما يداريها. واسترد عزيماً وهو يعرف بعزمياً أيضاً أيله ليهودا وبني البلدة وفي سفر الاخبار الثاني تفاصيل غارة شنتها عرب الجنوب على يهودا فسبوا بني الملك يورام ونساءه وكل ما وجد من المال في بيته أخذوه. فهل يصدق أن أهل سباً الاباعد وهم «العرب الذين بقرب الكوشيين» تسنى لهم القيام بمثل هذه الغارة؟ وفي أيام نحمياً في متوسط القرن الخامس قبل الميلاد كان اليهود قد أخذوا يحسبون جيرانهم الذين يسكنون الجنوب الشرقي منهم أعداء لهم^(١).

العرب في آداب اليونان والروماني

ولقد أحاط اليونان والروماني عامة بأحوال الجزيرة والعرب لأن هذه البلاد على طريقهم إلى الهند والصين وكانت تتنج السلع المرغوبة جداً في أسواق الغرب. وكان سكانها كأقاربهم القدماء من أبناء الشمال أي الفينيقين هم الوسطاء أو العملاء في التجارة بين بلاد البحر الجنوبي والعالم.

ويقسم كتاب اليونان والروماني جزيرة العرب إلى أقسام ثلاثة - العربية السعيدة، والعربية الصخرية (منطقة البتراء) والعربية الصحراوية - وهو تقسيم يتفق مع وحداتها السياسية في القرن الأول للميلاد. فالقسم الأول كان مستقلاً وكان الثاني تابعاً وكان الأخير يسيطر عليه البارثيون بالاسم.

كانت بادية الشام: السعادة، عند أوائل كتاب العرب، وبادية عند سواهم «ضمن نطاق العربية الصحراوية أما العربية الصخرية فكان مركزها سيناء وببلاد الاباط وكانت عاصمتها البتراء. واشتملت العربية السعيدة

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٢ - ٥١.

على بقية أنحاء الجزيرة إلا أن الالام بأحوالها الداخلية كان زهيداً جداً، فأخذوا كتاب العصور الوسطى إذ توهموا أن العربية السعيدة هي اليمن فحسب. ويلوح أن كلمة «سعيدة» هي محاولة لتفسير كلمة «اليمن» العربية اعتقاداً إن مصدرها هو اليمن والصواب إن دلالتها اليد اليمني فلقد سميت هذه البلاد يمناً لوقوعها إلى يمين الناظر إلى جنوب الحجاز حيث تكون البلاد السورية - الشام - إلى شماله.

وأول من ذكر العرب في آداب اليونان هو ايسخيلوس (٥٢٥ - ٤٥٦ ق. م.) الذي أشار إلى ضابط عربي شريف في جيش إكزركسيس. ثم تلاه هيرودتس (نحو ٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م) فأشار إلى العرب في جيش إكزركسيس وقد أدلّ بحقائقه يسيرة عن ملابسهم وأسلحتهم.

وأجمعـتـ كـلـمـةـ المـصـفـينـ اليـونـانـ وـالـرـوـمـانـ مـنـ اـرـتـشـيـسـ اليـونـانـيـ (ـالـمـتـوفـيـ نـحـوـ ١٩٦ـ قـ.ـ مـ)ـ (ـوـإـلـيـهـ اـسـتـنـدـ سـتـرـابـوـ)ـ إـلـىـ بـلـينـيـوسـ الرـوـمـانـيـ (ـالـمـتـوفـيـ ٧٩ـ مـ)ـ إـنـ بـلـادـ الـعـرـبـ بـلـادـ ثـرـوـةـ وـرـخـاءـ عـجـيـبـينـ.ـ وـإـنـهاـ مـوـطـنـ الـلـبـانـ وـالـطـيـوبـ الـأـخـرـىـ وـإـنـ أـهـلـهـاـ يـحـبـونـ الـحرـيـةـ وـيـتـمـتـعـونـ بـهـاـ كـلـ التـمـتـعـ.ـ وـالـحقـ إـنـ هـذـهـ الـمـزـيـةـ الـأـخـيـرـةـ هـيـ الـيـ لـفـتـ أـنـظـارـ الـكـتـابـ الـغـرـبـيـنـ فـالـاسـتـقـلالـ الـذـيـ تـمـيـزـ بـ خـلـقـ الشـعـبـ الـعـرـبـ أـصـبـحـ مـضـرـبـ الـمـثـلـ وـمـوـضـعـ الـمـدـيـعـ وـالـأـعـجـابـ نـعـنـدـ الـمـؤـلـفـيـنـ الـأـورـبـيـنـ.

وأثبت ديديورس الصقلاني (وقد ازدهر في النصف الأخير من القرن الأول للميلاد) إن العرب يقدرون مالهم من حرية ويتباهاون بذلك. وروى ستراابو (المتوفي سنة ٢٤ م) في جغرافيته عن مرجع يوناني قبله إن العرب هم الأمة الوحيدة التي لم تبعث سفراها إلى الاسكندر المقدوني الذي كان قد صمم على جعل بلاد العرب مركز إمبراطوريته^(١).

الحملة الـ وماية

ساد الرومان العالم ولكنهم لم يسودوا العرب . فحملتهم الشهيرة التي

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٦ - ٥٨.

جردوها من مصر عام ٢٤ ق. م برئاسة والي مصر ايليوس جالوس باعت بالفشل. وقد تألفت هذه الحملة من جيش قوامه ١٠،٠٠٠ مقاتل ينادهم أحلافهم الانباط وذلك في عصر أوغسطس قيصر. وكان غرضهم الاستيلاء على طرق النقل التي احتكرها عرب الجنوب واستغلال مرفاق اليمن ومواردها لمصلحة روما. ولقد أفلعت هذه الحملة من السويس توازراها قوات الاسطول البحري وكان دليلاها قائدا من الانباط. وبعد أن مضت شهور على توغلها في الجنوب صادفت من العقبات ما اضطررها إلى النكوص بعد أن فتك بها الطوارئ فتكتأ ذريعاً فعادت إلى نجرانا (نجران) التي كانت قد احتلتها قبلًا ثم اتجهت إلى البحر الاحمر فعبرته إلى الساحل المصري واستغرقت مدة العودة ستين يوماً. وكانت «ميريابا» أبعد المراكز التي وصلتها في الجزيرة والراجح أنها غير مأرب قاعدة سباً في الجنوب الشرقي بل هي «ميريابا» التي في الجنوب الشرقي. ويقول سترابون - مؤرخ تلك الحملة وصديق قائدتها ايليوس جالوس - إن المصاعب والأخطار التي جابتها هذه الحملة إنما تعزي إلى خيانة الدليل «سيلاوس» سفير الانباط وممثل مملكتهم أو داس (عبيدة). وهذا هو المصير الذي آلت إليه أول بل آخر غارة ذات بال قصدت بها دولة أوروبية اكتساح داخل الجزيرة^(١).

(١) المرجع السابق. صفحات ٥٨ - ٥٩.



الفصل الخامس
الفكر الديني لعربي القديم

أولاً: الأسطورة

على العكس مما قد يبدو للوهلة الأولى فالتعامل مع الأسطورة يتم بحذر ودقة شديدين إذ أنه من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ الأسطورة بمعنى أول ظهور لها كنص مكتوب، ونفس الصعوبة تظهر عند محاولة تحديد المكان الذي نشأت فيه الأسطورة وإذا استطاع الباحث تحقيق هذين المطلعين خطوة أولى لدراسة الأسطورة يبدأ في التعامل معها من خلال منهج محدد يتلخص في الجوانب الأربع التالية:

- ١ - الأسطورة هي رمز لحقيقة فلسفية قديمة يمكن الوصول إليها عن طريق دراسة الأسطورة وتحليلها مع مقارنتها بالظروف البيئية والتاريخية التي نشأت فيها.
- ٢ - الأسطورة هي انعكاس لعمليات وظواهر طبيعية لم يستطع الإنسان القديم تفسيرها كظواهر الحمل والولادة ودورة النبات والزلازل والبراكين والفيضانات ومواسم القحط وغيرها مما دعا به لتقديسها ونسج العديد من الروايات حولها.
- ٣ - الأسطورة هي انعكاس للظروف النفسية التي يحياها الإنسان من خلال احتكاكه بالبيئة المحيطة به ومحاولته المستمرة للتوازن مع هذه البيئة، وفي حالة فشله في أحداث هذا التوافق تظهر الأسطورة كنوع من التعريض عن هذا الفشل.
- ٤ - الأسطورة هي وصف وسرد لحقائق ومواقف وأحداث تاريخية موغلة

في القدم وذات طابع منفرد وبمرور الزمن تحول هذه الحقائق إلى أسطير^(١).

وإذا حاولنا تارياً تتبع المشغلين بالتعامل مع الأسطورة ونقدّها لوجدنا أن أول من نقدّ الأسطورة الأغريقية وهاجم تعدد الإلهة فيها وتصوّرها بشكل بشري كان كستوفون (٥٧٠ - ٤٧٩ ق. م) يليه ثيوجينيس الذي رأى أن الأسطورة ما هي إلا قصة ترمز إلى الظروف البيئية التي يحيّها الإنسان من خلال صراعه الدائم معها، فالله هيفايسوس هو النار، ويوسايدون هو الماء وجبياً هي الأرض وهيراً هي الهواء وهكذا. أما أيوهيميروس الذي كتب حوالي القرن الرابع ق. م فكان أول من نادى بأنّ الأسطورة ما هي إلا حادثة تاريخية قديمة حدثت بالفعل ثم وبمرور الوقت ودخول العديد من الاضافات التي غالباً ما تحدث نتيجة لنقل الحادثة عن طريق الرواية الشفوية تحولت الحادثة التاريخية إلى أسطورة. وقد انتشر هذا التفسير عند المسيحيين، في بداية ظهور المسيحية كمحاولة من آباء الكنيسة للإلتلاف حول الأسطورة القديمة بشكلها الوثني وتحويلها إلى حادثة تاريخية وربما كان ذلك محاولة للتخلص من الأشكال الوثنية التي سادت المجتمع في ذلك الوقت رغم انتشار المسيحية أكثر من كونه قناعة أكيدة بفكرة أيوهيميروس حول الأسطورة والتاريخ.

أما عن العصور الوسطى فكانت سيطرة الكنيسة الواضحة والأكيدة في كلّ نواحي الحياة وتكتفiera لكلّ ما هو ليس بمسيحياً سبباً في عدم التعامل مع الأساطير باعتبارها رجساً من عمل الشيطان وبالتالي لم تظهر - على حد علمنا - دراسة للأسطورة ترجع إلى هذه الفترة.

أما في عصر النهضة فيظهر لنا فرنسيس بيكون في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ليعيد إلى الذهن نظرية ثيوجينيس حول تشخيص الأسطورة وتفسيرها تفسيراً مجازياً فديو نيسوس هو المعاناة في الحياة

وناركيسوس هو حب النفس وأبو الهول هو العلم وهكذا. وفي أوائل القرن السابع عشر أيضاً يظهر العالم الالماني كروزير الذي رأى أن الأسطورة هي نوع من الدين ينشأ نتيجة وحي ثم نقلت إلى الأجيال التالية في شكل رمزي وقد ظهر هذا الدين أو الوحي في الشرق ثم انتقل إلى اليونان ليصلنا بشكله الحالي.

أما في العصر الحديث فيبدو أن الأسطورة قد استهانت العديد من العلماء فيظهر لنا في أوائل القرن التاسع عشر العالم الالماني مولر بأول دراسة علمية جادة حاول فيها تنقية الأسطورة من الشوائب التي علقت بها والإضافات التي قام بها الشعراء وكتاب الدراما والفلسفة وغيرهم في محاولة منه لتبسيط أصولها ومقارنتها بظروف الحياة التي نشأت فيها. وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر تايلور عالم الاجتماع والأنثropolجي الشهير الذي درس الأساطير على أساس علاقتها بتكون المجتمع وحاول تصنيفها في مجموعات مشابهة رغم كونها تتسمi لثقافات مختلفة.

ويظهر في نفس الوقت تقريباً هربرت سبنسر بنظريته حول عبادة الإنسان القديم للأسلاف ومحاولته تجسيد الظواهر الطبيعية في أشخاص عن طريق التسمية كاطلاق أسماء رعد وبرق وشمس وأسد وفهد وغيرها من الأسماء على البشر ثم تحول هذه الأسماء إلى أساطير بالتدريج وهي عادة لا زالت موجودة حتى في مجتمعاتنا الحديثة.

وفي أوائل القرن العشرين يظهر اندرولانج الذي ربما كانت آراؤه هي الرد المناسب على آراء كروزير حول التزاوج بين الدين والأسطورة، فيرى لانج أن الأسطورة والدين هما شيئاً منفصلان تماماً، فالأسطورة ظهرت نتيجة لخيال مر به الادراك البشري، أما الدين فقد ظهر نتيجة مرور الادراك بحالة من الخضوع والتأمل الروحي الجماد. ثم يظهر جيمس فريزر بكتابه الضخم جداً (الفصل الذهبي) وهو واحد من أشهر الكتب التي تناولت الديانات البدائية وأضخمها، ولكن ربما كانت قيمته تكمن في غرار المادa العلمية التي جمعها وصنفها فريزر، أما تعامله مع هذه المادة

فقد كان من منطلق لم يوافق عليه العديد من العلماء ويتلخص في أن دورة النيات هي التي تحكم الأساطير في العالم القديم ما بين الموت ثمبعث مرة أخرى كما حدث في قصة أيزيس وأوزوريس.

ثم في منتصف القرن العشرين يظهر سيمون فرويد عالم النفس الشهير وتلميذه يونج ومذهبهما حول التفسير النفسي للأسطورة، فالأسطورة عندهما ما هي إلا رغبات وانفعالات بشرية مكبوتة تظهر في صورة قصة يتحقق فيها مالا يستطيع البشر تحقيقه في حياتهم العادية^(١).

أما في النصف الثاني من القرن العشرين فلم يظهر جديد في مجال دراسة الأساطير رغم ظهور العديد من الأسماء مثل هاملتون وروز وروبرت جرافر وغيرهم إلا أن كل منهم لم يخرج لنا بنظرة جديدة للأسطورة واكتفى فقط بمحاولة تبني موقف أو جزء من النظريات السابق عرضها^(٢).

(١) وقد انتشر استعمال هذا المذهب، وحول التطبيق في مجالات أخرى كالدراما والتاريخ راجع

George Devereux, Dreams in Greek tragedy, Oxford 1976 Bennett simon, mind and Madness in Greece Cornell 1978, Rose, pp. 1 - 14.

(٢) وعن التفسيرات المختلفة بشكل مفصل راجع أيضاً:

عبد المعطى شعراوي - أساطير أغريقية. صفحات ٤١ - ٦٣ . ومن الملاحظ هنا أن كل من هذه التفسيرات لم تتعرض للجانب الاقتصادي من حياة الإنسان القديم رغم أن بداية القرن التاسع عشر شهدت آراء مولر ونهاية القرن شهدت آراء تيلور اللذان اتفقا على ضرورة تفسير الأسطورة في إطار المجتمع الذي تنتهي إليه وبالتالي النشاط الذي يحدث في مثل هذا المجتمع وهو بالضرورة نشاط اقتصادي لأن احتكار الإنسان مع بيته غالباً ما يتسم بالطابع الاقتصادي ، وبينما لا يمكن تفسير أساطير مثل خلق العالم أو اكتشاف الإنسان للنار أو أيزيس وأوزوريس في ضوء آراء فرويد على سبيل المثال يمكن تفسيرها إقتصادياً لأنها غالباً ما تتعلق بمرحلة اقتصادية في حياة الإنسان عند اكتشافه للزراعة، وإذا كان التفسير الاقتصادي للتاريخ لا يزال يحظى بالكثير من القبول فلربما أمكن تفسير الأسطورة من هذا المنطلق أيضاً.

ثانياً: الدين والأسطورة

في محاولة لفهم الأسطورة اليونانية القديمة وإعطاؤها ما تستحق لا بد وأن نراها في الشكل الذي عرفت به عند الأغريق والظروف التي أحاطت بمولدها. أي في أشعارهم ومسرحياتهم وأعمالهم الأدبية والفنية الأخرى، وبمعنى آخر دراستها في إطار السياق الاجتماعي والتاريخي للعالم الأغريقي الدائم التغير فيزداد إدراكنا للأسطورة ومفهومها بمدى إدراكنا لتاريخ وحضارة الشعب الذي تنتهي إليه واتصالاته بالحضارات الأخرى من حوله.

وبصفة عامة فإن الأساطير الأغريقية كانت أكثر انسانية وعقلانية من غيرها، فلم يؤكد الأغريق على القصص الشعبي المغرق في الخيال كبعض الشعوب الأخرى وإنما ركزوا على أعمال الإنسان الفاني ومتاعبه كما في أشعار هوميروس التي تعد المنبع الأساسي لمعرفتنا بالأساطير.

كان الأغريق كغيرهم من الشعوب الهند وأوروبية قد دخلوا مجتمعات نشأت فيها من قبل مجتمعات متشابكة وتعلموا الكثير منهم كما أضافوا لهم الكثير، وعلى ذلك نجد أن أعظم الشخصيات الأسطورية تنتهي إلى التراث الهنديأوروبي كما في حالة زيوس أو جوبيتير، وبدأ الأغريق حوالي ٢٠٠٠ ق. م في الدخول لأرض اليونان الرئيسية والاستقرار على السواحل الإيجية للبحر المتوسط ومن ثم ظهرت الحضارات المينوية والموكينية، وتركـت كريـت أثـراً عمـيقـاً في المـخيـال الـأـغـرـيقـي كـأـسـطـورـة زـيـوس وأـيـورـوـبـاـ إـيـنة مـلـكـ صـورـ الفـيـنيـقـيـةـ التيـ أـنـجـبـتـ لـهـ مـيـنـوسـ، وأـسـطـورـةـ الـمـيـنـوـتـارـوـسـ كـمـاـ تـرـكـتـ موـكـيـنـاـيـ أـثـراً آخرـ تمـثـلـ فيـ مـوـضـوعـاتـ الـإـلـيـاذـةـ وـالـأـوـدـيـسـيـةـ وـمـاـ حـوـتـهـ مـنـ أـسـاطـيرـ تـنـصـلـ

بجميع جوانب الحياة الالهية والبشرية والبطولية.

تعريف الدين :

في تعريف الدين ربما كان من الأفضل الابتعاد عن المناهج النفسية الإستبطانية التي استعملها سبنسر أو ماكس مولر أو المنهج الحدسي الذي استعمله برجسون لعدم جدواهما في إخراج تعريف محدد مقنع، وربما كان المنهج الموضوعي المقارن أفضل إذ يقوم على المقارنة بين الأديان البدائية لتعيين عناصرها العامة وبمثل هذا المنهج نصل إلى تعريفات فريزر الذي يبدأ دراسة الدين بظهور فكرة الالهة والذي حدد الدين بأنه الاحساس بأن هناك نفساً خفية تعرف النفس البشرية بما لها من سلطان على العالم وعليها ويجب أن تكون على اتصال دائم بها ما أمكن.

ولكن رأى فريزر ليس دقيقاً - كما يرى دور كايم - لأنه من الممكن ظهور دين بدون ظهور الاله بل يزيد عليها أن هناك بعض الديانات لم تتحقق فيها فكرة الدين مثل البوذية التي هي في جوهرها أخلاق بغير دين أو حتى فكرة الطبيعة فهي تقوم على الاستقامة والتأمل والحكمة التي هي غاية الغايات. كما يرى دور كايم أن الظواهر الدينية تنقسم إلى قسمين: العقائد والعبادات، والعقيدة هي حالة فكرية بينما العبادات هي نماذج وطرز من الأفعال الجسمية وغير الجسمية، وكل العقائد الدينية تقسم الأشياء إلى قسمين: مقدس وغير مقدس، وهذا التقسيم هو الصفة المميزة للفكر الديني.

بهذا يمكن تحديد العقائد بأنها الأفكار أو التصورات التي تعبير عن طبيعة الأشياء المقدسة وما بين تلك الأشياء من علاقات من ناحية وما بينها من علاقات بالأشياء غير المقدسة من ناحية أخرى. أما العبادات فهي طرز للسلوك ينبغي أن يمارسها الإنسان حيال الأشياء المقدسة^(١).

نشأة الدين وتطوره

حول نشأة الدين ظهرت العديد من الآراء تبلورت في النهاية في

(١) على سامي الشار نشأة الدين. النظريات التطورية والمؤلهة صفحات ٢١ - ٢٨.

نظريتين عامتين هما: النظرية التطورية القائلة بأن فكرة الاله وجدت في المجتمعات الأولى بشكل عقائد انبثقت أما من الأفراد أو الجماعة، وبالتالي ففي كلتا الحالتين يكون الدين من عمل الإنسان، أما النظرية الفطرية فتقول بأن الدين فكرة فطرية وجدت في عقل الإنسان وغرسها فيه موجود أعلى، أي أن للدين حقيقة خارجية هي الاله منفصلة عن الجماعة والكون كله مبادئه وأن تلك الحقيقة الخارجية هي التي غرسـتـ فيـ الإنسانـ فكرةـ الـالـهـ.

وبما أن النظرية الفطرية من الصعب مناقشتها إذ أنها إما أن تؤخذ على علاتها أو تترك بكمالها لذا سنركز في العجلة التالية على مناقشة النظرية التطورية من خلال ثلاثة مذاهب أساسية في تطور الأديان هي المذهب الحيوي والطبيعي والتومي.

١ - المذهب الحيوي: وأشهر من نادى به كان تايلور ثم اعتنقه سبنسر من بعده، ويقوم هذا المذهب على أن أقدم الأديان في الوجود هو الاعتقاد في الأرواح وعبادتها، وبدأت فكرة الأرواح عندما اكتشفت الإنسان الأول فيه كائناً آخر غير الجسم يستطيع - في ظروف معينة - أن يترك هذا الكائن العضوي الذي يسكن فيه وأن ينطلق بعيداً. تلك هي النفس أو الروح التي اعتتقدت الكثير من المجتمعات البدائية إن لها - بجانب قدرتها الإثيرية العجيبة - القدرة المادية على النفع والإذاء ولما كانت الوسيلة الفعالة الوحيدة كي ترك النفس أو الروح الجسم المادي للإنسان هي الموت ويمرون الوقت واستقرار المجتمعات البدائية وزيادة عدد الموتى وبالتالي عدد الأرواح بدأ الإنسان يكون لنفسه عالماً آخر مليئاً بالأرواح التي حاول دائماً أن يطلب رضاها وعفوها ويتخلص من غضبها عن طريق القرابين والاضاحي والصلوات، وكانت الطقوس الأولى طقوساً للموت، والتضحيات الأولى قرابين غذائية تشبع حاجات الموتى، وكانت أولى المذاياح التي تقدم إليها هذه القرابين هي القبور^(١).

(١) المرجع السابق. صفحات ٣٣ - ٦٧.

٢ - المذهب الطبيعي: ومن أشهر أعلامه كان ماكس مولر وكوهن اللذان كتبوا عنه في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ويقوم أساساً على أن الدين لا بد وأن يبدأ بتجربة حسية أي أنه لا شيء يتحقق في عقيدة الإنسان ما لم يمكن قد أتى من قبل عن طريق حواسه. وذلك من خلال الظواهر الطبيعية المتغيرة التي تحيط بالأنسان وتثير فيه مختلف المشاعر والأحاسيس. ومع ذلك فلم تتكون الأديان وتنشأ إلا حين انتفت عن القوى الطبيعية الصفة المجردة وتحولت وبالتالي إلى كائنات مشخصة حية وعاقلة لها قوى روحية أي آلهة لأن العبادات عادة لا تتجه إلا لهذا النوع من الكائنات كالله زيوس كتشخيص للشمس وهيرا للهواء وهيفا يستوس للنار وبوسايدون للماء وجيا للأرض وغيرها.

ويعرض دور كايم على هذا التفسير من منطلق أن محاولات الإنسان البدائي للسيطرة على الطبيعة لم تكن كلها ناجحة وبالتالي سيكتشف هذا الإنسان عبث محاولاته معها^(١) إلا أن هذا الاعتراض مردود عليه إذ أن الإنسان غالباً ما يفسر عدم جدوا محاولاته بعيوب قد تخلل طقوسه هو والدليل على ذلك أنه لا زالت بعض المجتمعات حتى هذا الوقت تعرف رقصة المطر التي يحاول الإنسان من خلالها التحكم في أوقات سقوط المطر خاصة في أوقات الجفاف.

٣ - المذهب التوتمي: وقد بشر بهذا المذهب دور كايم نفسه الذي نقد المذهبين السابقين، وهو يعتقد بأن عبادة التوتم هي أقدم الأديان على الإطلاق إذ أنها ترتبط بفكرة العشيرة التي هي - حتى الآن أول وأبسط نظام اجتماعي تم اكتشافه، وتtotم العشيرة هو رمز لها يتصل بحياتها أو ثق الاتصال و تستمد منه القوة وقد تسمى العشيرة باسم التوتم، أما نوعية التوتم نفسه فعادة ما تتصل بأنواع من النبات أو الحيوان وأحياناً بعض الظواهر الطبيعية، يتم

(١) المرجع السابق، صفحات ٦٨ - ٨٩.

تقديسها ومن ثم عبادتها وقد يحرم أكلها إذا كانت نباتاً أو قتلها إذا كانت حيواناً.

والتوتمية عند دور كايم مذهب في الوجود يفسر الكون وينسق بين عناصره المختلفة وبهذا يقع في نفس الخطأ الذي اتخذه وسيلة لنقد المذهبان الحيوي والطبيعي^(١).

(١) المرجع السابق، صفحات ٩٠ - ١٧٧.

ثالثاً: الفكر الديني

يتضح من النقوش التي عثر عليها إن العقائد والحياة الدينية في جنوب الجزيرة كانت متماثلة على اختلاف الأدوار والبيئات. فقد كان القمر هو المعبود الرئيسي مع اختلاف في تسميته وتطور في اعتباره ثم يأتي بعده الشمس ثم الزهرة على اختلاف كذلك في تسميتهم. وكان لكل شعب أو قبيلة إله قومي خاص يعتبرونه حاميأ لهم ورابطة تربط بين وحداتهم. وكان لهم إلى هذا وذاك آلهة ثانوية أخرى. وكانتوا يصنعون لآلهتهم تماثيل يضعونها في معابدهم ليؤدوا عندها طقوسهم ويقربوا قرائهم^(١).

ولقد كانت المعبودات الرئيسية الثلاثة في الدولة المعينية تسمى «ود» و«نكرح» و«عشتر» بالتالي وكان القمر مذكراً والشمس مؤنثة والأول بمثابة زوج للثانية وكانت الزهرة تعتبر ابنة لها. ولقد عثر على شاهد قبر امرأة معينية عليه صورة الميادة ورمز الزهرة في وضع توسلية لإإنزال الويل على من يتجراس على تغيير الحجر عن موضعه مما قد يكون فيه دلالة ما على ما قلناه^(٢).

وكان الشعب المعيني يسمى نفسه أبناء ود ويعتبر هذا المعبود إلهه القومي وحاميه والرابطة التي تجمع بين وحداته وفروعه.

ولقد كان ود في أثناء قوة الدولة المعينية سلطاناً الشامل إليها رئيسياً

(١) محمد عزة درورة. المرجع السابق. صفحات ٨٦ - ١٠٧.

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي. صفحة ٨٩
قارن: محمد عبد المعيد خان. الأساطير العربية قبل الإسلام. صفحة ٥٥.

عاماً لجميع الإمارات والمناطق الخاضعة لها، فمن المحتمل أنه كان إله المعينين القومي قبل أن تصبح السيادة الشاملة لهم ثم ظل ذلك ملحوظاً عندهم مع ارتفاع منزلته وعمومية عبادته.

ولقد قرئ في نقش معيني عبارات «ذات نشم» و«معبد ينعم» واسم «يثل» في جملة فيها تعداد لأله معين وليس فيها بيان ما. فاما أن تكون أسماء مدن فيها معابد لألهتهم المعروفة وإما أن تكون أسماء معبدات ثانوية ظلت هويتها ومركزها غامضًا.

وقد كانت أسماء الآلهة الرئيسية عند الحضر موتيين نفسها عند المعينين. غير أنهم كان لهم إله قومي حاميأ لهم يسمونه «سین» وكانوا يسمون أنفسهم «أبناء سین»، وقد عثر على نقش حضر موتي سجل فيه صاحبه «إن نفسه وروحه وأولاده ومقتنياته ونور عينيه وما يفكرون به في قلبه هو «سین إله حضر موت». وقد وجدت آثار معبد ضخم لسين في خرائب مدينة حضر موتي اسمها مذب. وقد قرئ في بعض النقوش جملة «سین ذمب» أي «سين مدينة مذب» ولعلها كانت تشير إلى هذا المعبد.

ويعض النقوش يفيد أن إسم «سين» كان يطلق على القمر ويعتبر المعبد الرئيسي الأول في فترة من الفترات. ولعل هذا كان حينما غدت حضرموت قوية ممتدة بسيادة شاملة نوعاً ما كما سبق القول^(١).

وقد قرئ في نقوش حضرموتية أسماء إلهين آخرين وهما «ذات حشو» و«ذات صميم» دون بيان عن هويتهما ومركزهما. وكلمة «ذات» كانت تعني وصفاً للألهة الرئيسية. وليس من المستبعد أن تكون هنا من هذا القبيل.

وقد قرئ في نقش حضر موتي على لوح نحاسي موجود اليوم في المتحف البريطاني أسماء سين وعلم وعشتر. وقد ورد في نقش حضر موتي آخر جملة «سين ذ علم وسين ذ مشور وسين ذ علم ذ علق احن» وقد فسر

(١) رشيد الناصوري. المدخل في التطور التاريخي للتفكير الديني. صفحة ١١٣.
جود علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحة ٢٢.

جود على عبارة «سين ذ علم» بمعنى سين العالم أو العليم أي اعتبر العبارة وصفية وليس اسم معبد جديد. وقال أن معنى الجملة «معبد سين العليم في مدن مشور وعلق واحد»^(١).

وقد قرئ في نقش حضر متى اسم «حول» مع اسماء «سين» و «عشر» و «شمس»، دون بيان ما، وهذا النقش سمى الألهة الشمس بأسمها العربي بدليلاً عن اسم نكر المعيني.

ولقد سمي القتبانيون القمر «ودا» كما فعل المعينيون والحضر متويون وسموا الشمس عشرت على ما تفيده نقوشهم. وقد كان لهم إلى هذين المعبودين معبد قومي اسمه عم ويعتبرونه حاميهم ويسمون أنفسهم «أولاد عم». وكان لعم معابد في المدن ينسب إليها مثل «عم ذو شقرن» و «عم ذو ريمت» «وعم ذو يسن» أي معابد عم في مدن شقرن وريمت ويسرن.

وقد قرئ في نقوش قتبانية اسم آله آخر هو «أنبي». وفي أحداها أنه دون تقبلاً للآله أنبي وداعه له ليمن على الأرض بالخير والبركات مما يمكن أن يدلل على أنه كان إله المطر والخصب أو إنه كان يشغل المركز الذي كانت الزهرة تشغله عند المعينيين وهو على هذا الاحتمال ثالث الثالث.

وقد قرئ في نقوش قتبانية عبارات «حوكم وذات صفتكم وذات ظهران وذات سنظم وذات رحبن» وقد خمن الآثريون أن جملتي ذات ظهران وذات رحبن وصفيتان توصف بهما الشمس ولم نرهم يعلقون على العبارتين الثانيةتين. ولا يمكن القطع بما إذا كانتا جملتين وصفيتين أو أسمين لمعبودين ثانويين من معبدات القتبانيين.

وقد قرئ في نقش لا مرأة أو سانية جملة «معبد نعمان» دون بيان آخر. ولا يمكن الجزم بما إذا كانت كلمة نعمان تعني اسم المدينة التي فيها المعبد أو اسم معبد أو سانية لعله المعبد القومي للأوسانيين.

(١) جود علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحات ١٢٠ - ١٢٣.

والسبئيون كانوا يسمون معبودهم القومي باسم «المقه» ولما صار لهم السلطان الشامل صار المقه معبوداً عاماً للدولة مع بقائه معبودهم القومي على ما تف涕ه نقوشهم.

وقد كان اسم المقه يرمز إلى القمر. ولا ندرى هل كان هذا قبل أن يصبح معبوداً عاماً للدولة أو بعد ذلك^(١).

وقد قرئ في نقوش سبئية عبارات «عشر وهوس ذات حميم بالإضافة إلى المقه». ويحمن الآثريون أن جملة ذات حميم وصف للشمس، وأن السبئيين كانوا يصفونها كذلك بأوصاف ذات بدن وذات خضرن وذات بران. وهكذا يكون ثالوث القمر والشمس والزهرة قد استمر في عهد الدولة السبئية التي صارت شاملة السلطان بعد الدولة المعينة مع تبدل في التسمية للشمس والقمر^(٢). ولا تذكر النقوش شيئاً عن هوية هوس، مع أنها ذكرته مراراً. ولعله من الألهة الثانويين. وتقوش السبئيين تفيد أنهم كانوا يتولون بعشر فيقضاء حاجاتهم ومطالعهم وهو ما كان يفعله المعينيون قبلهم.

وفي العهود الأخيرة من الدولة السبئية ظهرت أسماء معبدات جديدة وتدنست منزلة المقه. ومن الأسماء الجديدة التي ظهرت «ذو سموى» أي رب السماء و«طالب ريم» و«أنتف بعلة ذي غفرن» ويستفاد من النقوش أن «طالب ريم» كان معبود بني مرثد القومي وحاميه فتألق نجمه حينما صار العرش السبئي لاسرة منهم. وقد قرئ في نقوش عديدة نسبة طالب ريم إلى المدن مثل «طالب ريم بعل مبين» و«طالب ريم بعل شurn» و«طالب ريم بعل خضعتن» و«طالب ريم بعل مدثن» و«طالب ريم بعل كبدم». وقد وصف في نقش بوصف شيخهموا أي حاميهم وراعيهم.

أما تسمية «ذ سموى» فمن المحتمل أن يكون أريد بها القمر أو الشمس

(١) ديتلف نلسون. المرجع السابق. صفحة ٢٠٩.

(٢) المرجع السابق. نفس الموضع.

قارن: جواد علي. المرجع السابق. الجزء الخامس. صفحة ١٢١.

وإن كانت تحمل معنى أبعد من ذلك وبكلمة أخرى تحمل معنى القوة التي وراء الشمس والقمر. وفي هذا تطور مهم في العقيدة الدينية.

وليس في النقوش ما يساعد على معرفة هوية ومركز تنفس ولكن النقش الذي ذكرت فيه قبلها مباشرة كلمة «تمسهم» ولا ندرى هل يعني ذلك أن التنفس هي اسم آخر للشمس أم أنها وصفت بالشمس^(١).

وهناك نقوش تفيد أن عبادة ذكر ذي سموى كانت محصورة في منطقة معينة، وكان ينسب إليه مدن معينة مثل «ذ سموى آله امر» و«ذ سموى بعل بين ظعن» و«ذ سموى بعل وترم». فمن المحتمل أن يكون «ذى سموى» في البدء إليها قومياً لإحدى القبائل ثم اتسعت دائرة ومعناه.

وهناك نقوش سبئية متاخرة منها ما هو قبيل الميلاد ومنها ما هو بعده بقليل ذكر فيها أسماء المقه وعشتر وهو بس وذات حميم وذات بعدان وذى سموى معاً، وقرىء في بعضهم اسم الشمس. حيث يدل هذا على أن الآلهة السبئية التي كانت ذات مكانة عالية في عهد السبئيين الأولين لم تتوار بالمرة مع تألق نجم ريان ثم ذ سموى في الوقت نفسه.

وهناك نقوش عديدة تفيد أنه كان في المدينة الواحدة معابد متعددة للآلهة المتعددة، وأن الملوك والأمراء والأغنياء كانوا يهتمون كثيراً بإنشاء المعابد وترميمها وتتجديدها وتزيينها^(٢).

وتفيض النقوش أنه كان للمعبودات مكانة عالية في أذهان اليمنيين بحيث يذكرونها ويلاحظونها ويتقربون إليها في كل حادث ومناسبة وعمل يربطون بينها وبين كل مناسبة وعمل وحادث غير أنه ليس فيها ما يساعد على معرفة أشكال الطقوس التي كانوا يؤدونها لهم. وليس فيها كذلك ما يدل على أنه كان عندهم فكرة عن حياة أخرى وثواب وعقاب في العالم الآخر. وكل ما تفيض به أنهم كانوا يعبدون معبوداتهم ويتقربون إليها ويزكرونها في مختلف

(١) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٨٤ - ٨٦.

(٢) المرجع السابق. صفحات ٨٦ - ٩١.

المناسبات ويربطون بينها وبين كل عمل وحادث لشئونهم المختلفة في الحياة الدنيا ويكلمة أخرى لضمان مطالعهم وقضاء حواجزهم وتحقيق آمالهم ودفع الشر والأذى عنهم وجلب الخير والنفع لأنفسهم. ويلاحظ هذا في مختلف النقوش المعينية والحضر موئية والقبانية والسببية على السواء وبالنسبة لمختلف الأدوار.

ولقد كان للكهانة وأوقاف المعابد وضرائبها حيز مهم في المجتمع اليمني على ما تفいで النقوش وكان الكهان نتيجة لذلك كأنهم دولة ضمن دولة بما كان يؤدي إليهم من ضرائب وموارد وبما كانوا يسهمون فيه من أعمال ومشاريع عامة وأقتصادية.

أما ظاهرة الملوك المكاربة فهي تمثل الكهانة في ذروتها العليا حيث كان الملوك المعينيون والسبئيون والقبانيون والحضر موتيون في البدء يتلقبون بلقب مكرب الذي كان فيه معنى الرئاسة الدينية والوسيلة التقريبية بين الآلهة والناس. وكثير منهم احتفظوا بلقب المكرب مع تلقيهم بلقب الملك لهذه الغاية^(١).

وهذا، ومن الجدير بالذكر أن القمر والشمس والزهرة كانت معبدات رئيسية في العراق والشام ومصر وسائر أنحاء الجزيرة في مختلف أدوار التاريخ القديم، وكانت الموجات العربية في العراق تسمى القمر سين والشمس شمساً والزهرة عشتار، وكانت الموجات العربية في الشام تسمى الزهرة عشرة أي أنها كانت تتمثل بالتسمية وبالعبادة مع جنوب الجزيرة مما يسوغ القول أن العبادة السماوية أصلية في الجنس العربي وإن وحدة الفكرة الدينية قائمة بين فرعون وإن هذا مما يؤيد وحده الارومه بين سكان الجزيرة ومهاجرها.

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى أن عبادة القمر والشمس أتت إلى اليمن من بابل مع أن المفترض أن يكون العكس هو الصحيح ما دام البابليون هم

(١) المرجع السابق. صفحات ٩٣ - ٩١.

موجة عربية الجنس تمت إلى جزيرة العرب، وعبادة المشاهد السماوية أشبه أن تكون من وحي طبيعة الجزيرة وسمائها ونجومها وليلاتها كما هو ظاهر. وليس معنى تأخر دولة معين في البروز عن دول العراق الأولى أنه لم يكن في اليمن دول قبلها ولم تكن عبادة سماوية في المهد الذي خرجت منه تلك الموجة كما لا يخفى. وللقمرا خاصية أثر عظيم في حياة الجزيرة العربية الشديدة الحرارة حيث يكون للليل وللقمرا الذي ينير ظلماته الأثر الأكبر في النفوس ولعل هذا هو سر جعل القمر المعبد الأكبر. وقد قال بعض الباحثين أن العربية الجنوبية أرسلت موجات متعاقبة من البشر سلكت الطرق البرية والبحريّة حتى وصلت إلى المناطق التي وصلت إليها واستقرت فيها. وهاجرت وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة وحملت فيما حملته الآله القمر^(١).

ويخطر بالبال في صدد العبادة السماوية والتعددية في اليمن ثم في مهاجر العرب الأخرى في التاريخ القديم أن العربي لا يعقل أن يكون قد أعتقد أن القمر والشمس والزهرة وغيرها من مشاهد السماء هي الخالقة المدبّرة للكون. لأن ما اكتشف لهذا النوع الجنس من مآثر في اليمن ومهاجرها منذ أقدم الأزمنة يدل على أنه لم يكن بهذا القدر من السذاجة الذي يجعله يعتقد أن هذه المشاهد الكونية هي خالقة الكون ومدبّرته، وأن كل ما في الأمر أنه كان يراها كعيون لقوة خفية عظيمة تكمن في الكون وتتجلى في الدرجة الأولى في السماء، وإنه كان يتبعد للقمر والشمس والنجوم كوسيلة إلى ما وراءها، لأن الذهن البشري في ادوار حضارته الأولى كان ينصرف دوماً إلى المشاهد المرئية ويتأثر بالمشاهد السماوية.

ومثل هذا يصح أن يقال بالنسبة للأصنام والأوثان والمعابد المادية التي أتخذها العرب حيث لم تكن إلا رمزاً وهيأكل مادية في الأرض لقوى

(١) جواد علي. المرجع السابق. الجزء الأول. صفحات ١٦٠ - ١٦١.
قارن: محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٨٦ - ٩١.

الخفية السماوية ليؤدوا عندها طقوسهم وينذبحوا قرابينهم جلباً لما يتغرون به من منافع ومطالب ودفعاً لما يخشونه من شرور وأضرار. وتعدد الآلهة السماوية والمادية مرده في الغالب تعدد المطالب وال حاجات واعتقاد العرب بضرورة جعل وسيلة خاصة لكل مطلب وحاجة كما أن فيه ما يعود إلى شعور كل فريق أو عشيرة أو منطقة أو مدينة إلى حام خاص يحميهم ويكون لهم ملجاً ومرجعاً مع ملاحظة القوة الخفية العظمى الكامنة وراء ذلك كله^(١).

ولعل مما له دلالة على هذا كلام عربية الجنس كانت منذ القديم في مختلف اللهجات العربية القديمة بمعنى الآله وهي الكلمة «ايل» التي تعني الرب أو الآله في المعينة والسبئية والبابلية والأرامية والكنعانية والسريانية والعبرانية والتي يصح أن يقال أنها الأصل الذي تطورت عنه الكلمة «الله» أو «الله» في العربية الفصحى حيث وجدت هذه الكلمة بهذا المعنى في الآثار البابلية والكنعانية والفينيقية والسريانية والأرامية والعبرانية كما وجدت في السبيئية والقبطانية والحضر موتية الخ. فالذي يتadar إلى الذهن أن هذه الوحدة في اللفظ والمعنى لا بد من أنها تعني وحدة عامة في الفكرة وتقوم دليلاً على وحدة الربوبية العليا عند الناطقين بها. ويجلد بالذكر أن هذه الكلمة كانت تلحق بالاسماء في اللغات المذكورة جميعها ليكون فيها دلالة على الاعتراف بعبودية أصحابها للله^(٢).

(١) محمد عبد المعيدخان. المرجع السابق. صفحات ١٠٧ - ١١١.

قارن: السيد عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحة ٤٠٩.

(٢) محمد عزة دروزة. المرجع السابق. صفحات ٩٤ - ٩٥.

ديبلف نسلون. المرجع السابق. صفحة ٢٠٩.

قارن: السيد عبد العزيز سالم. المرجع السابق. صفحات ٤١٠ - ٤٠٩.



ملحق الأشكال

السبانية	العربية الجوتية	الفنيقية	رأس شمرة	العربية اللاتينية
RA	ا	ا	A	ا
□ □ □ □	ك	ك	B	ك
□	ج	ج	CG	ج
□	د	د	D	د
□	ه	ه	E	ه
□	و	و	FV	و
□	ز	ز	...	ز
□	ن	ن	H	ن
□	م	م	...	م
□	ل	ل	I	ل
□	س	س	L	س
□	ف	ف	M	ف
□	ي	ي	N	ي
□	ط	ط	X	ط
□	ح	ح	O	ح
□	د	د	P	د
□	ز	ز	...	ز
□	ن	ن	Q	ن
□	م	م	R	م
□	ل	ل	S	ل
□	س	س	T	س
□	ش	ش		ش
□	ت	ت		ت

شكل (1)

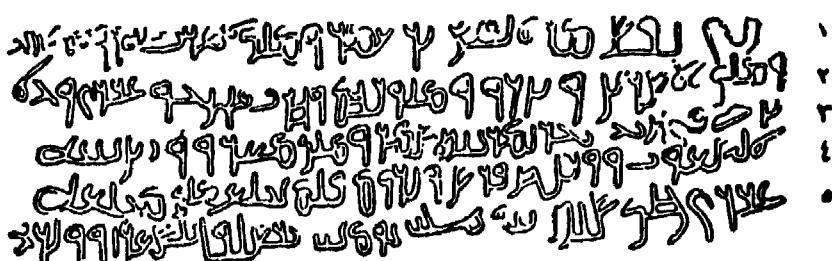
جدول: بعض الأبجديات القديمة مقارنة بالأبجدية العربية
عن: فيليب حتى

خ	٦	ل	١ ٨ ٨
ط	٧	ب	{ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
ذ	٨	ت	٢ ٤
ع	٩	ث	٣ ٣
غ	٩ ٩ ٩ ٩ ٩ ٩	ج	٤ ٤
ف	٥ ٥	ح	٥ ٥
ق	٦	خ	٦ ٦ ٦ ٦ ٦ ٦
ك	٦ ٦ ٦ ٦	د	٧ ٧ ٧ ٧ .
ل	١ ٢ ٦ ٣	ذ	٨ ٨ ٨ ٨ ٨ ٨
م	٨ ٨ ٨ ٨ ٨ ٨	ر	{ ٩ ٩ ٩ ٩ ٩ ٩ ٩ ٩ ٩ ٩
ن	٤ ٤ ٤	ز	٩ ٩ ٩
و	٥ ٥ ٥	س	٨ ٨ ٨ ٨
ه	٧ ٧ ٧	ص	٧ ٧ ٧
ي	٩	ش	{ ٤ ٣ ٢ ٣ ٣ ٣ ٤ ٣
		س	٨ ٨ ٨

شكل (٢)

الحرف المستند أو الأبجدية الحميرية
عن: جورجي زيدان

نقش عربي يخط نبطي على قبر امرىء القيسرين بين عمرو و



نص النقش بالحرف العربي كل سطر على حدة

- ١- ثي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر الناج
 - ٢- وملك الاسدرين وزنور وملوكيهم وهرب مذحجو عكدي وجاء
 - ٣- برجو (؟) في حبيج نجران مدينة شمر وملك مدعو ونزل بنيه
 - ٤- الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
 - ٥- عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ يكسنلول يلسعد ذو ولده

ترجمة النشر باللغة العربية

- ١ - هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد الناج
 - ٢ - وأخضاع قبيلتي أسد ونزار وملوكيهم وهزم مذحج إلى اليوم وقد
 - ٣ - الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضاع معداً واستعمل بنية
 - ٤ - على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك ميلafe
 - ٥ - إلى اليوم . توفي سنة ٢٢٣ ، في اليوم السادس من أيلول (سبتمبر) وفق بيته للسعادة .

شکل (۳)

نقش بخط نبطي على شاهد قبر امرأة القيس
عن: جورج زيدان

شکل (۴)

الخطوط العربية القديمة مقارنة بالخط النبوي

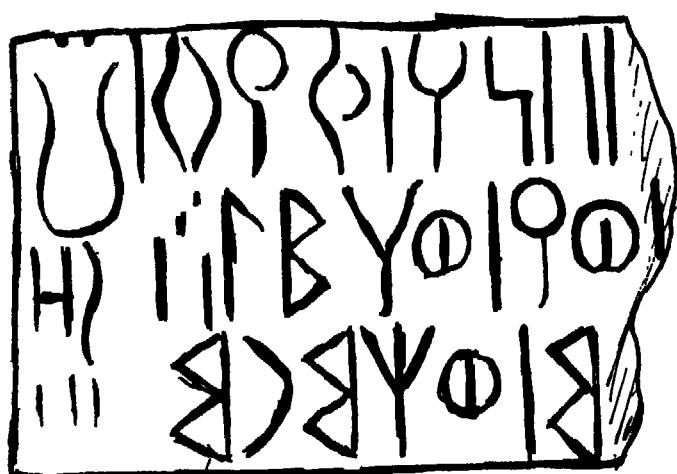
شکا، (۵)

الخطوط الصفوية والشمودية واللحيانية مقارنة بالخط السبأي

تبوك العجائز المثودي نجد متأثر مبكراً ودان الجوف سيماء

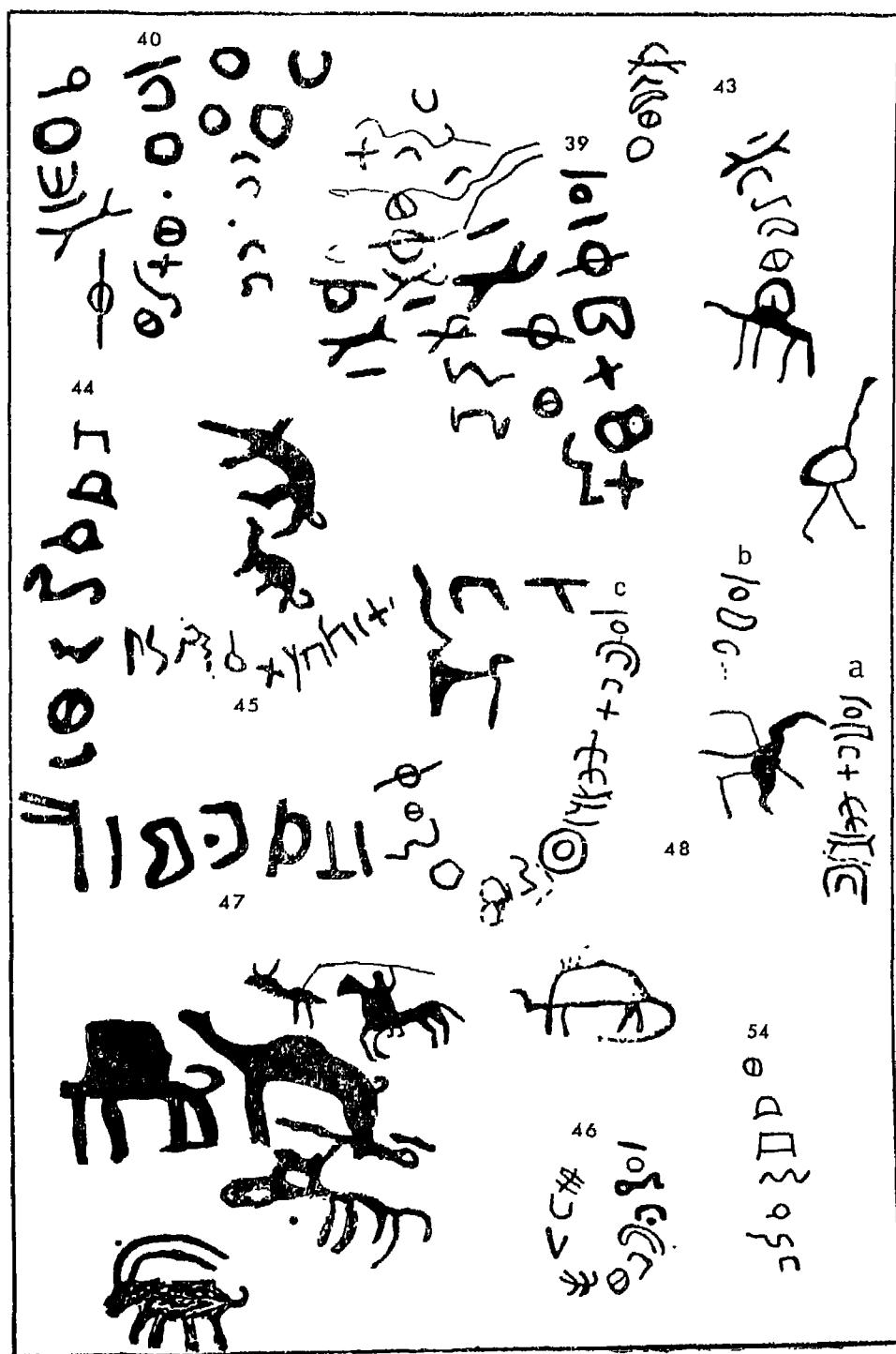
شکل (۶)

قائمة نقوش الحجاز ونجد
عن: السيد عبد العزيز سالم



شكل (٧)

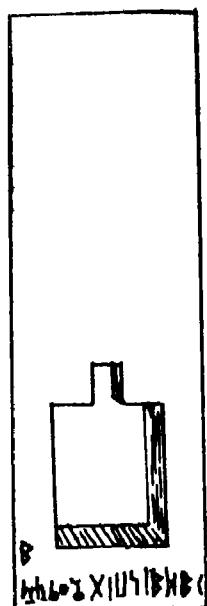
جزء من نقش سبأي على الحجر الجيري (متحف ثينا)
عن: السيد عبد العزيز سالم



عن: السيد عبد العزيز سالم

كتابه ونقوش ثمودية

شكل (٨)



شكل (٩)

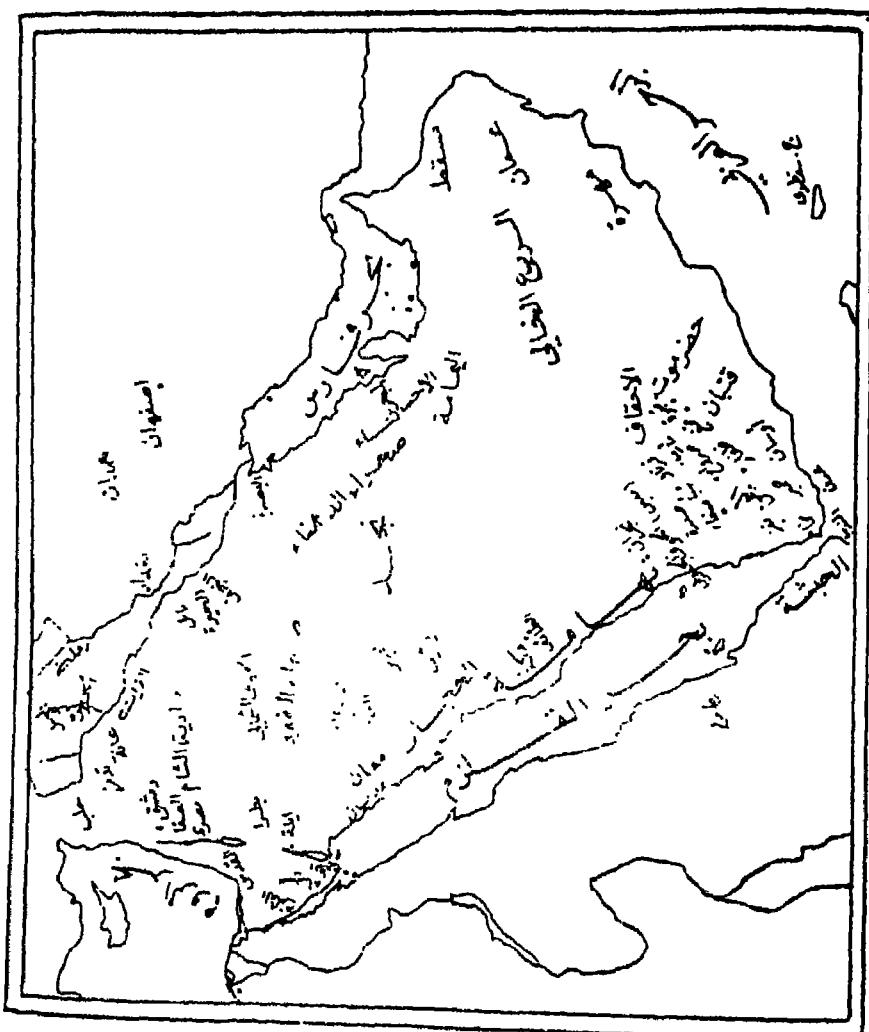
أ - نصب من مأرب

ب - حجر كريم سبأي بالمتحف البريطاني

عن : السيد عبد العزيز سالم



شكل (١٠) بلاد العرب قبل الاسلام عن: مصطفى العبادي



شكل (١١)
بلاد العرب
عن: سعد زغلول عبد الحميد. في تاريخ العرب قبل الإسلام



شكل (١٢)
اليمن والجشة
عن: ستيتو موسكاتي. الحضارات السامية القديمة



(شكل ١٣)

شمال الحجاز

عن: سعد زغلول عبد الحميد



مصادر
ومراجع الدراسة

أولاً: مصادر عربية

- القرآن الكريم .
- التوراة .
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٥ .
- ابن الكلبي : كتاب الأصنام ، نشره أحمد زكي باشا ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ، بيروت ١٩٥٦ .
- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ، بيروت ١٩٧١ .
- ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ .
- ابن كثير: قصص الأنبياء ، القاهرة ١٩٦٨ .
- ابن منظور: لسان العرب ، بيروت ١٩٥٥ .
- الطبرى: تاريخ الطبرى ، القاهرة ١٩٦٠ .
- الهمذانى: صفة جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٥٣ .
- الزبيدي: تاج العروس ، الكويت .
- عبيد بن شرية: أخبار عبيد بن شرية ، ملحق بكتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر أباد ١٣٤٧ هجرية .
- وهب بن منبه: كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر أباد ١٣٤٧ هجرية .
- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥ .

ثانياً: مصادر لاتينية ويونانية

- Arianus, Anabasis, loeb.
- Diodorus Siculus, Loeb.
- Herodotus, Historiae, Loeb.
- Josephus, Jewish war, Loeb.
- Josephus, Jewish Antiquities, Loeb.
- The Perilpus Maris Erythraei, Text with introduction, Translation and Commentary, Princeton University Press 1989.
- Pliny, Historia Naturalis, Loeb.
- Ptolomy. Geography, Loeb.
- Strabo, Geography, Loeb.
- Theophrastos, Loeb.

ثالثاً: مراجع باللغة العربية

- إبراهيم أحمد رزقانة: العائلة البشرية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٤.
- أحمد الشامي: في تاريخ العرب والإسلام، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٢.
- أحمد فخرى: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة ١٩٥٨.
- أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥.
- أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، غير منشور، بيروت ١٩٨٨.
- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي (منذ أقدم العصور حتى قيام الدولة العربية الإسلامية)، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٠.
- توفيق سليمان: الفن الحديث في التنقيب عن الآثار، منشورات الجامعة الليبية ١٩٧٢.
- تيودور نودكله: امراء غسان من آل جفنة، تعریب جوزی زریق، بيروت ١٩٣٣.
- جورجي زیدان: العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٦.
- جوردون تشایلد: التطور الاجتماعي، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٥.
- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ٦٨ - ١٩٧١.
- حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١.
- حسين الشيخ: اليونان، الإسكندرية ١٩٩٢.

- رشيد الناصوري : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ١٩٦٩ .
- سبتيño موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٦٨ .
- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٥ .
- سيد الناصري : المصريون والعرب وعلاقتهم بإفريقيا في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩٠ .
- شوقي ضيف: العصر الجاهلي ، القاهرة ١٩٦٠ .
- صالح العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، الجزء الأول ، بغداد ١٩٥٩ .
- طه حسين : في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٣٣ .
- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٧ .
- عبد الرحمن الطيب الأنباري : لمحات عن القبائل البدية في الجزيرة العربية ، مطبوعات جمعية التاريخ والآثار بكلية الآداب جامعة الرياض ، ١٩٦٩ .
- عبد المعطى شعراوي : أساطير إغريقية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ .
- علي سامي النشار: نشأة الدين ، النظريات التطورية والمؤلهة ، الاسكندرية ١٩٤٩ .
- عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ .
- فوزي الفخراني : الرائد في فن التنقيب عن الآثار ، منشورات جامعة قاريونس ١٩٧٨ .
- فيليب حتي: تاريخ العرب ، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور ، بيروت ١٩٦٥ .
- كامل الصليبي : التوراة جاءت من جزيرة العرب ، ترجمة عفيف الرزاز .
- مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٦ .

- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعریب نبیه أمین فارس و منیر البعلبکی، بیروت ۱۹۴۸.
- کارل مارکس: بؤس الفلسفه، ترجمة أندريه یازجي، بیروت ۱۹۶۶.
- لطفی عبد الوهاب یحیی: العرب في العصور القديمة، الاسكندرية ۱۹۹۲.
- محمد بیومی مهران: العرب وعلاقتهم الدویلیة في العصور القديمة، مجلة كلیة اللغة العربية والعلوم الإجتماعية، العدد السادس، الیاض ۱۹۷۶.
- محمد بیومی مهران: إسرائیل، الاسكندرية ۱۹۷۳.
- محمد بیومی مهران: تاريخ العرب القديم ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الیاض ۱۹۷۷.
- محمد عبد الله دراز: المدخل إلى القرآن الكريم، الكويت ۱۹۷۴.
- محمد عبد المعید خان: الأساطیر العربية قبل الإسلام، القاهرة ۱۹۳۷.
- محمد عزه دروزة: تاريخ الجنس العربي ، الجزء الأول، بیروت.
- محمد مبروك نافع: تاريخ العرب (عصر ما قبل الإسلام)، القاهرة ۱۹۰۲.
- محمود طه أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة العربية، الجزء الأول، القاهرة ۱۹۶۵.
- مصطفی العبادی: تاريخ العرب قبل الإسلام، غير منشور، بیروت ۱۹۸۴.
- نجيب میخائيل إبراهیم: مصر والشرق الأدنی القديم (سوریة)، دار المعارف ۱۹۶۴.
- نیلسن: التاریخ العربي القديم (مجموعۃ أبحاث ل: د. نیلسن، ف. هومل، ل. رودکاناکیس، أ. جرومأن)، ترجمة فؤاد حسین، القاهرة ۱۹۵۸.

رابعاً: مراجع بلغات أخرى

- W. F. Albright, The Bible and the Ancient Near East, London 1961.
- H. E. Barnes, A History of Historical writing, Dover publications, N. Y. 1962.
- Bennet Simon, Mind and Madness in Greece, Cornell 1978.
- J. H. Breasted, Ancient times, London 1921.
- J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, London 1906.
- Charles Pfieffer, The Biblical world, New York 1979.
- M. Carnforth, Historical Materialism, New York 1977.
- G. A. Cooke, Palmyra (in Encyclopaedia Biblica) 17. 1964.
- De Lacy O'leary , Arabia before Muhammed, London 1927.
- D. P. Dymond, Archaeology and History, A Plea for reconciliation, Thames and Hudson, London 1964.
- F. Engles, The origin of The Family , London 1952.
- George Divereux, Dreams in Greek Tragedy, Oxford 1976.
- N. Glueck, the Story of The Nabataeans, New York 1965.
- Gordon Child, What Happened in History, Penguin 1942.
- G. W. F. Hegel, The Philosophy of History, Dover Publications, New York 1965.

- James Sanders, Near Eastern Arhaeology in Twentieth Century, New york 1979.
- H. L. Jones, The Geography of Strabo, London 1949.
- Leonard wooley, Digging up The Past, London 1930.
- Luckenvill, Ancient Records of Assyria and Babylonea, Chicago 1927.
- Mommsen, Provinces of The Roman Empire, Vol. I, Oxford 1972.
- S. Moscati, Ancient Semitic Civilization, London 1957.
- A. Musil, Arabia Deserta, New york 1930.
- St. J. Philby, The Background of Islam, Alexandria 1947.
- g. Plekhamove, The Materialist Conception of History, Moscow 1946.
- V. Podosethik, A. Spirkin, A Glance at Historical Materialism, Moscow.
- Rose, Greek Mythology, Methuen 1935.
- M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic world, Vol. I, Oxford 1945.
- A. Toynbee, Greek Historical Thought, Macmilan 1924.
- Wendell Philips, Qataban and Sheba, London 1945.

الفهرس

٥	مقدمة عن التاريخ والحضارة والأثار
٧	عن التاريخ
٢٣	عن الحضارة
٢٣	ثقافة أم حضارة
٢٤	المقوم الاقتصادي للحضارة
٢٦	المقوم السياسي للحضارة
٢٧	المقوم الأخلاقي للحضارة
٢٨	المقوم الفكري للحضارة
٣١	عن الآثار
القسم الأول	
٣٧	الخلفية التاريخية
٣٩	الفصل الأول: المصادر
٤١	المصادر الأثرية
٤٧	المصادر الكتابية
٤٧	أولاً: كتابات غير عربية
٤٧	١ - كتابات يهودية
٤٨	٢ - كتابات كلاسيكية
٥١	٣ - وثائق بردية
٥١	ثانياً: كتابات عربية

٥١	١ - القرآن الكريم
٥٢	٢ - الحديث الشريف
٥٣	٣ - الشعر الجاهلي
٥٤	٤ - كتاب التاريخ الإسلامي
٥٧	الفصل الثاني: الأرض والسكان
٥٩	أولاً: الأرض
٦٥	ثانياً: السكان واللغة
٦٩	ثالثاً: القبائل العربية
٧٣	الفصل الثالث: دول شبه الجزيرة العربية
٧٥	أولاً: دولة معين
٧٩	ثانياً: دولة حضرموت
٨٢	أهم مدن حضرموت
٨٥	ثالثاً: دولة قتبان
٨٩	رابعاً: دولة سباء
٩٣	أصل السبئيين
٩٤	مراحل التاريخ السبئي
٩٧	سياسة سباء الداخلية في عهد المكاربة
١٠٤	سياسية سباء الخارجية في عهد المكاربة
١٠٧	سياسة سباء الداخلية في عصر الملوك
١١٠	السياسة الخارجية
١١٧	خامساً: الأنباط
١٤٣	سادساً: تدمر
١٥٧	سابعاً: الغساسنة
١٦٥	ثامناً: مملكة كندة
		القسم الثاني
١٧٣	الخلفية الحضارية
١٧٥	الفصل الرابع: العلاقات الخارجية

١٧٧	العلاقات العربية المصرية
١٧٨	نحاس سيناء
١٧٩	اللبنان
١٨٠	اتصال العرب بالسومريين
١٨١	توغل الأشوريين في البادية
١٨٢	صلة العرب بالكلدائيين
١٨٤	اتصال العرب بالعبرانيين
١٨٥	العرب في آداب اليونان والرومان
١٨٦	الحملة الرومانية
١٨٩	الفصل الخامس: الفكر الديني العربي القديم
١٩١	أولاً: الأسطورة
١٩٥	ثانياً: الدين والأسطورة
٢٠١	ثالثاً: الفكر الديني
٢٠٩	ملحق الأشكال
٢٢٥	مصادر ومراجعة الدراسة
٢٢٧	أولاً: مصادر عربية
٢٢٩	ثانياً: مصادر يونانية ولاتينية
٢٣١	ثالثاً: مراجع باللغة العربية
٢٣٥	رابعاً: مراجع بلغات أخرى

